شعراء البحر

محمد رضوان



بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد
اسم الكتاب: شعراء البحر
اسم المؤلف: محمد رضوان
رقم الايداع : ٢٠١٦/١٥٨٢٣

الطبعة الأولى ٢٠١٦



القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل
ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت . ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ _ ٢٢٨٧٧٥٧٤
Tokoboko_5@yahoo.com

في بحر الهوى!

أيهـــا الهـــاجِر عـــزَّ الملتقـــى
وأذبــت القلــب صــدًا وامتناعــا
أدركِ التائـــه في بحـــر الهـــوى
قبــل أن يقتلــه المــوجُ صراعــا
ضـــلَّ في الليـــل سَراهُ، ومـــضَى
لا يـــرى في أفـــقٍ منـــه شـــعاعا
فاجعـــل البحـــر أمانًـــا حولـــه
وامـلأ الـسهل سـلامًا واليفاعـا
وامـــسح الآن عـــلى آلامـــه
بيـد الرفـق التـي تمحـو الـدماعا
وقُـــد الفلـــكَ إلى بـــرِّ الرِّضـــا
وانشر الحبَّ على الفلك شراعا

علي محمود طه

مقدمة

الشاعر ... وسحر البحر !

يظل البحر منبعًا ثرًا للشعراء .. فالبحر للشاعر الرومانسي يمثل لديه مستودعًا لسره ، ومصبًا لامتصاص همومه وأحزانه ومشاعره الحزينة والسعيدة .. وصدى لعواطفه المشتعلة نحو محبوبته.

وهو للشاعر الحائر المتفلسف عالمًا مجهولاً يحوي سر الكون وغموضه الذي يثير لديه من التساؤلات والحيرة أكثر مما يثير لديه من المتعة والبهجة:

وهو للشاعر المتأمل يرى فيه أعماقًا سحيقة تثير الخوف والرهبة لديه حيث ترتبط بأساطير البحر وجنياته الغامضة وأسراره المجهولة !

وهو للشاعر العاطفي العاشق يتمثل في زرقته لون عيني ملهمته .. وفي موجه المتدافع صورة له وهو يعدو وراءها .. وفي زبد الموج .. تماوج سحرها وفتنتها .

كما يرى جمال البحر في منظر الفاتنات السابحات حين تضمها أمواجه العاشقة .. فيحسدها ويتمنى لو كان موجة سارية عاشقة تضم تلك الأجساد البيضاء الفاتنة !

وهكذا تتفاوت نظرة الشعراء ورؤيتهم للبحر بتفاوت تكوينهم وفلسفتهم ونزعاتهم !

* * *

وإذا عدنا إلى تراثنا العربي القديم وجدنا الكثير من حكايات البحر وأساطيره .. ولعل «حكايات السندباد البحري » ومغامراته في البحر وحكايات ألف ليلة وليلة أكبر دليل على عشق العرب للبحر ، واستلهامه في أعمالهم الأدبية

وأساطيرهم الشعبية ، من خلال حكايات عرائس البحر وجنياته ومن تصوير أسطورى لعالم البحر ومجاهله .. إلى غير ذلك من الأنواع المختلفة التي أثرت أدب البحر على مر التاريخ ، وجمعت بين الأسطورية والواقعية والرومانسية واستهدفت اكتشاف الطبيعة البحرية وتفسيرها واستغلالها لصالح البشرية وفتح آفاق جديدة أمامها ، والقضاء على اغتراب الإنسان وعزلته . فإذا كان بعض الدارسين يرى [1] أن الأدب كان طليعة لاكتشاف عالم البحر وفهمه وتفسيره ، كما أسهم في ارتياده وتسجيل عالمه الجميل المضطرب وإبداع النماذج الأسطورية والرومانسية والواقعية المعبرة عن تطور علاقة الإنسان بالبحر ، والتي تتراوح بين القوة والضعف، من ارتياد الطبيعة البحرية وتحديها إلى الخوف منها والاستسلام لها، فصاحب ارتياد الإنسان للبحار والمحيطات ظهور أدب البحر الذي يستهدف التعبير عنه ، والذي يكون البحر موضوعه الرئيسي المؤثر في الأحداث والشخصيات ، وفي الرؤية الكلية للعمل الأدبي ، فيضم أدب البحر : الأسطورة والملحمة والشعر والحكاية الشعبية وأدب الرحلات البحرية والقصة والرواية ، ويجمع في نماذجه بين الشخصيات الأسطورية والشخصيات الواقعية ، بين الرؤية الرومانسية للطبيعة كمجال للهروب والاستسلام ، وبين الشخصيات البطولية ، التي هي جماع لكل عناصر القوة والذكاء والمغامرة في صراعها مع قوى البحر فأنني آثرت في هذا الكتاب أن أتناول علاقة الشعراء بالبحر كموضوع مثير ملئ بالخصوبة والتنوع يشكل لنا عالما ثريًا مليئًا بالمشاعر الإنسانية المختلفة ، وبالتنوع في الانفعالات والأحاسيس أمام البحر .. بامتداده ولا نهائيته ، وسحره ، وغموضه ، وسكونه ، وعواصفه ، برقته ، وقسوته ، بوداعته ، ورعونته ، بحكاياته وأساطيره ، بحنانه الآسر ، وغضبته الجامحة ، ومن كل هذه الألوان والصور يبقى للبحر سحره الخاص الذي يجعل الشعراء يقفون أمامه مفتونين وقد أسرهم سحره الرائع وسره الغامض المثير !

***

(١) أحمد محمد عطية ، أدب البحر ، ص ٧ .

وإذا قرأنا شعرنا العربي قديمه وحديثه ، ولاحظنا شيئًا غريبًا مثيرًا للانتباه والتأمل ، وجدنا أن استلهام البحر في شعرنا القديم قليل بالقياس إلى تأثيره العميق في شعرائنا المعاصرين ، خاصة شعراء جماعة أبو للو ، وشعراء المهجر ، وبعض شعرائنا المعاصرين ، وإذا كان البعض قد فسر ذلك بأن العرب القدماء هم أبناء الصحراء ، وأن الصحراء هي عالمهم الوحيد الذي لم يتعدوه إلى عالم البحر ، وأنهم ركبوا الإبل والخيل ولم يركبوا السفن ، فإن ذلك القول يجافي الحقيقة والواقع ، فإن هناك لمحات شعرية عديدة وصور وألوان من شعر البحر ليست كثيرة لكنها ذات دلالات في ارتباطهم بالبحر ، خاصة أن العرب نشأوا وعاشوا في شبه جزيرة تحيط بها مياه البحار من ثلاثة جوانب [٢] وإن كانت معظم قصائد البحر عند العرب ترتبط بالمعارك البحرية ، فحفل أدب البحر الحربي عند العرب بالنماذج الشعرية المتفردة التي تصف معارك العرب الحربية في البحر ، ومن أبرز نماذج شعراء البحر العرب الذين قدموا نماذج شعرية في شعر البحر : البحتري ، وطرفة بن العبد ، وامرؤ القيس ، والنابغة الذبياني ، والبحار العربي ابن ماجد .

لكن إذا طالعنا شعراء القرن العشرين ، وجدنا شعرهم كان حافلاً بشعر البحر، بكل ألوانه وصوره وتموجاته النفسية واللونية والشكلية .

وجدنا الكثير من هذا اللون عند شعراء مثل ناجي وعلى محمود طه ، وإيليا أبو ماضي والأخطل الصغير ، وخليل مطران ، وصالح جودت وأحمد زكي أبو شادي ، وخليل شيبوب ، وعبد العليم القباني ، لكن من أكثر الشعراء الذين ارتبطوا بعالم البحر وأسراره على محمود طه الذي حمل لقب «الملاح التائه» ، وألهمه عالم البحر ومجاهله وأسراره العديد من قصائده الوصفية والعاطفية والتأملية ، مما جعله بحق «أمير شعراء البحر» !

(٢) راجع أدب البحر ، ص ١٤ .

وبعد ، فسيظل البحر أمام الشعراء عالمًا سحريًا غامضًا يشد وجدانهم وعقولهم نحو أسراره ومجاهيله وغوامض أعماقه ، وسحر أمواجه .

وفي هذا الكتاب حاولت أن أفسر سر البحر وسحره وتأثيره في أعماق كل من أحبه وعشقه ووقع أسير هواه أو خاف منه وهرب من أسراره ومجاهله .

وفي كلتا الحالتين يظل للبحر سره وسحره وعالمه المثير الغامض خاصة أمام الشعراء الذين وقفوا أمام سحره وغموضه وأسراره .

القاهرة مايو ٢٠١٢ **محمد رضوان**

العرب والبحر

يرى د . سيد نوفل أن اتصال عرب الجزيرة العربية منذ القدم بالبحار المحيطة بهم مثل بحر الروم (البحر الأبيض المتوسط) ، وبحر القلزم (البحر الأحمر) ، وبحر العرب (المحيط الهندي) وبحر العجم (الخليج الفارسي) .

كان عابرًا في رحلات التجار منهم إلى أطراف بلادهم .. ظل البحر في الجاهلية مثار الرهبة ومصدر الأقاصيص والأساطير ، صادرة عن الخيال العربي الثري على فقر بيئته بفنونه وأعاجيبه وممثلة في الوقت ذاته النأي عن اقتحام البحر ، وركوب عبابه.

يقول د . سيد نوفل عن ارتباط العرب بالبحر[1] :

الذي فتن العرب في الجاهلية أعظم الفتنة ، وأثار فيهم القوة والبأس ، هو الماء والخضرة بصورهما القليلة المتيسرة في شبه الجزيرة .. فالعرب في تشبثهم ببيئتهم شديدو الإعجاب بجنات الخضر ونعيمه ، يقصون عنه القصص ويعجبون برخائه ، وكان نزول الغيث مثيرًا لشجاعتهم، حتى قالوا أنهم إذا أخصبوا هاجت أضغانهم ، وطلبوا الثأر من أعدائهم . وتمنوا أن يتصل الغيث حتى تتغير أحوالهم ، وينقلوا العربي من قبته البالية إلى بناء مرموق .

لو وصل الغيث لأبنينا[2] امرأ
كانت له قبة سحق بجاد

وقال الشاعر :

(١) الهلال ، أغسطس ١٩٧٢ .

(٢) أبنينا: بنينا ، سحق بجاد : كساء بال.

إن الــذئاب قــد أخــضرت براثنهــا
والنـــاس كلهمـــو بكـــر إذا شــبعوا

وقال ثان متصورا أن الماء والشبع ودر الضرع هو الذي يدفع العرب إلى الحرب :

يــا ابــن هــشام أهلــك النــاس اللــبن
فكلهـــم يـــسعى بقـــوس وقـــرن

وقال ثالث :

وفي البقـــــل أن لم يــــدفع الله شره
شــياطين ينـــزو بعـــضهن إلى بعـــض

وقال رابع مصورًا أثر الماء والخضرة في العربي :

قـــوم إذا نبـــت الربيـــع لهـــم
نبتـــت عـــداوتهم مـــع البقـــل

ولعل معنى الحرمان هو الذي جعل العرب يبالغون في تقدير الخصب ، ويرون له رونقًا رائعًا في بيئتهم الجرداء .. ولهذا قدسوا مواطن الماء القديمة ، واعتقدوا أن فيها أسرارًا غامضة .

الاسكندر والبحر والعرب

وإذا كـان الاسكندر مـن أصـحاب الفتوحـات البحريـة القديمـة ، وكـان العرب يعرفون من أمره ما يعرف غيرهم من شعوب الأرض ـ فقد دارت حـول مغامراتـه البحريـة أقاصيص أو أسـاطير عربيـة موفـورة . ومـن ذلـك قـولهم أن الاسكندر لما سار عند بحر الظلمات ـ يعنون المحيط ـ مر بجزيرة فيها أمة رءوسهم مثل رءوس الكلاب ، يخرج من أفواههم مثل لهب النار. خرجوا إلى مراكبه وحاربوه ، ولكنه قضى عليهم ، وسار في البحر ، فرأى صورًا متلونة بألوان شتى ، وسمكًا طوله مائتا ذراع أو أكثر ..

ومر بجزيرة «الواق» خلف جبل يقال له «اصطفيون» داخل البحر الجنوبي. وفيها من العجائب شجر يشبه الموز ويحمل ثمرة كهيئة الإنسان .. فإذا نضجت سمع لها صوت مثل «واق واق» ثم سقطت ...

وقيل أن الاسكندر لما فرغ من بناء سده نام ، فصعد إليه حيوان عظيم من البحر إلى أن علا وسد الأفق ، فظن من حول الملك المقدوني أنه يريد ابتلاعهم . فانتبه الملك على فزعهم ، وسألهم أمرهم .. فأشاروا إلى حيوان البحر العظيم . فطمأنهم الاسكندر مؤكدًا ثقته في الله وفي رعايته إياه. وحينئذ دنا الحيوان البحري من الملك وقال : «أيها الملك .. أنا حيوان من هذا البحر ، وقد رأيت هذا السد قد بني وخرب سبع مرات » ، ولم يزد على ذلك ، ثم عاد إلى البحر وغاب .

فأقاصيص البحر كثيرة عند العرب قبل الإسلام . وكلها تبين عن نظرتهم الرهيبة إلى مجهول البحار، وتهيبهم إياها ، وتصورهم لها عالمًا حافلاً بخلقه الذي يشبه عالم البر من الإنس والجن والعمالقة والشياطين ..

البحر في الشعر الجاهلي

وكان طبيعيًا ألا يحظى البحر في الشعر الجاهلي بقدر مذكور من عناية الشعراء. ولعل أبا الشعر القديم ، «امرؤ القيس» لو تهيأت له الرحلة إلى بلاد الروم في أول حياته ، لأغنى شعر الجاهلية بصور البحر ، والحديث عن طبيعته ، ولتبعه الشعراء في بحرياته مثلما تبعوه في الوقوف بالأطلال ورحلة الصيد ووصف الطبيعة البدوية .

أما الشاعر الجاهلي الذي ظفر منه البحر ببعض العناية فهو طرفة بن العبد .. لكن هذه العناية لا تتفق ونشأة طرفة ومماته بالبحرين على شاطئ الخليج . ولعل لموته في ريعان الشباب وحياته القلقة المضطربة المتنقلة بين بلاد الجزيرة ـ لعل لهما أثرًا في انصرافه عن وصف الطبيعة البحرية ومباهجها وأهوالها .

ومهما يكن من أمر فقد ظهرت عناية طرفة بن العبد بالبحر واستيلاؤه على مشاعره . ولهذا جاء شعر الطبيعة عند طرفة ممثلاً حياته وثقافته أصدق تمثيل .. أنه يمثل الجمع بين معاني البادية التي تثقف بها وطافها على ظهر ناقته وبين معاني الحضر البحري الذي نشأ فيه بين جماعة بكر بالبحرين، وشاهد مظاهر أقوى له عند عمرو بن هند بالحيرة وفي أطراف الجزيرة المساحلة للبحر..

أنه يبدأ المعلقة بحديث الأطلال ووصف مراكب النساء، متبعًا الأسلوب العربي القديم الذي ابتدعه أو أبدع فيه امرؤ القيس ، لكنه لا يلبث أن يعبر عن فتنته بالبحر حين يقول كأن مراكب الحبيبة وصواحبها سفن عظام يوجهها الملاح إلى أمام تارة ، وينحرف بها أخرى ، تشق صدورها الماء وتقسمه كما يقسم اللاعب التراب بيده . ويذكر من مواطن البحرين «عدولي» ومجاري المياه ببعض الوديان ومنها :

كـــأن حـــدوج المالكيـــة غـــدوة
خلايـــا ســـفين بالنواصـــف مـــن دد
عدوليـــة أو مـــن ســـفين ابـــن يـــا مـــن
يجـــور بهـــا المـــلاح طـــورًا ويهتـــدي
يـــشق حبـــاب المـــاء حيزومهـــا بهـــا
كـــما قـــسم الـــترب المفائـــل باليـــد

وقد سبقه المرقش الأكبر ، بل امرؤ القيس ذاته في تشبيه الرحيل بسير السفن، لكن طرفه أول من أطنب قليلاً في وصف السفن والملاحة البحرية على هذا النحو .

القصص والأساطير البحرية

وبعد الإسلام ، ورغم أنه خلق العرب خلقًا جديدًا ، ومكنهم من السيطرة على البحر ، وهيأ لهم قوة بحرية مرموقة في مدى قرن أو نحوه ـ رغم ذلك كله فقد ظل اللون الاسطوري من أدب البحر سائرًا لم يتوقف ..

ومن ذلك تفسير المد والجزر في البحر ، بأنه من عمل ملك عال قائم بين البحرين إن وضع رجله في البحر حدث المد . وإن رفعها حدث الجزر .

عن حيوان البحر

أما الروايات الخاصة بحيوان البحر أو سمكه ، فلا تخلو من طرافة ودلالة .. ومنها ما روي عن جابر بن عبد الله وكان في بعثة أبي عبيدة إلى ساحل البحر لملاقاة عير قريش في مطلع الرسالة.. فقد نسب إليه القول بأن البعثة حين أشرفت على ساحل البحر ، رأت شيئًا خالته كثيبًا ضخمًا من الرمال ، لكنها حين دنت منه وجدته دابة من دواب البحر تدعى العنبرة . وظلت البعثة ، وكان عددها ثلاثمائة ، تأكل منها شهرًا كاملاً . وكان أفراد البعثة يغترفون بالآنية

الكبيرة الدهن من موضع عينيها ويقطعون منه القطعة في حجم الثور . وأجلس أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً في أحد تجويفي عينيها .. كما حملوا من لحمها ودهنها إلى المدينة بعد ذلك كله ..

وقيل: يخرج من البحر سمكة عظيمة ، فتتبعها سمكة أخرى لتأكلها ، فتهرب منها إلى مجمع البحرين ، وعرضه مائة فرسخ، فيضيق عليها فترجع من حيث أتت ..

وقال الشيخ عبد الله صاحب تحفة الألباب : «رأيت يومًا على جانب البحر عنقود عنب أسود، كبير الحب أخضر العرجون كأنما قطف من كرمة .. فأخذته، وكان ذلك في أيام الشتاء وليس في 'لأرض التي كانت فيها عنب . فرمت أن أكل منه ، فقبضت على حبة منه وجذبتها فلم أقدر أن أقلعها من العنقود حتى كأنها من الحديد قوة وصلابة ، فجذبتها جذبة أقوى من الأولى .. فأنقشرت قشرة من تلك الحبة كقشر العنب . وفي داخلها عجم كعجم العنب .. فسألت عن ذلك ، فقيل لي : هذا من عنب البحر ، ورائحته كرائحة السمك » .

الإسرائيليات وعالم البحر

والمطالع لروايات البحر وأقاصيصه العربية ، يتبين أنه عالم متكامل به الصالح والطالح من الخلق ، وألوان النبات والحيوان المشاكلة لألوان النبات والحيوان في البر ، وأن لهذه الروايات أصولها وأن أضفى عليها الخيال الكثير من المبالغة والتضخيم . وإذا كانت الإسرائيليات قد دخلت كل شيء في المعارف العربية فلم يكن مناص من أن تدخل عالم البحر . ومن ذلت ما قيل من أن في البحر حيوانًا رأسه يشبه رأس العجل ، وله أنياب كأنياب السباع ، وجلده له شعر كشعر العجل . وله عنق وصدر وبطن وله رجلان كرجل الضفدع وليس له يدان ، ويعرف بالسمك اليهودي . وذلك أنه إذا غابت الشمس ليلة السبت يخرج من البحر ويلقى نفسه في البر ولا يتحرك ولا يأكل ولو قتل . ولا يدخل

البحر حتى تغيب الشمس ليلة الأحد ، فحينئذ يدخل البحر ولا تلحقه السفن لخفته وقوته . وجلده يتخذ منه نعل لصاحب النقرس ، فلا يجد له ألمًا ما دام ذلك الجلد عليه . وهو من العجائب [1] .

وهكذا خلق الخيال اليهودي سمكًا يهوديًا ، يجمع من الفضائل ما لم يتوفر في يهود البشر ، فهو مؤمن متمسك بإيمانه أشد التمسك . وهو ذو بأس وشجاعة خارقين ، فيه خير وشفاء للمرض العضال الذي يعجز الطب والدواء عن شفائه!

المجد البحري في الإسلام

وأقصد ذلك المجد الذي نشأ في شبه جزيرة العرب وخاصة المناطق الساحلية منها . أما المناطق العريقة في الحضارة التي شملها العالم العربي بعد الإسلام ، فلها أمجادها البحرية وفي مقدمتها مصر ببحريتها التاريخية منذ الفراعنة إلى العهد الإغريقي حتى عهد صلاح الدين ثم محمد علي .. وكذلك الأساطيل البحرية للبابليين والأشوريين .. والسفن التجارية للعربية السعيدة بمينائها التليد عدن . وقد كان لوحدة هذه المناطق في صدر الإسلام أكبر الأثر في التقدم البحري العربي العام .

وفي القرن الأول الميلادي ، أي قبل الإسلام بستة قرون ، كتب بليني Pliny المؤرخ الروماني الشهير يقول : «وتنتظم الرحلات في هذه الأيام بين مصر وشبه جزيرة العرب على مدار العام» .

وقد ارتبط ساحل عمان بالمجد العربي البحري بعد الإسلام . وكان منطلق الفتوح الإسلامية البحرية إلى الشرق الأقصى وأفريقية الشرقية ، والعلاقات العربية التجارية النامية مع مختلف بلاد العالم الأسيوي الأفريقي ، وما اتصل بهذه وتلك من حركة حضارية عربية شملت العالم لتلك الأيام.

(١) المستطرف من كل فن مستظرف ، للشيخ شهاب الدين أحمد الإبشيهي ، مطبعة بولاق ١٢٩٢هـ .

والمؤرخون الأوربيون ، فضلا عن العرب ، يطنبون في الحديث عن مهارة العرب واستعداداتهم البحرية في مختلف العصور حتى القرن التاسع عشر .. وابن خلدون يورد في نهاية القرن الثامن الهجري ، أو الرابع عشر الميلادي ، طرفًا من هذه الأحاديث .

ويقول ريتشارد سانجر المؤرخ الأمريكي Richard sanger المعاصر ، منوها بتقدم العرب البحري بعد الإسلام وحركته الحضارية العالمية : «ويمكن تقسيم سكان شبه الجزيرة العربية إلى أهل الصحراء ، وأهل الجبال ، وأهل البحر ... » ويطنب في الحديث عن مهارتهم البحرية في الصيد والتجارة مع مختلف البلاد .

وحين وصل الرحالة البندقي «ماركو بولو» إلى سواحل شبه جزيرة العرب ، بهره تقدمها البحري والعمران والاستقرار فيها . ووصفها في القرن الثالث عشر الميلادي وصفًا يدل على أن العرب قد خطوا حينذاك في سبيل التقدم والتنمية الاقتصادية والاجتماعية خطوات واسعة المدى.

ومن أقوال «ماركو بولو» الكثيرة في وصف ساحل عمان : «وعلى شاطئ الخليج تقوم مدينة اسمها هرمز ولهذه المدينة مرفأ ، وفي هذا المرفأ رأيت تجارًا من الهند مع مراكبهم المليئة بالتوابل ، والأحجار الكريمة ، والنسيج الثمين النادر من الصوف والحرير ، وأنياب العاج وغيرها من المواد التجارية .

«وفي هذا المرفأ تنتقل جميع هذه البضائع من سفينة إلى أخرى ، ويحملها التجار إلى سائر أنحاء العالم. فهو مرفأ تجاري هام ، وله مرافئ تابعة له في مدن كثيرة حيث تروج هذه البضائع » .

وبعد ذلك يتحدث في إسهاب عن معيشة أهلها ، ومهارتهم الفائقة في بناء السفن الوفير لديهم ، وتقدمهم الزراعي ، وطلائهم السفن بزيت السمك حتى تتغلب على حرارة الجو وتقلباته.

ويتحدث الكاتب الفرنسي المعاصر جان جاك بيربي Jean Jacque Berebie في كتابه عن الخليج، فيقول أن العرب قد اتخذوا الخليج مجالاً للرحلات البحرية مثلما اتخذوا منذ القدم الصحراء مجالاً للرحلات البرية ، وأن أهل الخليج العرب أصحاب ضمير تاريخي اجتماعي موحد، وأنه «من الخليج العربي إلى بحر الصين، كانت المراكب الصينية والعربية تتهادى بأمان دون انقطاع ، حاملة البضائع والمنتوجات المختلفة . وفي كل مرفأ ومدينة ساحلية ، كنت ترى البحارة الصفر الصينيين ، يختلطون بالبحارة السمر العرب ، ويتعاونون كما يتعاون الأخوة المتحابون .. وذلك لأنهم جميعًا كانت تربطهم رابطة الأخطار المشتركة ، من عواصف ورياح وقراصنة وغزاة ، كما كانت تجمعهم رابطة الأرباح المشتركة أيضًا» .

ثم يتحدث عن الشخصية العربية التي سادت المنطقة بأسرها ، منذ معركة السلاسل بالبصرة في عام ٦٣٤ ميلادية ، حيث انتصر المسلمون على الفرس ، وانتهى سلطان الأكاسرة ، وبدأت الحقبة الذهبية من تاريخ العرب، ولعبت فيها منذئذ مصر دورًا بارزًا ، ولا تزال رياح القومية العربية تهب من القاهرة على أرجاء الوطن العربي .

وعلوم البحار التي نبغ فيها العرب ، وألفوا فيها الموسوعات ، كانت مرجعًا هامًا من مراجع النهضة البحرية العالمية الحديثة .

والبحار العربي ابن ماجد من عمان الذي قاد «فاسكو دي جاما» الرحالة البرتغالي في اكتشافاته البحرية التاريخية ، وفي مغامراته التي كانت ذات أثر بالغ في تاريخ السياسة والاستعمار.

وأدب الرحلات البحرية السائر في العصور العربية الإسلامية ، وسيروته في العالم أجمع، كل ذلك برهان على أن العرب الذين خافوا البحر ورهبوه في الجاهلية ، قد أصبحوا سادته ومالكي ناصيته من بعد الإسلام ، وأن مجدهم

البحري كان أحد ألوان المجد التي لبسوها بالإيمان والعمل والوحدة ، فبدلوا حياتهم تبديلاً ، وقدموا للبشرية أيادي خالدة على مر الزمان ، وأظلوا العالم قرونًا طوالاً بألوية العدل والحرية والمساواة والسلام.

البحر في الشعر العربي

لقد كانت الفتنة في البحر والتفنن في أوصافه من التحولات الكبرى للعرب التي أحدثها الإسلام فيهم . فقد كان العرب ، بطبعهم وبطبيعتهم ، ينفرون من البحر ، ويخشون ركوبه، ويتفادونه في غزواتهم ، ويرون اعتراضه لطريقهم حائلاً دون التقدم أي حائل . لكنهم لم يلبثوا أن تحرروا من هذه الأفكار .. وكانت تعاليم الإسلام خير عون على هذا التحرر . وكان أساسها قول الله تعالى الجامع : «الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره . ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا منه . إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

فالإسلام بهذا قد دفع الإنسان إلى اقتحام البحار والفضاء وكل ما في الأرض والسماء ، غير هياب ولا وجل ، بل مطمئنًا بإيمانه وسعيه إلى رعاية الله وفضله . وكانت فتوحات الشام ومصر وفارس والأندلس ، وانضمامها جميعًا إلى دار الإسلام ، من عوامل هذا التحرر ، ومن أهم مظاهره في الوقت ذاته .

ولهذا رأينا الشعراء يتجهون إلى البحر ، ويصفون الأساطيل الغازية المنتصرة، والسفن الجارية من فوقه .

وقد أبدع مسلم بن الوليد في وصف البحر والسفينة . ومنه قوله :

وملتطم الأمواج يرمي عبابه   بجرجرة الآذى للعبر فالعبر [1]

---

(١) الجرجرة : الصوت . الآذى : الموج ، العبر بكسر العين : الشاطئ ، موقفة على وزن معظمة : الدأبة في قوائمها خطوط سود . الدأيات ج دأية بفتحتين . موضع الرحل من البعير .

مطعمـــة حيتانـــه مـــا يغبهـــا ... مآكـل زاد مـن غريـق ومـن كـسر
إذا أعنقـت فيـه الجنـوب تكفـأت ... جواريه أو قامت من الريح لا تجرى
كـأن مـدب المـوج في جنباتهـا ... مدب الصبابين والوعاث من العفر
كشفت أهاويل الدجي عن مهوله ... بجاريـــة محمولـــة حامـــل بكـــر
لطمت بخديها الحباب فأصبحت ... موقفـة الـدأيات مرقومـة النحـر

فهو في هذه القصيدة يمثل مرحلة الانتقال والمزاوجة بين البأدية والبحر ، ويشبه السفينة بالبعير ، وتتجلى فتنته بها حين يصفها بأنها محمولة على الماء .. وحاملة للناس ولمتاعهم ، ولكنها لا تزال بكرًا .

وظهر التفنن في أوصاف البحر والسفن على أتمه عند الأندلسيين وخاصة أبو عمرو القسطلي، وابن خفاجة ، وابن يزيد ، وابن الأبار ، وابن وهيون .

لكنهم في هذه الأوصاف ، وكثير غيرها ، لم يجاوزوا الشكل والصورة ، ولم ينفذوا إلى أسرار الطبيعة في البحر ، ولم يتعمقوا فلسفتها . بل أن بعض الشعراء ، ظلوا يركبون البحر على خوف، ويتصورونه سبيل المضطر ، ويصفون الأهوال في مركبه .. وذلك أمر طبيعي .. فالشاعر يصدر عن منهاجه وعن تجاربه ومعاناته ..

شعراء الجاهلية .. والبحر !

هناك انطباع سائد عند كثير من نقاد الأدب وقراء الشعر الجاهلي أن الشعر الجاهلي عبر أكثر ما عبر عن بيئة الصحراء وعوالمها من إبل وخيام وسماء صافية ونجوم وجبال ولم يعكسوا في شعرهم كثيرًا عن تأثرهم بعالم البحر ، ولكن بعض الدارسين يخالفون هذه المقولة ، حيث يرى البعض أن الشعر الجاهلي رسم الملامح الأولى لأدب البحر ، وقدم الصور والتشبيهات الواقعية المستمدة من عالم البحر ، والدالة على ركوب العرب للبحر ، ومعرفتهم بعالمه الجميل المتقلب، انطلاقًا من أن الشعر هو وثيقة دقيقة للشاعر الجاهلي وبيئته ، كما يقول الدكتور شوقى ضيف في كتابه «العصر الجاهلي» ، خاصة وأن الشاعر الجاهلي ، لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء بل كان يحاول نقلها إلى لوحاته نقلاً أمينًا ، يبقى فيه على صورها الحقيقية بدون أن يدخل عليها تعديلاً من شأنه أن يمس جوهرها . ومن أجل ذلك كان شعره وثيقة دقيقة لمن يريد أن يعرف حياته وبيئته برملها وأوديتها ومنعرجاتها ومراعيها وسباعها وحيوانها وزواحفها وطيرها . وعرف القدماء ذلك كلما تحدثوا عن عادات الجاهليين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم ، وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفد في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات »[١] .

ومن هنا تأتى أهمية الصور الشعرية الواقعية ، التي تضمنها الشعر الجاهلي ، في تصويرها الصادق لحياة عرب الجاهلية . وأصبح الشعر الجاهلي ، هو المصدر الرئيسي لمعرفة العرب القدماء، نظرًا لافتقار تاريخ العرب القديم إلى معلومات

(١) الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ٢١٩ .

مؤكدة عن حياتهم ومعارفهم وتطورهم، إلا من بعض المعلومات المستقاة مؤخرًا من الآثار القديمة بالجنوب . بعد أن طمست الحروب الخارجية والداخلية ومعارك الأخذ بالثأر ، الكثير من وقائع ووثائق تاريخ العرب الجاهلي، تلك الحروب التي استغرقت عشرات السنين لذا سميت بأيام العرب وأشهرها حرب البسوس وحرب داحس الغبراء وحروب اليمن مع الرومان والفرس والأحباش . وذلك بالإضافة إلى طبيعة الحياة البدوية في الصحراء وما تقتضيه من تنقل بحثًا عن الكلأ والماء والحياة الصحراوية القاسية من عواصف رملية وسيول تجتاح في طريقها كل شيء .

لقد خرج العرب إلى البحر في الجاهلية ، وصنعوا السفن ونقلوا عليها تجارتهم وتجارة العالم، واكتسبوا الخبرات الملاحية ، وأقاموا الموانئ والمراسي وقدموا للإنسانية إنجازاتهم ومعارفهم البحرية ، كمعرفتهم للرياح الموسمية وصناعتهم للسفن بربط الحبال وبدون استخدام مسامير، واختراعهم للشراع المثلث الذي مكن السفن من الإقلاع في مواجهة الرياح ، غير أن الوثائق والمصادر العربية الدالة على هذا كله لم تصلنا من تراث العصر الجاهلي ، ولم يصلنا منها سوى قصائد الشعر الجاهلي أهم المصادر الأدبية والجغرافية في عالم البحر وأدب البحر.

ويصف كراتشكو فسكي الشعر الجاهلي بأنه «المجال الوحيد الذي خلف فيه العرب مادة جغرافية وافرة » .. وقال إن القسم الأول من القصيدة الجاهلية المعروف بالنسيب كثيرًا ما ورد فيه ذكر لأكثر من موضع أو موضعين جغرافيين.. » وإن الشعر الجاهلي ، حفظ لنا مادة لا تنضب من هذا القبيل ، وإن هذه المادة كانت «القاعدة المتينة» التي قامت عليها كتب الجغرافيين العرب في القرن التاسع، والتي مهدت بدورها لظهور الأدب الجغرافي العربي . غير أن كراتشكو فسكي يستدرك قائلاً بأن المدارك الجغرافية عند عرب الجاهلية «لم تتجاوز جزيرتهم إلا نادرًا ، وقلما وجدت لديهم أفكارًا عامة في الجغرافيا ، ويرد

بالطبع في شعرهم ذكر الأنهار مثل دجلة والفرات والأقطار مثل العراق والشام، والمدن مثل بعلبك ، ولكن نادرًا ما ارتبطت بهذه الأسماء أية تجارب واقعية » ، وهنا نختلف مع هذه الآراء الأخيرة لكراتشكوفسكي ، التي تتردد كثيرًا عند غيره من العلماء الأجانب ، كأخطاء شائعة عن انزواء العرب داخل جزيرتهم واقتصارهم على عالمهم الصحراوي ، وهي آراء غير صحيحة . لأن أدب البحر في الشعر الجاهلي يؤكد تجاوز العرب لجزيرتهم إلى عالم البحر ، كما أن الصور الشعرية الدقيقة والتشبيهات والاستعارات ، المستمدة من عالم البحر ، تدل على معرفة العرب القدماء الواقعية بالبحر والظواهر البحرية والسفن[١] .

حدد الجاحظ ، في كتابه «الحيوان» ، تاريخًا تقريبيًا لبداية الشعر الجاهلي بأنه يتراوح بين مائة وخمسين ومائتي عام قبل ظهور الإسلام . وهذا هو التاريخ الثابت في الشعر الجاهلي للعرب والحياة العربية في الجاهلية ، وهو البداية المتفق عليها تقريبًا بين العلماء والباحثين لاكتمال القصيدة الجاهلية وسيادة اللغة العربية الواحدة ، لغة قريش . في حين يرجع بروكلمان [٢] بتاريخ بداية الشعر الجاهلي إلى مائة عام فحسب قبل ميلاد النبي محمد عليه الصلاة والسلام . أمام قبل ذلك فقد طوته رمال الصحراء مع تقلبات الحياة البدوية ومعاركها . ومن هنا فإن المائة والخمسين سنة السابقة على ظهور الإسلام هي الحقبة المؤكدة والصالحة للبحث في الحياة العربية والشعر العربي. ونحن لا نؤرخ هنا للشعر الجاهلي ، ولكننا بصدد تحديد الحقبة الزمنية والتاريخية المعاصرة للشعر الجاهلي في أدب البحر .

وقد شاب تاريخ تدوين الشعر الجاهلي الكثير من الشكوك حول انتحال الرواة له بسبب تدوينه بعد الإسلام : في العصرين الأموي والعباسي ، وانتقاله مع الرواة بالرواية الشفاهية وتداوله بين القبائل وعبر الأجيال . وهو تشكك صحيح في معظمه بسبب طول الحقبة الزمنية الفاصلة بين قول الشعر الجاهلي

(١) أحمد محمد عطية: أدب البحر ، دار المعرف بمصر.

(٢) الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص١٤٤ و ١٤٥ .

وتدوينه . غير أن الدقة الشديدة التي اتبعها مدونو الشعر الجاهلي ورجوعهم إلى البادية وإلى قبائل الجزيرة العربية ، للتأكد من صحة الأعمال الرئيسية المحققة في الشعر الجاهلي ، واهتمام أبو بكر وعمر بن الخطاب ،ﷺ ، بالروايات المؤكدة للشعر الجاهلي كمصدر رئيسي موثوق به «لمعرفة الأنساب . إذ كانت تلعب دورًا مهمًا في رواتب الجند الفاتحين وفي مراكز القبائل بالمدن الجديدة التي خططوها مثل البصرة والكوفة » هذا كله لا يجعلنا نذهب مع مفكرنا العظيم الراحل الدكتور طه حسين ، إلى المدى الذي وصل إليه في كتابه «في الأدب الجاهلي» [(١)] ، من رفضه المطلق لصلاحية الشعر الجاهلي لتمثيل الحياة الجاهلية. فإن الإضافة والحذف ونسبة بعض قصائد شاعر جاهلي لشاعر آخر ، كل هذه مسائل جزئية واردة، ولكنها لا تمس الشعر الجاهلي ككل ولا تنفى صلاحيته كمصدر أساسي لمعرفة الحياة العربية في الجاهلية . كما أن كتاب الشعر الجاهلي ومؤرخيه ونقاده ، من العرب والأجانب ، اتفقوا على مصادر مؤكدة للشعر الجاهلي ، واستبعدوا الكثير من الشعر الجاهلي المشكوك في صحته. ومن أهم هذه المصادر المعلقات والمفضليات والأصمعيات ، وهي التي اعتمدنا عليها ، مع بعض الدواوين الجاهلية ، كمصادر لبحثنا عن أدب البحر في الشعر الجاهلي .

تبدأ القصيدة الجاهلية بالوقوف على الأطلال والحديث عن الحبيبة الراحلة، وهو القسم المعروف بالنسيب أجمل أقسام القصيدة الجاهلية وأثراها بالصور والتشبيهات ، ثم يتحرك الشاعر بناقته وينطلق إلى الصحراء ليصف معالم رحلته وينتقل منها إلى وصف ناقته أو فرسه ويشبهها بالحيوان الوحشى وبالسفينة أيضًا . وفي هذين القسمين ترد صور عالم البحر . ثم يخلص الشاعر إلى موضوع القصيدة الذي يأتى غالبًا في الأبيات الأخيرة منها ، ويدور حول المدح أو الرثاء أو الهجاء أو الفخر أو الاعتذار أو العتاب ..

(١) الدكتور طه حسين ، في الأدب الجاهلي ، ص ٦٥ و ٧٠ و٧١ .

هكذا تصور القصيدة الجاهلية رحلة الشاعر الجاهلي وحركته الدائمة النابعة من طبيعة الحياة العربية المتحركة والمتنقلة في الصحراء أو خارجها طلبًا للرزق والماء والكلأ ، أو مشاركة في الحروب والمعارك الثأرية . ويجمع النقاد على أن القسم الأول من القصيدة الجاهلية ، الخاص بالأطلال والنسيب والحبيبة . هو أهم أقسام القصيدة الجاهلية وأكثرها ثراءً وتعبيرًا وثباتًا ، يليه القسم الخاص براحلة الشاعر الجاهلي ، سواء أكانت ناقة أم جملا أم فرسًا وتظهر صور أدب البحر ، في متابعة الشاعر رحلة حبيبته مع الظعائن ، أو النساء المسافرات على الهوادج ، نجدها أيضًا في وصف الشاعر الجاهلي لناقته وتشبيهه لها بالحيوان الوحشي وبالسفينة وأمواج البحر أيضًا . وقد لاحظ الباحث وهب رومية ، في كتابه «الرحلة في القصيدة الجاهلية» ، أنه «تظهر صورة النخيل بامتداد قامته وتعدد ألوانه ، وصورة السفن باضطرابها وهي تغالب الموج والريح بحظ عظيم من فن الشعراء ، فلا نكاد نقرأ قصيدة في الظعن - إلا في النادر القليل - بدون أن نلتقي بصورة منهما أو بكلتيهما معًا . وعلة ذلك صلتهما بحياة أولئك القوم ، وكونهما جزءًا أصيلاً من التراث الشعرى ورثه المتأخرون من شعراء العصر حين ورثوا هذا التراث» [1] أي أن ظهور النخيل والسفن وأمواج البحر ورياحه ، وما يتصف به هذا الظهور من دوام وثبات ، في القصيدة الجاهلية ، يدل على أنها مكونات أساسية في حياة عرب الجاهلية عرفوها وتمرسوا بها . وذلك نظرًا لما تتصف به الصور والتشبيهات في القصيدة الجاهلية من واقعية وصدق وأمانة في النقل من الواقع . فالحياة الواقعية ومظاهرها الطبيعية كانت تفرض صورها بقوة على الشاعر الجاهلي وتتجلي في قصائده .

المعلقات هي أهم قصائد الشعر 'الجاهلي وأطولها ، وقد سميت بالمعلقات لأنها نفيسة عظيمة القيمة، وليس بسبب تعليقها على الكعبة ، كما شاع خطأ . وقد اختلفت الآراء حول عددها وحول شعرائها أيضًا ، بسبب من اختلاف

(١) وهب رومية ، الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص٣٣ .

الرواة وتغليب مشاعرهم وانتماءاتهم القبلية ، فعددها عندهم يتراوح بين خمس قصائد وعشر . يقول بروكلمان [1] ، إن خمسًا منها محل اتفاق الجميع ، وهي معلقات : امرئ القيس ، وطرفة ، وزهير ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم . وأنه يمكن إدراج المعلقتين السادسة والسابعة لعنترة والحارث بن حلزة لموافقة أكثر الرواة عليهما ، في حين وضع المفضل مكانهما قصيدتي النابغة والأعشى . ويروى الدكتور شوقي ضيف [2] ، أن التبريزي جمع في شرحه للمعلقات بين الروايتين . أما النحاس أحد شراح المعلقات ، فيتفق مع القائلين بأن عددها سبع معلقات وأضاف إليها قصيدتي الأعشى والنابغة ، وعنونها بالقصائد التسع المشهورات . ولا خلاف على صحة هذه القصائد الطويلة أو على أهميتها ، ولكن الخلاف بين الرواة والشراح يدور حول ترتيب أهميتها .

ونبدأ بمعلقة طرفة بن العبد وديوانه ، الذي يعد شاعر البحر في العصر الجاهلي، وكذلك عده العرب القدماء أشعر شعراء الجاهلية ، وأجمع ابن سلام وابن قتيبة وابن رشيق على الإشادة بمعلقته .

أما لماذا نصف طرفة بن العبد بأنه شاعر البحر في العصر الجاهلي، فلأن شعره غني بلوحات البحر وصوره أكثر من شعر سواه ، كما أنه ولد بالبحرين (سنة ٥٦٤م تقريبًا) فتفتحت عيناه على عالم البحر والسفن ، وكان مسكنه ومساكن قومه تطل على مياه الخليج . وهو شاعر شاب مات قتيلاً في ريعان الشباب ، في سن السادسة والعشرين [3] . وتقع معلقة طرفة بن العبد في مائة

---

(١) بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي ، جـ١ ، ص٦٧ .

(٢) الدكتور شوقي ضيف ، العصر الجاهلي ، ص ١٧٦ .

(٣) هناك روايات متعددة عن مصرع طرفة بن العبد . فيقول كرم البستاني ، في مقدمة ديوان طرفة ، إنه كان يتيمًا مسرفًا ماجنًا ، وكان ، أيضًا ، شاعرًا مبدعًا جميل العبارة والصورة . وأنه لما أنفق كل ما يملكه من إبل، اتجه ، هو وخاله الشاعر المتلمس ، إلى عمرو بن هند، ملك الحيرة، الذي كان يقصده الشعراء وينشدونه الشعر، فأعجب ملك الحيرة بشعر=

وأربعة أبيات . أما ظروف قولها ، فهي ظروف إفلاس طرفة ، بعد أن أنفق كل ماله في اللهو والخمر وأضاع إبل أخيه ، حتى أنكرته عشيرته ففارقها ولجأ ، مع خاله الشاعر المتلمس إلى ملك الحيرة.

يستهل طرفة بن العبد معلقته بالوقوف على الأطلال ، كما يحدث في القصيدة الجاهلية ، ويكتفي ببيتين ، الأول لتصوير أطلال الحبيبة (خولة) وآثارها الخربة بعد رحيلها وتشبيه لمعان الأطلال ، في اختلاطها بأرض الموقع المليء بالأحجار ، بلمعان الوشم في ظاهر اليد . وفي البيت الثاني يذكر وقوفه حزينًا مع أصحابه وهم يركبون مطاياهم ، ويواسونه في محنته ويشدون من أزره، وننقل هنا هذين البيتين لأنهما يأتيان في مطلع القصيدة ، وتليهما مباشرة الأبيات الغنية بصور البحر :

لِخَولةَ أطلالٌ بِبُرْقَةِ ثَهمَدِ ... تلوح كباقي الوَشْمِ في ظاهر اليد

وقوفًا بها صحبي على مطيهم ... يقولون : لا تهلك أسىً وتجلد

ثم تتدفق صور البحر والسفن في أبيات الحب ، وفي تصوير موكب رحيل

=طرفة وضمه مع خاله إلى مجلسه . غير أن طرفة لم يلبث أن استخدم شعره في التشبيب بأخت الملك وفي السخرية منه ومن زوجها . فدبر الملك لمقتله هو وخاله المتلمس ، وبعث مع كل منهما برسالة إلى أبو كرب بن الحرث والي البحرين وطلب منه قتلهما . ويقال إن المتلمس قرأ رسالته بالطريق وطوح بها في النهر وغير طريقه إلى الشام . أما طرفة فإنه أصر على توصيل رسالته إلى والى البحرين ، ورفض أيضًا عرض والي البحرين بالهرب وصمم على البقاء بالسجن لأنه برئ . فرفض والي البحرين بدوره أن ينفذ أمر الملك بقتله وطلب من الملك إيفاد رجل آخر ينفذه . فعين ملك الحيرة واليًا آخر على البحرين يدعى عبد هند ، نفذ أمر القتل في طرفة وفي الوالي السابق أيضًا . وثمة روايات أخرى ، عن مقتل طرفة ، تختلف في التفصيل وتتفق في مصرع طرفة بن العبد . ويرى د . طه حسين ، في كتابه «في الأدب الجاهلي» أن قصة مصرع طرفة أسطورة ترددت في «طبقات ابن سلام» و «أغاني الجاحظ» .

الحبيبة وتشبيهه بصور واقعية منقولة من عالم البحر ، في الأبيات التالية :

كأن حُدُوجَ المالِكيَّةِ غُدوةً ... خلايا سَفينٍ بالنَّواصفِ من دَدِ

عَدَوْلِيَّةٌ أو من سفين ابن يامِنٍ ... يجور بها الملاح طورًا ويهتدي

يَشُق حبَابَ الماء حَيزومُها بها ... كما قَسَمَ التُّربَ المُفايِلُ باليَدِ

إن الصور هنا مركبة تجمع بين التصوير والتصور ، بين الواقعي والمتخيل ، وتمزج بين الواقع والخيال ، وتأتي في ألفاظ يصعب اليوم على القارئ العربي العام استساغتها . ولكن إذا حللناها وبسطناها بدت صور القصيدة جميلة وثرية . وأفصحت عن خبرة الشاعر الواقعية بعالم البحر ومياهه وسفنه ، ولرأينا كيف يوظّفها في تصوير موكب الحبيبة وهوادجه النسائية المحمولة على الإبل. أما الحبيبة فهي خولة من بني مالك بن سعد بن قيس إحدى قبائل كلب ، لذا قيل: إنها خولة الكلبية ، كما روى النحاس نقلاً عن ابن الأنباري ، وسميت في هذه الأبيات بالمالكية نسبة إلى قومها بني مالك ، فالمالكية تنصرف إلى الحبيبة وإلى القبيلة معًا في هذه الأبيات . أما الحدوج فهي جمع حدج ، والحدج مركب من مراكب النساء . وتعني الخلايا السفن الكبيرة ، جمع خلية ، أي سفينة كبيرة أو عظيمة . والسفين جمع سفينة أيضًا . هذه كلها أنواع مختلفة من السفن عرفها الشاعر العربي طرفة بن العبد وجمعها في بيت واحد من أبيات معلقته ، هو البيت الثالث . ثم مزج بينها وبين صور الصحراء البرية . فالنواصف ـ «جمع ناصفة» ، أماكن فسيحة في الأودية تستعمل كطرق صحراوية . أما «دد» فيقول النحاس إنها تعني «مكان ترسو فيه السفن» ، في حين يذكر «الزوزني» في شرحه للمعلقة بالديوان أنه يعني واد بالنواصف [1] .

هكذا تتركب صور البيت الثالث وتتصل بالبيتين السابقين من المعلقة . فبعد أن وقف الشاعر مع أصحابه بأطلال الحبيبة ركوبا على إبلهم ، تحرك ليتابع

(١) ديوان طرفة بن العبد ، ص ٢٠ .

موكب الحبيبة، على الهوادج المحملة بنساء قبيلة المالكية، المنطلق في أودية الصحراء قاصدًا مرساه أو واديه ومستقره الجديد. هذه الهوادج النسائية صوَّر الشاعر رحيلها في صورة بحرية بديعة، فشبهها بالحدوج أو المراكب النسائية، وتخيلها في انطلاقها كالسفن العظيمة قاصدة مرساها. وكأن مسيرة الهوادج في موكب الحبيبة الراحل قاصدًا واديًا جديدًا، كمسيرة السفن النسائية الكبيرة عندما تتجه إلى مرساها. فالصور كلها بصرية وواقعية منقولة نقلاً أمينًا من الواقع. ويأتي فن الشاعر ويركّب الصور في لوحة شعرية جميلة، تجمع بين صور البحر وصور الصحراء وتمزج بينها في مركب شعرى جديد.

في البيت الرابع يصف الشاعر رحلة الحبيبة وموكبها عبر الطريق الصحراوي غير المستوى ويشبهه بقيادة الملاح للسفن فوق الطرق البحرية، فكلاهما يعلو ويهبط ويمضي في طريقه إلى الأمام وينحرف يمنة ويسرة. وهكذا تمضي الطرق البحرية في غير استقامة واستواء بل تتلوى في مواجهة الرياح والأمواج والمعوقات الملاحية. وتوجد عدة شروح لهذا البيت. فمنها من يقول بأن «ابن يامن» المذكور في البيت هو أحد أبناء قبيلة «عدول» إحدى قبائل البحرين، وبذلك يقود «ابن يامن» الإبل من هذه القبيلة كما يقود الملاح سفنه فيمضي بها بين الاستواء وبين العدول والميل عن الطريق المستقيم. هذا تفسير الزوزني الملحق بالمعلقة في الديوان. أما النحاس فيشرح البيت على نحو يقربه أكثر من أدب البحر، فينقل النحاس عن الأصمعي قوله بأن «عدولية من نعت السفن وهي منسوبة إلى قوم كانوا ينزلون هجر»، وأن «ابن يا من من أهل هجر أيضًا»، وأنه «رجل ملاح» تارة، و «رجل تاجر من أهل البحرين» تارة أخرى. وتدلنا هذه الشروح كلها على خبرة عرب الجاهلية بالبحر والسفن والطرق الملاحية كما صورها الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد.

ويمضي الشاعر ، في البيت الخامس من معلقته ، ليصور حركة السفينة في الماء عندما تشق بصدرها (حيزومها) أمواج البحر وزبده (حباب الماء) ، ويشبهها بشق التراب باليد في «المقابل». وهي لعبة عربية قديمة للمراهنة يخبئ فيها اللاعب خبيئًا في التراب أو الرمل ، ثم يقسمه إلى قسمين، ومن يعثر على الخبئ يكون هو الفائز الرابح .

هكذا تجمع هذا الأبيات ، من معلقة طرفة بن العبد ، بين الصور الواقعية المنقولة من عالم البحر ومثيلاتها المأخوذة من دنيا الصحراء . فتؤكد بجلاء تمرس عرب الجاهلية بالبحر وأمواجه وسفنه ، وإبداعهم لأدب البحر في الشعر الجاهلي .

وإذا كان الشاعر الجاهلي طرفة بن العبد قد صوّر البحر في أبيات النسيب أو الحب في معلقته ، أهم أقسام قصيدته ، فإنه يذكر البحر أيضًا في القسم الخاص بالناقة ، وهذان القسمان من المكونات الأساسية للقصيدة الجاهلية . فينشد قائلاً في البيت الثامن والعشرين من معلقته :

وأتْلَعُ نَهّاضٌ إذا صَعّدَتْ به كسُكّانِ بُوصيٍّ بدجْلَةَ مُصْعد

فهو يشبه عنق الناقة الطويل (أتلع) الصاعد سريع الحركة (النهاض) بدفة (السكان) السفينة (بوصي) وهي ترتفع وتنخفض في جريها بالماء . ويقول النحاس إن السكان في هذا البيت يعني النوتي أو الملاح ، وإن دجلة هنا لا يقصد بها نهر دجلة بل يقصد «معرفة» وإن الملاح «مصعد لأنه يعالج الموج» .

في هذا البيت ، يزداد الشاعر الجاهلي اقترابًا من التصوير الداخلي للسفينة والملاحة البحرية ورجال البحر . بعد أن صورها في انطلاقها البعيد متجهة إلى مرساها في الأبيات السابقة. ويقدم إضافة جديدة لأدب البحر ودلالة جديدة على خبرة العرب الواقعية بالبحر وأمواجه وطرقه الملاحية ، وبالسفن وأنواعها وأهلها وأجزائها وتحركاتها عبر الطرق الملاحية . فلو لم تكن صور البحر

الواقعية تملأ حياة العرب في العصر الجاهلي لما وجد فيها الشاعر الجاهلي نبعًا دائمًا يستمد منه صوره وتشبيهاته ، ولاكتفى بعالمه الصحراوي وصوره البرية . ولعل هذا يؤكد خبرة طرفة بن العبد بعالم البحر وأنه يعد بحق أديب البحر في الشعر الجاهلي .

وتتناثر صور البحر ، والأمواج والزبد والأنهار والسفن ، في بعض أبيات المعلقات الأخرى، كهذه الأبيات من معلقة امرئ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سُدوله ... علـيَّ بأنواع الهموم ليبتلي
فقلت لـه لمـا تمطـى بصلبه ... وأردف أعجـازًا ونـاء بكلكل
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلي ... بصُبْح وما الإصباحُ مِنك بأمثلِ

ومع أن الصور والتشبيهات في هذه الأبيات تستهدف التعبير عن نفسية الشاعر وتصور ثقل وطأة الهموم على صدره وقلبه ، إلا أنها صور واقعية في جانبها الخاص بالبحر ، لأنها تشبه ظلام الليل بظلام موج البحر الكثيف في الليل ، فإذا أضفنا إلى هذه الصورة لمرج البحر في الظلام، صوت الموج العنيف وسيطرة الظلام والسواد على البحر على امتداد البصر، لتبين لنا ثراء هذه الصورة الواقعية في التعبير عن تنوع هموم الشاعر وقسوتها وكثافتها وشموليتها .

وتحتوي معلقة النابغة الذبياني على أبيات يمدح بها النعمان ويشبه فيها كرمه بنهر الفرات، وقد حظيت هذه الأبيات باهتمام كبار نقادنا المحدثين ورأوا صورها أقرب إلى اللوحة التشكيلية أو اللوحة الفنية عن الأمواج والسفينة والملاح .

وهذه هي الأبيات الواردة ضمن معلقة النابغة الذبياني :

فـما الفـراتُ إذا جاشَـتْ غَوارِبُـه ... تَرمـي أواذِيُّـه العِـبْرين بالزبَـد
يمـدُّه كُـلّ وادٍ مُـتْرَعٍ لَجِـبِ ... فيـه حُطام مـن اليَنبـوتِ والخَضَدِ
يَظَـلّ مـن خَوفِـه المَـلاَّحُ مُعْتَـصِمًا ... بالخيزرَانـة بعـد الأيـن والنَّجَـدِ

يومــا بأطيَــبَ منـــه سَــيْبَ نافِلَــةٍ   ولا يحُــولُ عَطــاءُ اليــوم دُونَ غَــدِ

ومع أن الصور مأخوذة من صور الملاحة النهرية في نهر الفرات ، إلا أنها في رأيي أقرب إلى الصور البحرية ، ويبدو لي أنها مركبة قصد بها النابغة الجمع بين النعمان والفرات بمائه العذب ونقل إليه الصور من البحر . فمياه البحر هي التي تعلو مع أمواجه حتى تغمر الشاطئ بالزبد ، أما مياه النهر فلا تعرف الأمواج العالية ولا الزبد كما يقول النابغة في البيت الأول . أما الصور في البيت الثاني فتصور روافد النهر تحمل إليه من كل واد حطام النباتات وركام الأشياء وتزيد من صخبه . وفي البيت الثالث يصور الشاعر رعب الملاح وتشبثه بمقود شراعه بعد أن غيره العرق طوال فترة عصيبة من الكرب . وفي البيت الأخير يجيء تشبيه النعمان بفيضان الفرات ، فعطاء اليوم الزائد (السيب : العطاء والنافلة : الزيادة) لا يحول دون عطاء الغد .

هذه هي بعض النماذج لأدب البحر في المعلقات ، فلنر ماذا تضمنته المفضليات من أدب البحر أيضًا[1] .

المفضليات هي مجموعة شعرية مختارة من عيون الشعر الجاهلي ، نسب اسمها إلى المفضل بن محمد الضبي الكوفي ، أحد علماء الأدب وأوثق الرواة للأخبار والأشعار العربية في عهد الخليفة هارون الرشيد . وتضم هذه المجموعة مائة وثلاثين قصيدة منتقاة من أفضل قصائد الشعر الجاهلي «من كل شاعر خيار شعره» . ومع أنها منسوبة إلى المفضل ، إلا أن الروايات الواردة في المصادر العربية تذكر أنه اختار نحو سبعين أو ثمانين من هذه القصائد فحسب ، وأن الأصمعي زاد عليها كما أضاف آخرون إليها بعض القصائد حتى وصلت إلى مائة وثلاثين قصيدة ، كما يؤكد ذلك محققا المفضليات في طبعتها الحديثة أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ، بقولهما «إن هذه الثمانين هي أصل الكتاب عن

(١) المرجع السابق.

المفضل ، لم يتجاوزها ، ثم قرئت على الأصمعي ، فأقرها وزادها قصائد، وزاد في بعض قصائدها أبياتًا ، واختار قصائد أُخَرَ . ثم جاء مَنْ بعد الأصمعي ، وزادوا في القصائد - أصلها ومزيدها - أبياتًا دخلت في روايتي المفضل والأصمعي ، حتى اختلطت كلها.. وقد توافر للمفضليات عدة شراح ، أهمهم ابن الأنباري ، أبو بكر محمد أبو القاسم ، «الذي روي المفضليات وشرحها عن أبيه ، أبي محمد القاسم بن محمد بن بشار الأنباري » .

تتيح المفضليات مدى أوسع لظهور أدب البحر بسبب كثرة قصائدها وتعدد شعرائها . فهذا بشامة بن عمرو . المعروف ببشامة بن الغدير ، خال الشاعر زهير بن أبي سلمى ، يشبه ناقته بالسفينة المملوءة (المشحونة) التي أطاع الريح شراعها السريع ، فهو يقول بأن امتلاء السفينة أقوم لسيرها ، وأن ناقته إذا ولت مسرعة فإنها أشبه بالسفينة الممتلئة السريعة .

وإن أدبرتْ قلتَ مَشْحُونةٌ أطاعَ لها الرّيحُ قِلْعًا جَفُولاَ

والشاعر «المسيبُ بنُ عَلَس» ، واسمه زهير بن علس ، وهو من الشعراء المقلين في الجاهلية. وله قصيدة يمدح بها «القعقاع بن معبد بن زرارة » أحد كبار بني تميم الأثرياء الكرماء . ويصفه المسيب بأنه أكرم من خليج ممتلئ تتوالى فيه الأمواج وتتدافع . «وشبه أمواج الخليج بخيلٍ بلق، لأن الموجة إذا ارتفعت كان ظهرها أبيض ، فإذا انقلبت اسود بطنها أي يرمي الخليج بالموج دوالي الزراع » (السواقي) . هذه صور بحرية يقدمها الشاعر سريعة متدفقة كما يفعل الخليج بأمواجه الفياضة المتدفقة وحركتها السريعة حتى لتغمر الشواطئ والسواقي ، في هذين البيتين:

ولأنتَ أجْوَدْ من خَلِيجٍ مُفْعَمٍ مُتَرَاكِمِ الآذِيِّ ذي دُفَّاعِ
وكأنَّ بُلْقَ الخَيْلِ في حافاتِه يَرْمِي بِهِنّ دَوَالِيَ الزُّرَّاعِ

ويذكر الشاعر المَخَبَّلُ السَّعْدِيُّ ، سمك القرش (اللخم) ، في قصيدته التي

تصور رحيل المحبوبة السريع وجمالها ، وخفتها في قلة عظامها كأنها سهم دهن صدره بالزيت ليعزله عن موج البحر وينطلق من البحر ذي الأمواج العالية (ذي غوارب) المملوء بسمك القرش[1] .

أَغْلَى بها ثَمنًا ، وجاء بها شَخْتُ العِظَامِ كأنّهُ سهم
بَلبَانِه زَيْتٌ ، وأخْرَجَها من ذي غَوارِبَ وَسْطَهُ اللّخْمُ

أما المرقش الأكبر ، وهذا لقبه ، واسمه عمرو بن سعد بن مالك ، فإنه يقترب من تصوير طرفة بن العبد لرحيل الظعن أو الهوادج النسائية المحمولة على الإبل وتشبيهها بالسفن العظيمة الطافية وبأشجار الدوم أيضًا . فيقول في مطلع قصيدة له :

لِمَنِ الظّعْنُ بالضّحَى طَافِيَاتٍ شِبْهُهَا الدَّوْمُ أو خَلايَا سَفِينِ

وللمرقش الأكبر قصيدة أخرى يشبه في أحد أبياتها ناقته بالثور الوحشي ، ويحفل البيت كله بالتشبيهات والصور المركبة ، فالناقة كالثور الوحشي والسوط الذي يدفع الثور (الرباع) إلى الجرى كالمجداف الذي يحرك السفينة ويجري بها ، ثم يدمج المجداف والسفينة والسوط والثور في كلمة واحدة هي «الزلم» أي قدح الميسر ، فيقول إن الناقة تجري بالسوط مثل السفينة عندما يحرك مجدافها ، وهما في عدوهما أشبه بعدو الثور المفرد ، أي الذي أفردته خشية القناص ، وبقدح الميسر:

تعْدو إذا حُرِّكَ مِجْدَافُها عَدْوَ رَبَاعٍ مُفْرَدٍ كَالزَّلَمْ

وشبه المثقب العبدي ناقته ، عندما يرتفع عليها أدوات الرحل ، بالسفينة طويلة الظهر (القرواء) السابحة المدهونة وهي تشق الماء بصدرها (جؤجؤها) ويعلو مع ارتفاع أمواج البحر المرتفعة على المدى البعيد . فالشاعر يذكر هنا تركيب السفينة ودهانها ، ومعروف أن العرب كانوا يدهنون سفنهم بزيت

(١) أحمد محمد عطية : أدب البحر.

السمك :

كــأن الكُــون والأنــسَاعَ فيهــا   عــلى قَــرْوَاءَ مــاهِرَةٍ دهِــينِ
يَــشُقّ المــاءَ جُؤْجُوؤُهــا ويَعلــو   غَــوارِبَ كــلِّ ذي حَــدَبٍ بَطِــينِ

في الأصمعيات نجد «سهم بن حنظلة » وشهرته «رجل من غنى» ، يصوّر المد في الخليج تصويرًا واقعيًا ، فالخليج في المد شديد الامتلاء بالمياه (تأقا) ، والأمواج العالية بالغة الارتفاع:

مــدَّ الخلــيج تــرَى في مَــدِّهِ تَأَقًــا   وفي الغَــوَارِبِ مــن آذِيِّــهِ حَــدَبًا

وفي مجال الفخر ، ينشد الشاعر سَلامةُ بنُ جَنْدَلٍ قائلاً :

فعِزّتُنــا ليــست بِــشِعْبٍ بِحــرَّةٍ   ولكنهــا بَحْــرٌ بــصحراءَ فَيهــقِ
يُقمِّــص بــالبُوصيِّ فيــه غَــوارِب   متى ما يُخْضُنْها ماهرُ اللّج يَغْرقِ

فينفي عن عزتهم المحدودية والضيق كالطرق الجبلية ، ولكنها واسعة كبيرة كبحر في صحراء مترامية الأطراف ـ وفي هذا البحر تحرك الأمواج العالية السفن فوق مياهه الممتدة بلا انتهاء، التي يغرق فيها الصباح الماهر .

ويرد ذكر البحر والسفن في كثير من قصائد المفضليات والأصمعيات ، بدون أن يقترن بالصور الواقعية لعالم البحر والأمواج والسفن . مثل هذا البيت الذي يرد في قصيدة للشاعر الجاهلي المزق العبدي :

أَكَلّفْتَنِــي أدواءَ قــوم تَــرَكْتُهمْ   والآ تــدَارَكْني مــن البحــر أغْـرَقِ

ويقول احمد محمد عطية عن أدب البحر في الشعر الجاهلي (١) :

تتكرر في قصائد الشعر الجاهلي ودواوينه الكثير من صور البحر وأمواجه وسفنه وظواهره وطرقه الملاحية على النحو الذي سبق ذكره . ونلاحظ أنها ترد

(١) راجع أحمد محمد عطية / أدب البحر .

كأبيات من القصيدة الجاهلية ولا توجد قصائد بحرية جاهلية كاملة بسبب النظام السائد في قصائد الشعر الجاهلي.

غير أنها تشكل الملامح الأولى لأدب البحر عند العرب . تلك الملامح التي أخذت في التعمق مع التقدم العربي في البحار والمحيطات . فتقدمت تلك الصور البحرية الواقعية من الشعر الجاهلي إلى قصص التجار العرب مع نمو حركة التجارة العربية بعد ظهور الإسلام. ونما أدب البحر العربي شكلاً وموضوعًا ، كمًّا وكيفًا ، من الملامح الأولى الواردة في الشعر الجاهلي إلى الرواية العربية الحديثة ، أي من شكله الأول البسيط إلى أشكاله الأخيرة المركبة من الفن الروائي ، مرورًا بقصص التجار العرب ، وفن الحكاية الشعبية والأساطير البحرية ، فأدب المرشدات البحرية وأدب الرحلات البحرية . ونستطيع أن نلمح في الشعر الجاهلي البذور الأولى لبعض هذه الأشكال الأدبية والفنية والعلمية من أدب البحر العربي .

البحر في الأساطير والتاريخ والشعر

أي شعور كان شعور الإنسان البدائي، حين كان على الفطرة الأولى منذ المئات من آلاف السنين، وهو على الأرض اليابسة يتطلع من ربوة عالية في البر، إلى ذلك الكائن المائي، الهائل الجرم، العظيم الطلعة، الدائب الحركة، الحي: البحر؟ أجل، ذلك السلف من أسلافنا الأولين، الذين كانوا أجهل الجاهلين، بأية معلومة من المعلومات الأولية التي يعرفها أطفالنا من مبادئ الجغرافيا الطبيعية، كما كانوا أبعد الأقدمين عن أية معرفة علمية تبلغ جزءًا من ملايين من قبيل ما عرفه كهنة قدماء المصريين وفلاسفة الإغريق اليونانيين أي شعور كان شعور هذا السلف الأولين من البدائيين أمام البحر؟ .. وهم يسمعون من بعيد هدير عبابه الذي يكاد في بعض الأحيان يصم الآذان. ثم يرون حين يقتربون ـ حركة أمواجه الدائبة، كأن هنالك لا محالة روحًا حية في كل موجة متقلبة، وهو تارة في هياج تعلو به الأمواج كالجبال، وتتصادم في اعتلاجها وقد تناثر زبدها أعنف الاصطدام، فتحيل كل ما في طريقها إلى حطام وتكاد تزلزل الأكوان. ثم لا يلبث البحر في غرابة أطواره أن يتغير بعد قليل أو طويل حاله، فإذا هو يسكن غضبه، وتهدأ ثائرته وتقر أحشاؤه، وتتطامن أمواجه وتنبسط صفحته، دون أن يفقد شيئًا من جلاله وروعته، وهو منبسط أمام العين في كل اتساعه يملأ رحاب الفضاء، ويمتد مع امتداد البصر حتى آخر الأفق حيث يلتقي الماء بالسماء[١٩].

لا مراء في أن شعور الإنسان البدائي ـ منذ المئين من آلاف السنين ـ أمام البحر كان يفوق بها لا يقاس شعورنا اليوم. وشعور سائر الناس من جميع

---

(١٩) الهلال سبتمبر ١٩٦٨: عبد الرحمن صدقي.

الأجناس في شدة الروع وعمق الرهبة وفرط التعظيم . وذلك للفارق الذي لا يقاس ، بين الإنسان البدائي وبيننا في العلم ، خاصة اليوم بما أدخله علينا العلم الحديث وتقدم التكنيك من الاعتزاز بقدرتنا العلمية على فهم نواميس الطبيعة وبقوتنا التكنيكية على إخضاع قوى الطبيعة ، مما أثر لا محاله في هيبتها وخفف من رهبتها .

ولكننا نحن الأدباء ، ولا سيما الشعراء نختفظ لأنفسنا ببعض الاستثناء . فإن شعور الإنسان البدائي حيال الطبيعة كما وصفناه ، لا تزال له عندنا بقية بحمد الله، لأن الشاعر مهما يكن نصيبه من العلم العصري ، فإنه لا ينفك موصول السبب بالإنسان البدائي ، من حيث خياله الوثاب وإحساسه الجياش في حضرة الطبيعة ، وبخاصة البحر ومصداقًا لهذا ، نضع بين يدي القراء فيما يلي صورًا شتى عن البحر ، في الأساطير والتاريخ والشعر .

في الصباح الباكر ، من يوم ليس كمثله يوم في وضاءة شمسه وحلاوة أنسه ، في الغرة من أيام الربيع، في أروع شبابه وأجد إهابه ، وقد هبت أنفاس الربيع الحارة العطرة المنعشة على البر والبحر، جعلت الأمواج تفور فورانًا شديدًا عجيب الشأن ، بالقرب من جزيرة أقريطش بين الأقاليم الثلاثة : آسية وأفريقية وأوربا ، في العالم القديم ، وجعلت كل موجة في سائر أرجاء البحر المتوسط تعج وتضج ، وتنزو وتتوثب بحافز لا عهد لها به من نزوع الشوق وجنون الحب .

أن الكون يتمخض الساعة عن آية يالها من آية ...

هي بضعة من جسم «أورانوس» رمز السماء ، في أساطير الإغريق القدماء ، جبها ناقم عليه من أبنائه فهوت في الماء ، فلقحت منها ـ على حد قولهم ـ الدأماء ودار الفلك دورته ، ولم يزل البحر بهذه البضعة الدامية تصفقها لجته ، حتى استكمل الحمل السماوي في اللجة المصطفقة مدته .

وهذا هو البحر ، في بكرة ذلك اليوم الأغر المأثور من أيام الدهر ، يجيش

بالقرب من أرض يونان ، بالغًا من الجيشان أشده ، وقد تعالى على موجه المصطفق زبده . وقبل أن يعلو النهار ويستوفي على البحر شروقه ، تجلت من معجزات الخلق في أول الخليقة هذه المعجزة الفائقة المرموقة ، فانشقت اللجة المصطفقة الراغبة ، عن حسناء معبودة الحسن عارية ، كأنها من بياض الجسد صيغت من ذلك الزبد .

تجلت على ثبج الماء هذه المعبودة الحسناء ، آيةالتناسق والروعة والرواء ممشوقة القد ، معتدلة الشطاط ، نطيفة التكوين ، مبتلة الأعطاف ، كاعب النهدين ، مخطوطة المتنين ، مستديرة الردفين ، أملود الساقين ، غضة الشباب بضة الأهاب ، رفافة البشرة ، بديعة الملامح والقسمات، إلى آخر ما لا يسبق إليه وهم ، ولا يعلق به خيال، ولا يخطر وجوده على بال ، من المحاسن التي لا يحصرها عد ، ولا تنتهي عند حد . ولا بدع أن تكون هذه المولودة الخالدة الأخيرة في صورة الخلق وجهارة الحسن على هذا الكمال ، فإنها طلعت حين طلعت لتكون قالب الجمال ، ومثاله الأعلى الذي صيغ على غير مثال .

وكانت أفروديت «وليدة الزبد» . وهو الاسم الذي عرفت به ربه الجمال في صورة ذلك الجسد المستغرق لصفات لكمال ـ عارية متجردة ، حين طلعت من تلك اللجة المزبدة ، أجل ، عارية، متجردة تجرد الوليد ساعة ولادته ، وقد تلألأت محاسن جسدها كاللؤلؤة اليتيمة العظيمة عريت من صدفها ، حاشا تلك الذوائب الفينانة من شعرها الطوال الذهبي ، المسترسل على ظهرها المرمري ، ضاربا إلى حقويها ، ولو أنها شاءت التستر به لسترها بغير عناء ، ولكن أعفاها أن فضيلة الخفر والحياء لم تكن في تلك الأزمنة الأولى معروفة عند الأحياء .

ولم يشهد مطلع أفروديت ربة اجمال ، وهي على تلك الحال متجردة الجسد عارية الأوصال فيما عدا أبويها الأزليين السماء والماء ، إلا ثالث لا يخلو منه فضاء، هو الهواء . هو ذلك الهواء الذي لا يزال خافق الأحشاء ، دائم الأنين ،

منذ ذلك الحين إلى أبد الأبدين وما كاد الهواء يراها ، حتى ضمها واحتواها ، وقد هاج هائجه وجن جنونه لفرط ما بلغ منه هواها . وجعل الهواء الولهان يعتسف السواحل مندفعًا إلى الأشجار المتفتحة النوار، يهز الفروع ويهتصر الأغصان منتزعًا أكاليل من ورقها العاطر وزهرها الأبيض الباهر يحملها مسافات من البر إلى حيث أفروديت عروس البحر ، فيرتمي متنهدًا عند قدميها، وينثر أزاهير العرس الناصعة حواليها ، حتى صارت الأمواج في تلك الناحية ، أشبه بقطع الرياض الحالية . ولم يزل الهواء - من فرط الهوى - تتوجه إلى أفروديت زفراته ، وتتابع تنهداته ، فإذا صدفة لؤلؤية عظيمة بيضاء تنساق إلى تحت قدميها الناصعتين وقد نشرت شعرها الأثيث الذهبي في شعاع الشمس الذهبي الوضاء، ربة الجمال الفرعاء ، فانسابت الصدفة بها في لطف على الماء ، في وجه هذه الأنفاس المتنهدة المتصعدة من الهواء ويظل الهواء العاشق كالمجنون يلاحقها بقبلاته ويدافعها بلمساته ، وهي على صدفتها مندفعة تمخر الماء في لطف وخيلاء، فتأخذ الماء في طريقها قشعريرة لذيذة ، ورعدة ممتعة وجيزة. وتظهر على لجته في حيثما مرت أفروديت على صفحته رغوة منتفشة ومويجيات مرتعشة ، وقد أقبل سكان الأعماق يتجمعون زرافات حول مركبها فرحين محبورين ، وقد استخفتهم نشوة الطرب وأخذتهم هزة المرح ، افتتانًا بهذا الجمال واحتفالاً بمطلعه . فكانت الجنيات الحسان ، من بنات آلهة البحر، سابحات حول الصدفة العظيمة ممسكات حوافيها بأيديهن الرخصة الناصعة البياض، وكانت أفواج الخيلان من أبناء ألهة البحر - وأدناها سمك وأعلاها إنسان - تتقدم بين يدي الموكب المائي نافخة في أبواق من الودع الكبار ، ترجع فيه الأذان في أثر الأذان ، وتعلن البشائر في لحن من أعذب الألحان . وعلى مسافة قريبة ، تتوثب مسرورة محبورة ، دواب البحر من أطم لماعة الوبر، حداد العيون طوال السبال ومن دولافين طافين كالزقاق المنفوخة ، فضية الألوان منقوطة ، ومن ورائها جميعًا حيتان البال ، ترسل الماء من نافورتي هامها ذاهبًا في الفضاء، وكأنها من ضخامة

الجثث كسلانة في سبحها متثاقلة، وهي من فرط فرحها تشق على نفسها في السبح جادة متحاملة.

وانسابت أفروديت على هذه الصفة، تهفو بها أنفاس الهواء المتصعدة، حتى ساحل أقريطش وكانت الجزيرة في ذلك الزمان لم يطأها إنسان، وإنما هي برية أنف معطار، وريفة الأشجار موشاة بمختلف الأزهار، وكان في استقبال المولودة الخالدة الجديدة، الترحيب بمقدمها الميمون من قبل الأرباب الخالدين الأقدمين جنيات الطبيعة الموكلات بتدبير الأطوار والأحوال المعروفات بـ «الساعات» وهن صبايا من الحسان الناضرات متشحات بحلل من الزهرشتي الألوان والشيات ولما كانت أفروديت عارية إلا من شعرها الأثيث العبق، فقد أقبلت عليها الساعات باللباس والزينة فأفرغت إحداهن عليها غلالة من الشفوف بديعة الألوان، يبدو لابسها من رقة النسج بين المكتسي والعريان . وعكف بعضهن على ذوائب شعرها الفينان الذهبي، تسرحه وترجله بمشط ذهبي . ثم تضفره غدائرمسترسلة كأمواج البحر اللجي، ثم تضم الغدائر بعضها إلى بعض بأكليل من الورد الأحمر الجني . وجعل بعضهن الأقراط إلى أذنيها الصغيرتين والقلائد حول جيدها الأتلع، والمرسلات على ترائب صدرها المصقول كالسجنجل، وكلها من عجائب الحلي، صنعة صناع عبقري، متخذة من الزمرد والياقوت والزبرجد الأصفر القبرصي . ثم كان الختام أن أدير حول حقويها وشاح مفصل بالدرر والجمان، جاذب للنظر، مستدع لكوامن الفكر، كأنها ينطوي على أسرار غريبة ونجاوي غامضة عميقة. وهكذا تولت «الساعات» تعليم الربة الشابة ما في الزينة من فتنة وما في بعض الحجاب من استهواء ...

ولما أن اجتمع في أفروديت إلى سحر الحسن المطبوع غوايات الحسن المصنوع، نظرت ربة الجمال نظرة متطلعة خفية، إلى مرآة من الفضة المجلوة،

عرضتها عليها ، ورفعتها إليها وصيفة من وصائفها القائمات على خدمتها. فامتلأت رضا عن نفسها واعتزازًا بحسنها الذي جاز الغاية وفاق النهاية ، ولم تملك أن سرت في أعطافها خفة وشاءت في وجهها إشراقة الغبطة فهاد قوامها في اختيال ، وابتسمت في دلال وتلفتت تتبين حواليها، كيف يكون الافتتان بها والصبابة إليها ، فراعها ما استبان لعينها من غلبة سحرها على الخليقة بأسرها.

فهذا الهواء مدنف ، قد براه الهوى وشفه الضنى ، وعند قدميها نسيم الصبا، خائر القوى متهالك طليح ، كالمخمور الطريح . وهذا البحر عجاج متلاطم الأمواج منذ أن أخذه مخاضها لا يقر له قرار كالمتقلب على الغضأ ، لهفة عليها وأسفا على فراقها. وهذه الشمس مضطرمة من الوجد ، كلما أحسنت مغالبة الأسى توارت خلف نقاب من متراكب السحاب ، وأجهشت بالبكاء والنحيب حتى ليحول الثرى الجديب من وابل دموعها وهو جد خصيب ، وهذا الفضاء الواسع الجنبات يجيش بألوف الألوف من الذرات التي تدق من رؤية العين وتخف عن أن يقام لها وزن وهي مشوقة إلى التكثر والتطور ، وهذه الدواب والطير والزواحف والهوائم وسائر أنواع الحيوان من الهولات الجسام ذوي الأجلاد والجثث الضخام ، إلى الدويبات الدقاق الميكروسكوبية الوحيدة الخلية. هذه جميعًا قد دب في أجسادها ـ لطيفة كانت أم كثيفة ـ هزة تنزع بها إلى التعانق والتواصل والتخفف من فيض الحياة الذي حفلت به واكتظت حتى نسى الفرد منها ذاته في سبيل استدامة النوع ... وانبخثت من هذه الخلائق جميعها غمغمة مبهمة لا يفصح بها اللسان، ولكنها مستغنية عن اللفظ مبينة من غير بيان ، لانها تهليل الحواس وتكبير القلوب وهتاف الوجدان . وهي تتوالى على أفروديت من كل صوب وتحفها من كل ناحية ، فتحتويها من هذه المشاعر المحيطة بها المحلقة حولها أمواج حارة مسكرة .

ووقفت الساعات من جلال الموقف خاشعة ساكنة ...

وأما ربة الجمال ، فقد لبثت جامدة في وسط هذه الحلقة المغناطيسية ، وقد أطبقت جفنيها وغابت من فوق شفتيها ابتسامة الدلال الغريرة الصبيانية ، وتبين عليها التأمل العميق والخلوة إلى النفس واستجماع شوارد الفكر ، بعد أن بان لها سلطانها الرهيب وما يستتبعه هذا السلطان من التبعات والأعباء .

وبقيت أفروديت لحظة على هذا الحال تتنفس - وهي كالنائمة الحالة - من خياشيمها المتفتحة الخافقة ، ومن فمها المنفرج المنفعل ، أنفاسًا عميقة مطردة في هذا الجو الحادث من حولها حتى تشبعت به أنسجة جسمها وامتزج بكيانها يا لها لحظة من اللحظات القدسية التي تتقرر فيها المقادير الكونية ...

لقد صارت أفروديت ربة الجمال الذي لا يضارع ، ربة العشق الذي لا يدافع وأقبلت «الساعات» فوضعن على هامة الربة الجميلة الجليلة تاجًا لا من الذهب والجواهر بل من النور تبلور وتجوهر ومضين بحرًا وبرًا بها والخلائق تضطرب وتجيش في البحر والبر في طريقها حتى أوفت الرحلة على غايتها ، فعرجن بين يديها منفردات بخدمتها ، وهي في الموكب الحافل من بهائها وفتنتها إلى مشارف «الأولمب» منزل الألهة ومتبوأ عروشها » .

البحر في الشعر العربي القديم :

تروي كتب التاريخ العربي ، أن الخليفة عمر بن الخطاب ، كتب من الجزيرة العربية إلى عمرو بن العاص وهو والي مصر بعد فتحها (سنة ٢٠ هجرية - ٦٤٠) أن صف لي البحر . فكتب إليه عمرو ، يقول :

«أن البحر خلق كبير ، يركبه خلق صغير . ليس إلا السماء والماء . وهو أن ركد أقلق القلوب ، وأن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة ، والشك كثرة. راكبوه دود على عود » .

وقد كان من تأثير هذا الوصف ، أن أوصي الخليفة بمنع المسلمين من ركوب البحر . فلم يركبه أحد من العرب إلا افتات على الخليفة بركوبه ، فناله

من عقابه ما لابد أن يناله . ومثال ذلك ما فعله بمن وكل إليه غزو بلاد عمان على ساحل بحر اليمن في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية، فإنه حين بلغه نجاح قائده في غزوة عمان بحرًا ، أنكر عليه ، وعنفه أن ركب البحر للغزو. وهكذا مضى الخليفة عمر على إشفاقة هذا الكريم ، على المجاهدين المسلمين من ركوب البحر، فلم يكن يفوته أن يكرر على من يبعثهم للفتح - شرقًا أو غربًا - من قواده ، هذه الوصية : لا تجعلوا بين المسلمين وخليفتهم بحرًا .

ولم يزل الشأن ذلك زمنًا . والسبب في ذلك أن العرب لبداوتهم ، لم يكونوا أول الأمر مهرة في الثقافة البحرية ، على حين كان الروم في أنحاء الامبراطورية البيزنطية ، بطبيعة موقع بلادهم على البحر المتوسط ، قد مرنوا عليه وأحكموا الدربة بثقافته ، لممارستهم أحواله ، ومرباهم في التقلب على أعواد مراكبه . فلما استقر الملك للعرب ، وصارت أمم الغرب خاضعة لهم وتحت أيديهم، أخذ كل ذي صنعة يتقرب إليهم بصنعته . وكانت قد ظهرت للعرب حاجاتهم إلى الممارسة البحرية ، فتوجهت عنايتهم إلى بناء السفن ، واتخذوا لها دور صناعة (ومن هذه الكلمة استعار الغربيون كلمتهم Arsenal فترجمها المترجمون ترسانة، في ثغور بلادهم الواقعة على حافة البحر. وقد استخدموا من النواتية في حاجتهم أممًا من غير العرب ، فلما تكررت ممارسة العرب للبحر وثقافته ، استخدموا بصراء بها من العرب أنفسهم . ولم يلبثوا أن صارت لهم - إلى جانب مراكبهم التجارية - الأساطيل الحربية من السفن والشواني (السفن الحربية الكبار) يدير أمرها رجالهم، وتشحن في مرافئها بالعدة والسلاح وأصناف العساكر والمقاتلة .

* * *

ويرجع الفضل الأول في نشأة الأساطيل عند العرب إلى اثنين من أعلام الولاة في عهد الخليفة عثمان بن عفان : أولهما والي الخليفة على الشام معاوية بن

أبي سفيان ، والآخر الوالي على مصر بعد عمرو بن العاص، وهو عبد الله بن أبي سعد بن أبي سرح العامري ، أخو الخليفة عثمان في الرضاع، وكانت الإسكندرية بطبيعة الحال هي دار الصناعة في مصر لبناء السفن .

وكان معاوية وهو والي الشام جارًا للبحر ، وكان للروم البيزنطيين السيادة عليه ، ولا تكف سفن أساطيلهم عن الغدو فيه والرواح ، وقد خلعوا عليه اسمهم فصار علمًا عليه ، فهو «بحر الروم» . فلا غرو ، نرى الوالي العربي معاوية ، يحلم على أحر من الجمر ، بركوب بحر الروم، واستكمال الفتوح بالغزو فيه . ولقد سبق أن استأذن الخليفة عمر في غزو البحر ، فلم يأذن له ، وكان رده الحاسم : «والله لا أحمل عليه مسلمًا أبدًا. ولمسلم واحد أحب إلي ، مما حوته بلاد الروم. فإياك أن تتعرض لي في ذلك » .

فلما ولى الخلافة عثمان بن عفان كتب معاوية إليه يسأذنه في غزو جزيرة قبرص (سنة ٢٦ هجرية = ٦٤٧ ميلادية) فأبى الخليفة وكتب إليه أن قد شهدت ما رد به عليك عمر ، رحمة الله عليه ، حين استأمرته في غزو البحر ، فلما كانت السنة التالية ، عاد معاوية إلى الخليفة يهون عليه ركوب البحر لقرب الجزيرة وسهولة الأمر . وأخيرًا أرسل الخليفة إليه بالموافقة مشفوعة بهذا الشرط، للتأكد من صدق قوله عن سهولة ركوب البحر إلى الجزيرة ، قال: «فإن ركبت البحر ومعك امرأتك ، فاركبه مأذونًا لك ، وإلا فلا » فركب معاوية البحر من عكا ، ومعه مراكب كثيرة، وفي صحبته «فاختته» امرأته ، كما فعل مثله (عبادة ابن الصامت) فكانت غزوة قبرص الأولى سنة ٢٨ هجرية ٦٤٩ ميلادية ولم يكن المسلمون قد ركبوا بحر الروم قبله .

وقد شجع هذا الانتصار معاوية حين ولى الخلافة ، على مهاجمة القسطنطينية عاصمة امبراطورية الروم البيزنطية .. فأنفذ للمرة الثانية من الشام حملة حربية عليها في البر والبحر معًا وهي بشهادة المؤرخين حملة لم يسبق للعرب تجهيز

مثلها. وقد أوقع الأسطول العربي بالسفن البيزنطية، وأنزل بها شر هزيمة، واستطاع أن يشق طريقه في مضيق الدردنيل على الرغم من مناعته، واتخذ لمراكبه في بحر مرمرة قاعدة في جزيرة أو شبه جزيرة سزيكوس التي تعرف باسم «أرواد» عند العرب. ومن هذه القاعدة حاصر العرب مضيق البوسفور الذي تقع عليه القسطنطينية عاصمة امبراطورية الروم البيزنطية وقد دامت هذه العمليات الحربية سبع سنوات (٥٤ ـ ٦٠ هجرية = ٦٧٤ ـ ٦٨٠ ميلادية) أي حتى وفاة الخليفة. ولكن حصول الروم على اختراع جديد من قذائف النفط المشتعلة التي لا يطفئها الماء، فوت الفرصة على العرب، إذ كانت هذه «النار اليونانية» تصيب بالحريق ما تصيبه من السفن العربية حتى كان من ضحاياها غير قليل من المقاتلة المسلمين، فلم يكن بد ـ آخر الأمر ـ من رفع الحصار، وانسحاب الأسطول العربي من بحر مرمرة ومياه بحر «إيجه» اليوناني كله.

ولعل هذه العواقب قد أعادت من خلفوا معاوية إلى سابق موقف الخلفاء من البحر. فإن القائد «موسى بن نصير» حين تم له فتح ساحل أفريقية الشمالية كله ثم المغرب حتى المحيط الأطلسي، وامتدت أنظاره عبر الخليج ـ المعروف عند الأقدمين بأعمدة هرقل ـ إلى أرض أسبانيا في العدوة الأخرى، وكان عنده من الأسباب ما يجعل في الإمكان ضمها إلى حوزة الإسلام، لم ير بدا من إبلاغ الخليفة وانتظار أذنه.. وكان القائد من ذلك الأذن على يقين، فإن عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك وعهد أبيه من قبله، كانا هما الاثنان عهد الفتوح الثاني بعد عمر وعثمان. وقد انتظر القائد الأذن فطال انتظاره. وأخيرًا جاءت الأخبار بأن طلب الأذن لم يجد قبولاً عند الخليفة. فأعاد القائد على غير العادة عرض موضوع طلبه، مطنبًا في شأن هذا الفتح الكبير، دون أن ينسى معالجة ما يعرفه من تحرج الخلفاء الأولين حيال البحر بقوله أن ليس بين جيوش المسلمين وأسبانيا «بحر زخار، وإنما خليج منه، يبين للناظر ما خلفه» ولولا ذلك التبرير، لما دخل التاريخ من أكبر أبوابه، القائد البطل طارق بن زياد فاتح الأندلس (سنة

٩٣ هجرية = ٧١١ ميلادية) الذي يحمل مدخل البحر طابع خاتمه الذي ترك اسمه منقوشًا على صخرته «مضيق جبل طارق» حتى ألبوم، وإلى الأبد .

وقد كان من شأن هذا الانتصار في بحر الروم الغربي على دولة القوط الغربيين في عهد الوليد بن عبد الملك ، أن أطمع الخليفة اللاحق سليمان بن عبد الملك في معاودة الكرة لتحقيق الحلم الأكبر، وهو الاستيلاء في بحر الروم الشرقي على عاصمة امبراطورية الروم الشرقية : القسطنطينية. فأضطلع بذلك أخوه القائد الطموح العنيد «مسلمة» الذي كانت حملته برًا وبحرًا أخطر مما سبقها. وقد استطاع الأسطول العربي للمرة الثانية اجتياز مضيق الدردنيل إلى بحر مرمرة فالبوسفور ، ولكن حال دون عبور المراكب مضيق البوسفور إلى القرن الذهبي ، أن الروم كانوا قد سدوا في عرضه السلاسل ، فاعترضت الأسطول العربي الذي اضطر إلى أن يرسو تحت أسوار العاصمة الحصينة ، متعرضًا لقذائف النار اليونانية ، بينما تعرض الجيش العربي لهجمات المدد البلغاري في البر . وطالت مدة هذه المعركة من أغسطس ٧١٦ حتى سبتمبر ٧١٧ . ثم كانت وفاة الخليفة ، فأصدر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز أمره بعودة الحملة . فكان هذا آخر العهد بحصار العرب القسطنطينية .

ولم يفت هذا في عزيمة العرب ، فقد استمروا في غزو البحار . ومنها البحر الأبيض المتوسط الذي غلبوا عيه من شتى جوانبه ، كما ملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن سواحله ، فعظمت صولتهم وسلطاتهم فيه .

ولعل أشهر من لهج من الشعراء بقوة العرب البحرية في البحر الأبيض المتوسط في تلك الحقبة الشاعر محمد بن هانئ المشهور بالأندلسي ، مع أنه من مواليد المهدية في شمال أفريقية حوالي ٣٢٦ هجرية (٩٣٧ ميلادية) ، فهو أفريقي وابن أفريقي . والسبب في هذه النسبة أنه انتقل مع أبيه إلى الأندلس ، حيث نشأ في أشبيلية مدينة الموسيقى والغناء وشتى الملاهي والملذات . أما أكثر تأدبه فكان

- على قول المؤرخ ابن الآبار - في دار العلم في قرطبة . وقد استوطن ابن هانئ بعدها مدينة «البيرة» فعرف عندها بالشاعر الألبيري .

ولكن الشاعر محمد بن هانئ لم يلث أن نبا به المقام في الأندلس لأسباب شخصية وأخرى مذهبية . فعاد إلى أفريقية مسقط رأسه ، حيث أخذت تذيع شهرته الأدبية ، وتعلقت الآمال بأن تكون له في الغرب منزلة المتنبي في الشرق . فنمى خبره إلى الخليفة الفاطمي المعز لدين الله العبيدي، فبعث في طلبه فلما وفد عليه ، استدناه وقربه ، وأكرم وفادته ، وأعز عنده منزلته ، فخصه الشاعر بشعره كله قبل الفتح الفاطمي لمصر وبعده ، عدا قصيدة أو قصيدتين في قائده جوهر الصقلي. وقد غالى الشاعر في مدح المعز ، والتسليم عليه بالخلافة ، والقول بأمامته ، حتى كاد يقول بألوهته .

ومن شعره يصف أسطول الخليفة الفاطمي في حروبه مع الروم في البحر الأبيض المتوسط، قوله :

لك البر والبحر العظيمُ عبابُه ... فسيَّان أغمار تُخاضُ وبيد
قباب ، كما تُزجَى القباب على المَهَى ... ولكن من ضُمَّت عليه أسود
والله ، مما لا يرون ، كتائب ... مُسَومَة ، تحدو بها ، وجنود
وما راعَ ملكَ الروم إلا اطِّلاعُها ... تُنَشَّر أعلامٌ لها وبنود
أنافتْ بها أعلامُها ، وسما لها ... بناءٌ على غير التراب مَشِيد
عليها دخانٌ مُكفهِرِ سحابُه ... له بارقاتٌ جَمَّة ، ورعود
مَواخِرُ في طامي العباب ، كأنه ... لعَزْمِك بأسٌ ، أو لِكَفِّك جود
من الراسيات الشَّم لولا انتقالها ... فمِنها قِنانٌ شُمَّخٌ وريودُ
من الطير ، إلا أنَّهن جوارحٌ ... فليس لها إلا النفوسَ مَصيد
من القادحات النارَ تضرمٌ للصِّلَى ... فليس لها يوم اللقاء خُمُود

إذا زفرتْ غَيظًا ترامت بمارجٍ ... كما شُبَّ من نار الجحيم وقود
فأنفاسهنَّ الحامياتِ صواعقٌ ... وأفواههنَّ الزافرات حديد
لها شُعَلٌ فوق الغمارِ كأنها ... دماءٌ تَلَقَّتها ملاحفَ سود
تَخِذن شفوفَ العبقريَّ ملابسًا ... مفوفةً ، فيها النضارَ جسيد
فمنها دروعٌ فوقها ، وجواشنٌ ... ومنها خفاتينٌ لها وبرود
لبوسٌ تكفُّ الموجَ وهو غُطَمْطمٌ ... وتدرأ بأسَ اليَمِّ وهو شديد

ولم يدخل الخليفة المعز لدين الله الفاطمي مصر بعد أن فتحها قائده جوهر الصقلي سنة ٣٥٨ (٩٦٩ ميلادية) ، بل انتظر نحو السنوات الثلاث ، حتى أبلغه قائده أن قد تم بناء العاصمة الجديدة المصرية التي سميت منذ ذلك الحين «القاهرة» باسم قاهر الفلك : المريخ ، طالع نجمها السعيد . وكان سلطان الخليفة المعز قد عم وقتذاك طول المغرب من أول الديار المصرية إلى البحر المحيط ، ومن ثمة حرصه على أن لا تكون عاصمة خلافته دون بغداد في الشرق وقرطبة في الأندلس . وقد تحرك موكبه في المنصوريه التي بناها أبوه وسار متجها شرقا إلى عاصمته الجديدة متفقدًا في الطريق ملكه الواسع بما في ذلك جزيرتي سردينيا وصقلية ، ولما أن بلغ برًا إلى طرابلس الغرب جاز منها مباشرة إلى الإسكندرية فالقاهرة وكان دخوله إليها من باب زويلة باحتفال عظيم .

وقد كان الشاعر في تشييع الخليفة عند سفره من المنصورية ، ولكنه عاد ليتجهز ، ويصطحب عياله ، ليلحق بعدها بسيده . وقد ارتحل فعلاً بعد نحو عام، ولكنه مات ولم يتجاوز السادسة والثلاثين في برقة وهو في طريقه إلى القاهرة فلم يقدر للشاعر الأفريقي الكبير أن يملأ عينيه من محاسن العاصمة الجديدة الزاهرة ولما انتهى خبر مصرعه إلى الخليفة المعز وهو في مصر ، تأسف عليه كثيرًا وقال:

«لا حول ولا قوة إلا بالله ! هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق، فلم يقدر لنا ذلك» .

البحر في الشعر الإنجليزي:

هنا ، يتبادر أول ما يتبادر إلى أذهاننا ، خيال ذلك الحوت الهائل الجبار الذي كان الهول الأكبر في البحار ، ونعني به أسطول أقوى الدول البحرية في القرن الماضي ، وهي انجلترا التي لولا أسطولها ورجاله ، لما استطاعت أن تقف وقفتها التاريخية في وجه عبقرية نابليون الحربية[1] .

فقد كان نابليون ـ كالاسكندر الأكبر من قبل ـ ليس لجنون العظمة عنده من حد . فهو في حلمه بالمجد ، يتطلع إلى حكم الغرب والشرق . وكان بالفعل في طريقه إلى توحيد أوروبا في دولة واحدة يكون هو رئيسها الأعلى ، وتكون باريس عاصمتها وعاصمة العالم أجمع . ولقد حقق جانبًا كبيرًا من مشروعه الأكبر ، ولم يبق عليه للمضي إلى آخر الشوط إلا أن يتخلص من انجلترا عدوه الأكبر . ولكن كيف ذلك والأسطول الانجليزي هناك ؟ كيف وهو أن ينس لا ينس أنه في حملته على مصر سنة ١٧٩٨ ما كاد ينتصر على المماليك بمرأى من أهرامات الجيزة وأبى الهول في ٢١ يولية، إذا به ـ قبل أن يفيق من نشوة النصر واستتباب الأمر ـ تصله الأنباء بأن المراكب الفرنسية. التي عبرت بحملته العسكرية البحر ، والراسية عند خليج «أبى قير» قريبًا من الإسكندرية منذ أول يوليه ، قد باغتها في أول أغسطس «نلسون» الأميرال الانجليزي في البحر الأبيض المتوسط ودمرها عن آخرها ، فأصبحت الحملة وقائدها نابليون في حكم المحصورين في مصر.

لقد ذكر نابليون ذلك وهو قنصل على فرنسا سنة ١٨٠٢ ثم امبراطور منذ سنة ١٨٠٤ ، فأمر بالمزيد من الاهتمام بالأسطول ، واتخذ أحلافًا من بعض البلاد البحرية مثل أسبانيا . ولما كان نابليون مع كل عبقريته الحربية قليل الخبرة بمعارك البحر ، فقد وضع خطة تكفل انزال جيوشه في الجزيرة البريطانية لتكون

---

(١) المرجع السابق.

المعركة مع الانجليز معركة برية . وبالفعل اجتمع في ميناء بوليني وما يليها نحو الألفين من المراكب المفرطحة القاع ، لنقل الجند الفرنسيين الذين تبلغ عدتهم نحو المائة والخمسين ألف جندي من ساحل فرنسا الشمالي عبر خليج المانش ، إلى ساحل انجلترا الجنوبي الذي كان يبدو على مد البصر في اليوم الصحو . وظل يهون الأمر في كلامه عن خليج المانش: «إن هو إلا حفرة يسهل علينا قفزها ، ساعة تكون لدينا مجرد الجرأة على محاولة ذلك» .

ولكي يقوم نابليون بهذه القفزة ، لم يكن يتطلب الأمر في رأيه إلا أن يحال بين الأسطول الانجليزي والخليج لمدة اثنتي عشرة ساعة فقط ، وبناء على هذه الخطة تعرضت السفن الفرنسية والإسبانية لأسطول الأميرال ، نلسون» ونجحت في استدراجه وتضليله ، ثم عادت متجهة إلى خليج المانش . ولكن الانجليز كانوا قد اتخذوا أكثر من مجموعة من السفن لحراسة جزيرتهم . فأخفقت الخطة . ثم لم يمض عام حتى كان الأميرال الانجليزي نفسه «نلسن» الذي لم تبق له المعارك غير عين واحدة وذراع واحدة ـ قد ساقه القدر إلى المعركة الأخيرة ، التي ذهبت نفسه فيها ولكنه مات منتصرًا .. فقد باغت في الحادي والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٠٥ الأسطولين الفرنسي والأسباني في عرض البحر عند الطرف الآخر جنوبي أسبانيا ، فانقض عليهما ، وأنزل بمراكبهما الدمار الذريع فلم تنج غير تسعة مراكب ، وبلغ عدد الهلكى ٤٥٠٠ بين قتيل وغريق .

ومنذ هذه اللحظة اقتنع نابليون ـ وأن يكن غير قانع ـ بأن يكون سيد القارة الأوروبية ، وصارت لانجلترا وحدها سيادة البحار .

فلا جرم ، يقع الاختيار هنا ، ونحن بسبيل الحديث عن البحر ، على الشعر الانجليزي في ذلك العصر.

والانجليز هم دائمًا أبناء البحر ، بطبيعة حياتهم في الجزيرة البريطانية التي

تكتنفها الأمواج من كل جانب . ومن ثمة ، فإن صورة البحر في كل أحواله ، مرتسمة دائمًا في نفوس الشعراء الانجليز . ولا يخدعنا عن ذلك أن من شعرائهم من لم يفرد للبحر قصائد خاصة به موقوفة عليه . ومن هؤلاء شكسبير كبيرهم أجمعين . ذلك أن صورة البحر مع هذا ماثلة في كل مسرحية من مسرحياته ، إن لم يكن في أحداثها ، ففي الكثير من الأماثيل التي يتمثل الشاعر الكبير بها ، وأكثر من ذلك في التشابيه والاستعارات الثرية السخية عند وصفه لأحوال النفس البشرية .

ولما كنا قد اخترنا بين البحار السبعة ، بحرًا بعينه ليكون موضوع ما أوردناه من الأساطير والتاريخ والشعر ، وهو البحر المتوسط ، الذي يتوسط القارات القديمة الثلاث، أوروبا وأفريقية وآسيا ، والذي إليه تنتسب أجمل وأخصب الحضارات ، فإننا لا نجد ما نسوقه للقراء ، خيرًا من هذه القصيدة عن «البحر»، لأشعر شعراء الرومانسية الانجليزية في القرن الماضي «اللورد بيرون» . وهي إحدى فرائد قصائده التي لا يكاد يخلو منها سفر من الأسفار التي تجمع صفوة المختار من الشعر الانجليزي في مختلف العصور . وقد كان نظمه لها مثل معظم أشعاره وهو بعيد عن انجلترا.

وكانت رحلة بيرون الأولى بعيدًا عن بلاده في سنة ١٨٠٩ ، على أثر حملة نقد شديدة وأن تكن غير ظالمة ، صبها النقاد على مجموعة لشعر صباه ، نشرها وهو طالب ـ لم يتجاوز التاسعة عشرة ـ في جامعة كامبردج ، بعنوان «ساعات الفراغ» سنة ١٨٠٧ ، وكانت أعنف هذه الحملات على صفحات مجلة اسكتلندية «مجلة أدنبره» . فلم يحجم الفتى ـ كما هو المتوقع ممن كان في مثل طبعه ومزاجه ـ من الرد على ما اعتبره إهانة ، بمنظومة طويلة عنوانها «الشعراء الانجليز والنقاد والاسكتلنديون » أظهرت للقراء المتعجبين المعجبين ، مكنون قدرته على الهجاء . وفي وسط ما أحدثته المنظومة من هرج ومرج في الأوساط الأدبية ، غادر الشاعر الشاب انجلترا في رحلة ركب فيها البحار، من البرتغال في

الغرب ثم متنقلاً بين البلاد الواقعة على سواحل البحر الأبيض المتوسط ، من أسبانيا التي كانت وقتئذ مسرحًا للقتال بين طغيان نابليون ممثلاً في جيش الاحتلال الفرنسي، وبين الثوار الأسبان يساعدهم بالإمدادات العسكرية الأسطول الانجليزي ، كما كانت مسرحًا ـ بطبيعة الحال ـ للمغامرات الغرامية من جانب اللورد الانجليزي النبيل والشاعر الشاب الجميل «بيرون» مع أكثر من حسناء من الحسناوات الإسبانيات ، ذوات العيون السود الساحرات. كذلك لم يفت الشاعر أن يشهد في «قادس» مصارعة الثيران التي هي من معالم البلاد الإسبانية وطبائع الإسبان .

وبعد هذه الزيارة لشبه الجزيرة الإيبرية ، رحل الشاعر إلى بلاد اليونان ، مهد الفن والجمال، حيث أخذ ينعي على أبنائها استسلامهم للحكم التركي ، في الوقت الذي جعل يعقد فيه مع بناتها علاقات الحب واحدة بعد الأخرى .

ويتجه الشاعر بعدها وقد أصبح مجاورًا لبلاد الإسلام ، إلى ألبانيا ، حيث دعاه أميرها «على باشا» والي «يانينا» ، فعاش بين المسلمين في تلك البلاد في شهر رمضان ، وشهد الحياة القاسية البطولية التي يحياها هؤلاء الرجال الشجعان في أوقات الحرب ، كما اشترك في أفراحهم الصاخبة بالغناء والرقص في أيام السلم.

وأخيرًا بلغ الشاعر إلى آخر المطاف في الشرق ، وهو «استامبول» ، فقضى شهرين كاملين في عاصمة الامبراطورية العثمانية وقاعدة الخلافة الإسلامية . حيث ذكر في الماضي يوم فتحها واقتحام المسلمين أسوارها ، كما تغني في الحاضر باستمتاعه بجمال البسفور ، وحلاوة ارتياده لشواطئه النزهة ، وابترادە في أمواجه المتراقصة المتلألئة .

وفي طريق العودة أقام الشاعر أيامًا في أثينا ، ومنها أبحر إلى جزيرة مالطة ثم استأنف سفر البحر، فكان قفوله إلى انجلترا في منتصف يوليه سنة ١٨١١ ، فتكون هذه الرحلة الأولى قد استغرقت عامين كاملين . وقد عاد منها يحمل معه

بعض الطرائف من الشرق، وما هو أهم من ذلك. نعني به الأوراق المخطوطة التي دون فيها ما أوحته إليه الرحلة من أشعار في وصفها وكانت المخطوطة بعنوان «رحلة تشايلد هارولد Child Harold Pilgrimage ».

وقد عرضت هذه الأشعار على بعض الناشرين فرفضها، فعرضت على غيره فتولى أمرها. وفي أوائل سنة ١٨١٢ خرج الكتاب «رحلة تشايلد هارولد: النشيد الأول والثاني» إلى القراء، فتخاطفوه رجالاً ونساء حتى نفد على الفور. وفي ذلك قال الشاعر كلمته المشهورة:

«استيقظت في البكور من صباح ذات يوم، فإذا بي رجل مشهور».

وهكذا اجتمع في شخص بيرون إلى شبابه وجماله ولقبه، الميزة الوحيدة الباقية، وهي الشهرة العالية، فصار زين المجتمعات، وأقبلت عليه النساء زرافات. وكان مستهترًا ومجاهرًا، فساءت سمعته، فنصح له الناصحون بالزواج، فاختار ذات حسب ونسب من غير الطراز الذي ألفه من الغانيات. فرفضته. وبعد فترة أعادوا عليها الكرة، فقبلته، وتم الزواج في ٢ يناير سنة ١٨١٥. ولكن، سرعان ما أفسد هذا الزواج في ٢ يناير سنة ١٨١٥. ولكن، سرعان ما أفسد هذا الزواج سابقة التردد، وما خلفته عند الشاعر الزوج من أثر مهين، بالإضافة إلى ما انتهى إلى الزوجة علمه من ارتباط زوجها بامرأة من صميم أسرته برباط أثيم. فكان أن غادرت اللادي بيرون - ومعها طفلتها التي لم تبلغ العام - بيت الزوجية إلى غير رجعة، واضطرت بيرون إلى قبول الانفصال في يناير عام ١٨١٦، ولاحقته بالشائعات يختلط فيها الصحيح بالافتراءات، فأوصدت في وجه الشاعر المجتمعات التي كان منذ حين أنبل حلية فيها وأجمل زين، فلم يبق أمامه إلا أن يهجر انجلترا إلى غير رجعة كالمنفى نافيًا نفسه، يتنقل في شبه الجزيرة الإيطالية نحو ثماني سنوات، ثم يسافر للمرة الثانية إلى اليونان للجهاد في سبيل تحريرها مضحيًا بماله وصحته، وأخيرًا بحياته حين أصابته

الحمى وسط المجاهدين في بلدة «ميسولوني Missologni» في ١٩ من أبريل سنة ١٨٢٤ ولم يجاوز السادسة والثلاثين من عمره»[١] .

وفي هذه الغربة الطويلة الأخيرة عن بلاده ، نظم بيرون معظم أشعاره وأعظمها من تمثيليات وقصص شرقي وغير شرقي . وقد كان أول هذا الإنتاج» النشيدين اللذين أضافهما إلى «رحلة تشايلد هارولد» ، وهما النشيد الثالث سنة ١٨١٦ والرابع سنة ١٨١٨ ، ويمتاز هذان النشيدان الأخيران ـ في وصفهما إيطاليا خاصة ـ بفرط ما يداخل الشعر الوصفي ويمتزج به من انفعال صاحبه وفي ختام النشيد الأخير من تلك الرحلة كلها ، هذه القصيدة العصماء : قصيدة «أيها البحر» التي يقول فيها:

أيها البحر

امض في تدفعك كما تشاء

أيها البحر الداكن الزرقة ، العميق الجيَّاش .

إمض في تدفعك !

عبثًا تجوب أرجاءك آلاف الأساطيل

فإنها لن تترك بعدها أثرًا في العباب .

إن الإنسان الذي يغشى وجه الأرض بالخراب .

يقف سلطانه عند ساحلك لا يتعداه .

أما الذي فوقَ رحابك اللجية من حطام ، فأنت وحدك حاطمه فإن يكن للإنسان فيك أي ظل للدمار ، فهو نفسه ذلك الدمار حين يسقط في لحظة فيك كما تسقط قطرة المطر .

(١) المرجع السابق.

فيغرق في أعماقك ، وقد تصاعدت منه على سطحك الفقاعات من آخر تأوهاته وشهقاته.

وهنا يثوي بلا صلاة ولا جنازة .

بلا قبر ، ولا نعش ، منسيًا من الجميع .

* * *

أجل . لم تكن قط مسالك تيارك موطئ أقدام ذلك الإنسان الغر .

ولم تكن غنيمة مستباحة له حقول أمواجك الخضر .

إنك لتثور به ، فتنفضه عنك .

مزدريًا كلَّ ما عنده من قوة على الشر للإفساد في الأرض ،

قاذفًا به من أثباج صدرك إلى عنان السماء .

ثم تتلقاه لتلهو به الأمواج وهو يرتعد في زمهرير الماء .

عاويًا كالكلاب .

وأخيرًا ترسل به إلى أربابه ، وهو لا يزال يتشبث من الأمل

بأوهى الأسباب .

في خليج أو ميناء قريب .

ولكنك تدفعه بيد عسراء آخر الأمر .

إلى البر ، حيث تدعه هناك يرقد بسلام .

جثة هامدة .

* * *

إن الأساطيل التي تقصف بالصواعق

أسوار المدن الحصينة المبنية من الصخر .

لتزلزل من الأمم كيانها وتزعزع إيمانها .

وتلقى الرعب في قلوب الملوك وهم في حواضر ملكهم ، هذه القلاع المشيدة من خشب السنديان، السابحة كالحيتان العظام التي بلغت من متانة أضلاعها الضخام .

أن أدخلت الزهو على ربها المخلوق من طين .

فدعا نفسه سيد البحر وفيصل الحرب ،

هذه الأساطيل كلها ، ما هي عندك يا بحر .

إلا مجرد ألاعيب في يديك .

تذوب كما تذوب رقائق الجليد في موجك المزبد .

الذي كسر من كبرياء «الأرمادا» .

وحط من قدر غنائم «الطرف الأغر» .

هذه سواحلك ، هل كانت إلا دولاً كبارًا فحالت وتغيرت ، وأنت لا تزال على حالك يا بحر !

فماذا أصبحت اليوم آشور ويونان وروما وقرطاجة ؟

لقد عاشت أمواجك في سواحلها وهي بلاد حرة .

ثم بعد ذلك وهي رازحة تحت نير الطغاة قد أذعنت سواحلها للغريب .

وأصبحت شعوبها من البرابرة أو العبيد ،

ثم كان من انحلالها أن تحولت تلك المسالك المزدهرة .

إلى صحاري وبيد .

أما أنت أيها البحر ، فحاشاك ،

إنك لا سبيل للتغير إليك ، إلا ما يكون من لعب موجك

المتقلب الجياش .

إن الزمن الذي لا يترك جبينًا حتى يغضنه .

لم يجد سبيلاً إلى تغضين جبينك اللازوردي .

فأنت اليوم أنت ، كأول ما طلع على عبابك فجر الخليقة .

* * *

أيها البحر ، أيتها المرأة الرائعة البهية .

التي تتراءى فيها قدرة الذات العلية .

في كل زمان : ساكنًا كنت أو مهتاجًا .

في النسمة الساجية أو الصرصر العاتية .

وفي كل مكان : عند القطب حيث تتجمد في صورة الجليد ،

وفي المنطقة الاستوائية حيث تغلي وتفور في الحر الشديد .

أنت رحيبٌ بلا حد ، ممتد بلا نهاية ، ذو جلالة

صورة للأبدية ، وعرش للقدرة العليا الخفية .

البحر في الشعر الفرنسي:

كان القرن التاسع عشر من أخصب العصور في فنون الأدب ، يفضل الدعوة إلى الحرية التي رفعت لواءها الحركة الرومانسية ، بغض النظر عما ذهب إليه بعض الغلاة الرومانسيين في بعض الأحايين، من افتيات على حد المنطق والعقل ، ومن فقدان للاتزان ومجافاة للتناسق والانسجام ، وبالجملة فرط الاندفاع مع الانفعال والافتتان بالخيال والولع بالفوضى . وقد اخترنا لأشهر الشعراء الانجليز الرومانسيين وهو «اللورد بيرون» قصيدة في البحر ، جاءت في ختام «رحلة تشايلد هارولد» التي طار في الدنيا صداها فأصبح صاحبها مشهورًا بين عشية وضحاها ، فمن ذا ترانا مختارين له بعده ، في القرن نفسه ، من الشعراء الفرنسيين ؟ [1]

إن أول اسم يتبادر إلى الأذهان ، هو فكتور هيجو «١٨٠٢ ـ ١٨٨١» الذي استولى وهو شاب على زعامة الأدب الرومانسي في فرنسا ، بما نظمه في الشعر من دواوين الواحد بعد الآخر، وبما حققه للرومانسية على خشبة المسرح عنوة واقتدارًا، وما شغل به جمهور المتأدبين طويلاً من رواياته الطوال مثل «البؤساء» و «أحدب نوتردام» وغيرهما . ولقد ظل عاكفًا على الكتابة لا يكف عنها حتى مات وقد نيف على الثمانين ، فلا غرو أن يكون أوفر أهل العصر انتاجًا، وأضخمهم تصانيف. ولكن اختيار هيجو اليوم هنا يدعو إلى التردد والحيرة ، فإن الإجماع على اختياره ممثلاً للشعر الفرنسي يتناقص يومًا بعد يوم ، مع الشهادة له بأنه متفوق في القدرة على التدفق في القول شعرًا كان أو نثرًا، وذلك لكثرة القائلين بأن التفكير عنده قليل ، ومن أوائل من لم يقعوا تحت سحر بيانه ، الفيلسوف الألماني نيتشه ، الذي يشبه ذلك البيان بمنارة ذات شعاع وهاج على بحر عجاج متلاطم الأمواج من الجعجعة واللحن المعاد . ولما كانت هذه

(١) عبد الرحمن صدقي : المرجع السابق.

الشهادة من الأجنبي ولو كان فيلسوفًا لا يصح الأخذ بها ، فإننا نستشهد بعلم من عمالقة الكتاب الفرنسيين المعاصرين، فقد أثير في مجلس يجمع أدباء من مختلف الأجناس ، أن لكل أمة شاعرًا يمثلها مثل شكسبير عند الانجليز ، ودانتي عند الطليان ، وما إلى ذلك .. وسئل «أندريه جيد » وكان حاضرًا: من ذا تراه يقابل هذين في تمثيل الأدب الفرنسي ؟ ... فظل الأديب الفرنسي الكبير في حيرة واجمًا ، ثم قال أخيرًا : «لسوء الحظ . فيكتور هيجو » . ومعنى ذلك أن «هيجو» ربما كان أشيع اسم بين أسماء الأدباء الفرنسيين على وجه العموم ولكن الذي يؤسف له ، هو أنه ليس أعمق أدباء فرنسا غورًا ، ولا أدقهم حسًا ولا أخصهم شخصية . ولعل هذا لم يغب عن فكتور هيجو نفسه ، فقد قال عن شاعر بعينه من شعراء عصره : «لقد بعث في الشعر الفرنسي انتفاضة جديدة » .

هذا الشاعر هو «شارل بودلير» الذي يعتبر اليوم في الشعر نسيج وحده . كما يعتبر رائدًا لأكثر من مدرسة ، ومن ذلك المدرسة الرمزية .

فقد كان بودلير أول من أعلن عن المذهب الرمزي ، في قصيدته المشهورة التي سماها «التجاوب Correspondances » وفي مطلعها يقول :

الطبيعة معبد تكتنفه أسرار الدين .

يجوس الإنسان منه في غابات من الرموز .

تراعيه بنظرات أليفة وتحدق فيه .

وكما تمتزج الأصداء المديدة في الآفاق البعيدة .

في وحدة غامضة عميقة ،

لها رحابة النهار وشمول الظلام .

كذلك في معبد الطبيعة .

تتجاوب العطور والألوان والأنغام .

فالشاعر هنا عميق الاقتناع، بأن ليس في الكون كله شيء من الأشياء، جليلها وضئيلها على السواء، هو حقيقة في ذاته منقطعة عن سواها، وهذا القول لا يصدق على المشهودات وحدها، بل ينسحب على كل ما يقع تحت حواسنا، وأن يكن أدنى اهتزازة في الفضاء. وذلك أن كل موجود، فهو موجود لكي يدل على معنى، على فكرة، أنه رمز، أي صورة تجريدية جديرة بأن تهدي الإنسان إلى إدراك ما تدل عليه من معنى. ومن حيث أن الرمز صورة تجريدية، فهو يبدي المعنى ويواريه معًا، أي يعرضه في غير صورته المعينة المحدودة، وهذا الخروج بالأشياء عن التعيين والتحديد يؤدي إلى وحدة الأشياء في إدراكنا، إلى الوحدة الوجودية في عالم المعاني، أي إلى التوحيد.

وتحت شعار هذه الرمزية التي بها تتجرد الأشياء وتمتد، كاللانهائي بغير حد، حتى يتحقق بينها اللقاء في أقصى نشوة الوجد، نقدم للقراء من ديوان «أزهار الشر» الذي كان صاحبه بودلير حقيقًا بأن يسميه «أزهار الشر والخير» قصيدة «الرجل والبحر»: [١]

الرجل والبحر

أيها الإنسان الحر

أبدًا سيظل حبيبًا إلى قلبك البحر.

إن البحر مرآتك.

وإنك لتشهد روحَك في أمواج لُجَّته المتدافعة الجائشة إن روحَك هاويةٌ كالبحر، وليست أقل مرارة منه.

***

إنه ليطيب لك أن تغوص في الغور إلى تَوْءَمِك

(١) المرجع السابق.

فتحتضنه بعينيك وذراعيك .

وأحيانا يلهو قلبك عن خَفْقِه وشدة وجيبه .

بالاستماع إلى هدير البحر المَهتاج ومستوحش نحيبه .

***

كلاكما غامض «كتُوم» لما ينطوي عليه من أسرار

فأنت أيها الإنسان ، لم يستطع أحد أن يَسْبُرَ أغوارك

وأنت أيها البحر ، لم يطلع كائن ما كان على خفايا كنوزك

لفرط غيرتكما أنتما الاثنان ، على كتمان سركما الرهيب

***

ومع ذلك ، فقد غَبَرت بكما قرون لا تحصى

وأنتما تتصارعان ، وليس فيكما من راحمٍ ولا ندمان

لفرط حبكما للتناحر ولقاء الردى .

أيها المصارِعان الأبديَّان ، أيها الأخوان اللدودان .

***

أدب البحر في ألف ليلة وليلة

إذا كانت كتب التراث العربي القديم قد حفلت بالعديد من الحكايات والنوادر حول أدب البحر، فإن ألف ليلة وليلة كان لها نصيب الأسد في ذلك ، وكما يرى أحمد محمد عطية فإن حكايات السندباد ورحلاته هي أعظم القصص في أدب البحر عند العرب وأكثرها تعبيرًا عن عالم البحر، أو كما يقول الدكتور حسين فوزي أنها «القصة البحرية الكبرى في الأدب العربي ، وهي فوق هذا واحدة من أهم قصص البحار في آداب العالم .. » وأنها «قصة جغرافية تلخص المعارف البحرية عند العرب في القرون الوسطى» لأن «البحر في قصة السندباد هو الغاية التي تنتهي إليها القصة . البحر هو ممثلها الأول (البروتاجونست) أو أنها حوار بين اثنين البحر والسندباد . حوار يتطور من الهدوء إلى العنف ، ومن تبادل الود إلى تداول اللكمات ، والمناجزة والصراع »[(١)] ، ويرى المستشرق «أغناطيوس يوليانوفتش كراتشكوفسكي» أنها تتصل بالقصص البحرية السابقة للتجار العرب، وأنها عرفت أولا ككتاب عربى مستقل ثم أضيفت إلى قصص ألف ليلة وليلة ، وأنها ليست خرافة. «إذ استبان من أبحاث رينودي خويه وفيران أن أسفار السندباد انبعثت في نفس الوسط الذي نشأت فيه قصص التاجر سليمان في نفس مواضعها أيضًا أي سيراف والبصرة وبغداد ، بل وفي نفس العصر تقريبًا أي حوالي عام ٩٠٠ ميلادية ، ويرجع كازانوفا تاريخها بالتحديد إلى عصر الرشيد ، أما مسرح حوادثها فهو الهند وأرخبيل الملايو ، وقد أمكن تحديد بعض حوادثها بالكثير من الدقة» . ويعرض كراتشكوفسكي لتأثير السندباد في سير القديسين في أوائل العصور الوسطى وفي أساطير المسيحية

(١) الدكتور حسين فوزي ، حديث السندباد.

الأوربية ، ويقول إن «أسطورة القديس براندان التي ترجع إلى أوائل القرن الحادي عشر مدينة بالكثير في بعض مواضعها لهذه القصص » وهذا كله يؤكد عروبة قصة السندباد ورحلاته وتمثيلها للثقافة العربية ولأدب البحر العربي في زمانها .

بدأت شهر زاد تروي حكاية السندباد للملك شهريار في نهاية الليلة الثامنة والعشرين بعد الخمسمائة . واستمرت الحكاية عبر الليالي التالية حتى الليلة السابعة والخمسين بعد المائة الخامسة. وهذا التقطيع في الحكايات عبر الليالي هو الأداء الفني المميز في ألف ليلة وليلة للتشويق وشد المتلقي إلى نهاية الحكاية . وحددت شهر زاد زمن الحكاية بأنها وقعت في عهد الخليفة هارون الرشيد. واستهلتها بحكاية تمهيدية عن لقاء السندباد «الحمال» ، الذي يعمل حمالا على البر، بالسندباد البحري في قصرة الفاخر بعد استماع الأخير لحديث الأول عن حكمة الله في توزيع الأرزاق ومقارنته بين فقره وعمله الشاق وبين قصر السندباد البحري الفخم وبساتينه المورقة المثمرة وآيات الثراء والوفرة لديه . وفي هذه الحكاية نطالع الجو العربي والأخلاق الإسلامية والطقوس الإسلامية أيضًا، كالتسليم بالقضاء والقدر وتقسيم الأرزاق وتكرار ذكر اسم الله تعالى، وغير ذلك من العادات العربية والجو العربي [1] .

وتمهد هذه الحكاية لحكايات أسفار السندباد البحري ، الذي يقرب السندباد الحمال من مجلسه ويكرمه ويخبره بأنه جمع ماله وأقام قصره بعد عناء وتعب في رحلاته السبع الشاقة ، ويسردها على مسامعه . وهكذا تتفرع الحكاية الأصلية إلى سبع حكايات فرعية ، تحمل كل منها حكاية رحلة من رحلات السندباد البحري ، موزعة على عدة ليالٍ ، ثم تختتم كل حكاية من الحكايات السبع بالعودة إلى الحكاية الأصلية وهو الشكل المتبع في حكايات ألف ليلة

(١) أحمد محمد عطية : أدب البحر.

وليلة. وهكذا تجمع الحكاية بين الزمنين الماضي والحاضر، وتمزج بينهما وتستخدم أسلوبًا فنيًا متقدمًا أقرب إلى الرجوع للخلف (الفلاش باك) المستخدم في القصة الحديثة.

جمعت حكاية الرحلة الأولى للسندباد البحري بين المغزى الفكرى، وبين أدب البحر. بين دعوة السندباد البحري إلى الكفاح والكد والمغامرة في الحياة، وبين التمرس بأسفار البحر وتجارته وأنوائه ومغامراته. ويذكر السندباد البحري بعض أبيات الشعر العربي بدون ذكر لقائلها تأكيدًا لقوله للسندباد الحمال بأن الأرزاق توزع حسب الاجتهاد والكد، ونكتفي منها بهذين البيتين:

بقدر الكد تكتسب المعالي ... ومن طلب العلا سهر الليالي

بغوص البحر من طلب اللآلئ ... ويحظى بالسيادة والنوال

وتقدم لنا رحلات السندباد البحرى كنوزا من القصص المشوقة المثيرة التي تجمع بين الطرافة والخيال والحكمة، من خلال تلك الرحلات البحرية للسندباد الذي لجأ إلى ذلك للبحث عن الرزق الوفير أو بهدف الحصول على اللآلئ في أعماق البحار.

وتنتهي الرحلات السندباد السبع بنجاته وتوبته عن أسفاره البحرية بعد مغامرة مع الشياطين ثم زواجه من ابنة شيخ التجار والذي يجمع أموالها بأمواله، ويستقر أخيرًا في بغداد، ويهب السندباد الحمال بعض أكياس الذهب بعد أن أستمع إلى حكايات رحلاته البحرية المثيرة هذا، وقد أصبحت رحلات السندباد البحري مصدرًا للكثير من الأعمال الإبداعية والأفلام السينمائية في الشرق والغرب.

مراكب البحر في الشعر العربي

هناك رابطة وثيقة بين البحر وبين السفن ومراكبه ، فالقرآن الكريم يقرن بينهما في أكثر من موضع كقوله تعالى في سورة إبراهيم : «وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره» وقد حفل الشعر العربي قديمه وحديثه بصور شعرية متنوعة لمراكب البحر التي تمخر عبابه ، وتسير في ربوعه ، يفصلها لنا الشاعر محمد عبد الغني حسن بقوله [1] :

كانت الثغور والموانئ البحرية المتناثرة على سواحل شبه جزيرة العرب مرابط ومواقف للسفن والمراكب البحرية التي كانت تقع عليها عيون العرب الوافدين على شطآن المياه . ولا شك أن بعض تلك العيون الشواعر قد وصفت تلك السفن والمراكب وهي رابضة على الثغور ، أو وهي تشق حباب الماء بصدورها . كما أن بعض هؤلاء الشعراء قد استعملوا تلك السفن في تشبيهاتهم وضروب بيانهم ، فشبهوها ، وشبهوا بها .

ومن أقدم ما وصل إلينا من ذلك ما استعمله الشاعر الجاهلي «طرفة بن العبد» في معلقته الدالية من تشبيه مراكب النساء على ظهور الإبل - وهي المسماة بالحدوج - بالسفن العدولية الضخمة التي يملكها الملاح «ابن يامن» من أهل هجر . ولا بأس هنا من إيراد شعر طرفة حيث يقول:

كأن حدوج المالكية غدوة
خلايا سفين بالنواصف من دد

ويصادفنا شاعر جاهلي آخر هو «بشر بن أبي خازم الأسدي» يصف السفينة ويصف قطعها للخليج ، فيستحضر راكبها ما قدمه من ذنوب لهول ما يلاقيه ، فيقول :

---

(١) هلال ، أغسطس ١٩٧٢ ، مراكب البحر في الشعر العربي / محمد عبد الغني حسن .

معبــــــدة الـــــسقائف ذات دسر
مـــــــضبرة جوانبهـــــــا ، رداح
إذا ركبــــت بــــصاحبها خليجًـــا
تـــذكر مـــا لديـــه مـــن جنـــاح
يمـــر المـــوج تحـــت مـــشجرات
يلـــين المـــاء بالخـــشب الـــصحاح
ونحـــن عـــلى جوانبهـــا قعـــود
نغـــض الطـــرف كالإبـــل القـــماح [1]

الشعراء في رحلاتهم البحرية:

وما سكت الشعراء في العصور الإسلامية عن متابعة السفن والمراكب ، ووصف أعيانها ، وحركاتها على أثبج المياه ، ووصف الحياة فوقها لمن عانوا هذه التجربة بأنفسهم ، بل وصف بعض الشعراء هبوب الرياح والعواصف على السفن التي ركبوها في أسفارهم ورحلاتهم البحرية. وتصادفنا «لابن الرومي» أبيات دقيقة في وصف السفن يقول فيها :

رحلنـــا مـــن بنـــات البحـــر جونـــا
تهـــادي بـــين شـــبان وشـــيب
نـــواج في البطـــائح ملقيـــات
حيازمهـــا عـــلى الهـــول المهيـــب
مزممـــة الأواخـــر ، ســـائرات

(١) معبدة السقائف أي موطأة الألواح ، والدسر ما تشد به الألواح من ألياف ومسامير ، والمضبرة المحكمة، والرداح ، الواسعة ، والإبل القماح هي التي ترفع رءوسها عند الحوض ولا تشرب .

على أصلابها شبه الزبيب!
تكاد إذا الرياح تعاورتها
تفوت وفودها عند الهبوب
مسخرة تجوب دجي الليالي
بملء الليل كالفرس الذنوب
أبت أعجازها بمقدمات
لها إلا مطاوعة المجيب
غنين عن القوادم والهوادي
وعن أسراجهن لدى الركوب
حططن «بواسط» من بعد سبع
وقد مال الشروق إلى الغروب

وقد وقف ابن الرومي وقفة ثانية على سفينة ركبها إلى ممدوحه أبي سهل بن نوبخت، فقال يصفها :

إليك ركبنا بطن جوفاء جونة
تخايل في درع من القار فاحم
تواهق أشباها لها ونظائرًا
ملمعة بالودع ، سفع الملاطم(٢٨)

وللشاعر «مسلم بن الوليد» المعروف بصريع الغواني والمتوفي سنة ٢٠٨هـ قصيدة جيدة متينة السبك في وصف سفينة ضرب الماء صدرها فجعل فيها

(٢٨) تواهق أي تجاري في السير . والودع خرز أبيض مجوف . وسفع الملاطم أي سود الخدود. والقار هو الزفت الأسود ، والجونة أي السوداء .

خطوطًا ورقمًا أسود . وهي إذا أقبلت تفزع الرائي بمقعد ربانها الذي يشبه رأس ثور أسود . وإذا أدبرت أعجبت الناظر إليها وإلى صغى مجاديفها كأنها جناحا نسر ، وفيها يقول :[1]

لطمت بخديها الحباب فاصبحت
موقفة الدايات ، مرقومة النحر
إذا أقبلت راعت بقنة قرهب
وأن أدبرت راقت بقادمتي نسر
تجافي بها النوتي حتى كأنما
يسير من الإشفاق في جبل وعر
أطلت بمجدافين يعتورانها
وقومها كبح اللجام من الدبر
فحامت قليلاً ، ثم مرت كأنها
عقاب تدلت من هواء على وكر

ولم يحجم الشاعر «البحتري» عن وصف السفينة ، فقد تصادف في عصره أن بني الخليفة المتوكل سفينة اسمها (الزو) ، وكان من حظ الشاعر أن ركبها على متن نهر القاطول الذي حفره الخليفة هارون الرشيد .. فقال يصفها :

غنينا على قصر يسير بفتية
قعود على أرجائه وقيام
تظل البزاة البيض تخطف حولنا
جآجئ طير في السماء سوامي

(١) المرجع السابق.

وكذلك فعل الشاعر «مهيار الديلمي» حين ركب متن سفينة، فعقد موازنة بينها وبين الإبل، فالسفينة وهي تشق الماء تبدو وكأنها تعبه عبا، سواء أكان صافيًا أم كدرًا، أما الإبل فإنها تعاف الماء إذا لم تكن بها حاجة إليه:

ململمـــة .. لهـــا ظهـــر مـــصون
وبطـــن تحـــت راكبهـــا مبـــاح
تعـــب المـــاء بـــين قـــذ وصـــاف
إذا مـــا عافـــت الإبـــل القـــماح

وقد شبه الشاعر «السري الرفاء» السفينة تارة بالزنجية لسواد لونها، وطورًا بالحية السوداء التي تنساب في الرمل فتترك فيه أثرًا:

كـــل زنجيـــة كـــأن ســـواد الليـــل
أهـــدى لهـــا ســـواد الإهـــاب
تـــسحب الـــذيل في المـــسير فتختـــال
وطـــورا تمـــر مـــر الـــسحاب
وتـــشق العبـــاب كالحيـــة الـــسوداء
أبقـــت في الرمـــل أثـــر انـــسياب

ثم عاد مرة أخرى يصف جماعة من السفن، فيشبهها بالقلاع وهي تمد على الأمواج باعًا:

ركائـــب تحـــدوها الـــشمال كأنهـــا
قـــلاع إذا أوفـــت عليهـــا قلوعهـــا
تمـــادى بهـــا الـــسير الحثيـــث، فلـــم تجـــل
لبعـــد المـــدى أغراضـــها ونـــسوعها

تمـــد عـــلى الأمـــواج باعًـــا ، كأنـــه
يعانقهـــــا في مـــــده ويبوعهـــــا

وإذا كان الشاعر «بشار بن برد» لم تفته ـ على فقد بصره ـ صفة الأشياء بدقة فائقة ، فأن صفة السفينة لم تفته حين شبهها بعذراء لا تجري بلحم ولا دم :

وعـــذراء لا تجـــري بلحـــم ولا دم
قليلـــة شـــكوى الأيـــن ملحمـــة الـــدبر
تلاعـــب تيـــار البحـــور .. وربـــما
رأيـت نفـوس القـوم مـن جريهـا تجـري!

وقد دخل الشاعر «أبو نواس» ميدان وصف السفن ومراكب البحر بما أتيح للخليفة «الأمين» العباسي من بناء حراقات ـ أو سفن ـ كانت تحمل هذه الأسماء: الليث ، والعقاب ، والدلفين ، فقال ، شاعرنا يصف السفينة المسماة بالليث :

ســـــخر الله للأمـــــين مطايـــــا
لم تـــسخر لـــصاحب المحـــراب [1]
فـــإذا مـــا ركابـــه سرن بـــرا
ســـار في المـــاء راكبًـــا ليـــث غـــاب
أســـدًا باســـطًا ذراعيـــه يغـــدو
أهـــرت الـــشدق ، كـــالح الأنيـــاب
لا يعانيـــه باللجـــام ولا الـــســـ
ـــوط ولا غمـــز رجلـــه في الركـــاب

(١) صاحب المحراب هو سليمان بن داود ، والأهرت الشدق هو واسعه .

الأسطول العربي الإسلامي:

ولم يقف شعراء العرب عند وصف سفن الركوب أو سفن الملاحة والنزهة فوق المياه. فقد رأينا شاعرًا مثل «ابن هانئ الأندلسي» يرى قوة الأسطول العربي الإسلامي الذي بناه الخليفة المعز لدين الله الفاطمي، ويرى - بحق - أن هذا الأسطول قد بات خطرًا على دولة الروم فباتوا يتضرعون إلى الخليفة العربي المسلم طلبًا للصلح . فمدح شاعرنا الخليفة المعز لدين الله بقصيدة رائعة محكمة النسج قوية الديباجة، وصف فيها قطع الأسطول العربي الإسلامي وصفًا لا يكاد يدانيه وصف للسفن البحرية الحربية في الشعر العربي[1] .

وما أبدع شاعرية ابن هانئ، وما أدق تصويره للسفن حيث يقول :

مواخر في طامي العباب، كأنها
لعزمك بأس، أو لكفك جود
أنافت بها أعلامها، وسما لها
بناء على غير العراء مشيد
من الراسيات الشم، لولا انتقالها
فمنها قنان شمخ، وريود
من الطير ألا أنهن جوارح
فليس لها إلا النفوس مصيد

وقد بلغت الأبيات الخاصة بوصف سفن أسطول المعز لدين الله ثمانية وعشرين بيتًا، من مجموع القصيدة التي تبلغ ستة وتسعين بيتًا .

ولم يقتصر ابن هانئ الأندلسي على هذه القصيدة الرائعة في وصف سفن الأسطول العربي ببحر الروم، فله مقطوعة أخرى يقول فيها :

---

١) المرجع السابق.

معطفـــة الأعنــاق نحـــو متونهــا
كـما نبهـت أيـدي الحـواة الأفاعيـا !
إذا مـــا وردن المـــاء شـــوقًا لــبرده
صـدرن ولم يـشربن عزفًـا صـواديا ...
إذا أعملـــوا فيهـــا المجــاديف سرعـــة
تـرى عقربًـا منهـا عـلى المـاء ماشـيًا !

ولم يكـن الـشاعر ابـن هـانئ الأندلـسي أسبق شـعراء الـشمال الأفريقـي إلى وصف أسطول الدولة العربيـة الإسلامية ، فقـد سبقه بقليـل الـشاعر «عـلى بـن محمد الأيادي» التونسي مـن شـعراء القـرن الرابـع أيـضًا ، حـين وصـف أسـطولاً للخليفة الإمام محمد القائم خليفة العبيديين ـ أو الفاطميين ـ فقال وأبدع :

أعجـــب لأســـطول الأمـــام محمـــد
ولحـــسنه وزمانـــه المـــستغرب
لبـــست بـــه الأمـــواج أحـــسن منظـــر
يبـــدو لعـــين النـــاظر المـــستعجب
شرعـــوا جوانبهـــا مجـــادف أتعبـــت
شـــادي الريـــاح لهـــا ، ولمـــا تتعـــب
والبحـــر يجمـــع بينهـــا ... فكأنـــه
ليـــل يقـــرب عقربًـــا مـــن عقـــرب
وعـــلى جوانبهـــا أســـود خلافـــة
تختـــال في عـــدد الـــسلاح المـــذهب
وكـــأنما البحـــر اســـتعار بـــزيهم

ثـوب الجـمال مـن الربيـع المعجـب

وفيها يقول في وصف الشراع :

ولهـا جنـاح يـستعار بطيرهـا

طـوع الريـاح وراحـة المتطـرب

يعلـو بهـا حـدب العبـاب مطـاره

في كـل لـج زاخـر مغلولـب

يـسمو بـآخر ذي الهـواء منـصب

عريـان منـسرح الذؤابـة ، شـوذب

يتنـزل المـلاح منـه ذؤابـة

لـو رام يركبهـا القطـا لم يركـب !

وقصيدة الأيادي طويلة جيدة . وقد وصفها صاحب «نفح الطيب» بالقصيدة الفريدة ، ثم عاد فنعتها بأنها (من غرر القصائد) ، وأورد كثيرًا من أبياتها كما أورد المرحوم العلامة الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب أكثر أبياتها في (منتخباته من الأدب التونسي) المطبوع بالمطبعة الأميرية في القاهرة سنة ١٩٤٤ .

اقتدار الصانع المتانق :

والحق أن شعراء الشمال الأفريقي والمغرب والأندلس هم أكثر شعراء العرب والإسلام وصفًا للأساطيل ، فعلى حين اتجه شعراء المشرق إلى وصف السفن العادية ومراكب البحر ، نرى شعراء المغرب والأندلس يوجهون اهتمامهم إلى وصف الأساطيل العربية التي ظلت تمخر عباب بحر الروم ، أو البحر المتوسط ـ المسمى خطأ بالبحر الأبيض ـ زمانًا طويلاً ، ومن هؤلاء الشعراء «عبد الجليل بن وهبون » ـ كما ذكره صاحب نفح الطيب ـ واسمه كما جاء في «قلائد العقيان » أبو محمد عبد الجليل بن وهبون المرسي . فهو من مدينة

مرسية بالأندلس ، وقد كان من شعراء المعتمد بن عباد أولاً ، والمعتصم بن صمادح - أمير المرية - آخرًا . ولم يذكر لنا الفتح بن خاقان في قلائده تاريخ وفاته ، وإن كان معروفًا أنه عاش في أخريات القرن الخامس الهجري . وقد جعل ابن وهبون السفن في الأسطول الأندلسي لابسة - بسواد لونها - من الثياب ملاءة سوداء ، وجعلها تزأر زئير الأسد وهي صامتة ، وشبه مجاديفها بكبار الثعابين التي تكرع من غدير مملوء بالمياه :

من كل لابسة الثياب ملاءة
حسب اقتدار الصانع المتأنق
زأرت زئير الأسد وهي صوامت
وزحفن زحف مواكب في مأزق
ومجادف تحكي أراقم ربوة
نزلت لتكرع من غدير متأق [1]

ومن شعراء الأندلس الذين وصفوا الأساطيل البحرية الشاعر «أبو عبد الله بن محمد الحداد»، وقد ترجم له ابن بسام في «الذخيرة» وهو من شعراء القرن الخامس الهجري ، وقد أورد له صاحب «نفح الطيب» أبياتًا في وصف أسطول المعتصم بن صمادح ، وأعجب فيها صاحب النفح بتشبيه الشاعر مجاديف السفن بأهداب الجفون .. والحق أن أبيات ابن الحداد لا ترقى إلى مستوى جيد . وإن كان قد أفاد من بعض تشبيهاتها الشاعر الأندلسي «ابن أبي خالد اللخمي الأشبيلي»، المتوفي سنة ٦١٢هـ ، حيث قال في وصف السفن ، وشبه مجاديفها بالحيات التي تمد رءوسها على وجل في الماء لكي تروى ظمأها :

ويا للجوار المنشآت وحسنها

(١) الغدير المتأق = الملآن بالماء . وقد أتأق الوعاء أي ملأه .

تطفو لما شب أهل النار تطفئه
تطيرها الريح غربانا بأجنحة الحما
تم البيض للإشراك ترزؤه
من كل أدهم لا يلفي به جرب
فما لراكبه بالقار يهنؤه ؟
يدعي غرابًا ، وللفتخاء سرعته
وهو ابن ماء وللشاهين جؤجؤه [1]

وتمضي الأيام وتمر على أهل المشرق والمغرب ، فلا تصادفنا قصيدة جيدة في وصف أسطول عربي إلا ما كان من قصيدة الشاعر الأديب المصري «المهذب الأسواني» التي مدح بها الصالح بن رزيك الوزير المصري الفاطمي ، وفيها يصف الأسطول المصري وانتصاراته على الروم في بحر الروم ، وقد روي العماد الاصفهاني في الخريدة بعض الأبيات في وصف الأسطول حيث قال الشاعر :

وكأن بحر الروم خلق وجهه
وطفت عليه منابت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما
لم يأت في حين من الأحيان
أحبب إليّ بها شواني أصبحت
من فتكها ولها العداة شوانى [2]

(١) يتعجب الشاعر من أن السفينة تطلى بالقار ، مع أن القار لا يطلى به إلا الحيوان الأجرب ! والفتخاء العقاب اللينة الجناحين ، والشاهين طائر من جنس الصقر ، والجؤجؤ صدر السفينة .

(٢) الشواني الأولى هي السفن ، والثانية أصلها شوانىء ، جمع شانىء أي كاره ومبغض .

طــوائر بــين المــاء والجــو عومًــا
إذا نــشرت في الجــو أجنحــة لهــا
رأيــت بــه روضًــا ونــورًا مكمــما
وإن لم تهجــه الــريح جــاء مــصافحًا
فمــدت لــه كفًّــا خــضيبًا ومعــصما
مجــاديف كالحيــات مــدت رءوســها
عــلى وجــل في المــاء كــي تــروى الظــما

وقد اشترك الشاعر «ابن خفاجة» الأندلسي المتوفي سنة ٥٣٣ هـ في وصف السفن، فذكر سواد جسمها وبياض شراعها، وارتفاع الموج حولها، وأحداق الخطر بركابها فقال :

وجاريــــة ركبــــت بهــــا ظلامًــــا
يطــير مــن الــصباح بهــا جنــاح
إذا المــــاء اطمــــأن ورق خــــصرًا
عــــلا مــــن موجــــه ردف رداح
وقــد فغــر الحــمام هنــاك فــاه
وأتلــع جيــده الأجــل المتــاح !

ولم يتخلف المؤرخ الأديب الشاعر الأندلسي «ابن الأبار القضاعي» من رجال القرن السابع الهجري، عن وصف السفن شعرًا. فشبه جسم السفينة الأسود بالغراب، وشبه قلاعها البيض بأجنحة الحمام، حيث قال في مقطوعة رواها صاحب النفح :

يــا حبــذا مــن بنــات المــاء ســابحة

شــــبهن بالغربـــان في ألوانهـــا
وفعلـــن فعـــل كـــواسر العقبـــان

أمجاد البحرية المصرية :

ولقد كانت البحرية المصرية في الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادي جديرة بشاعر يسجل أمجادها ، ويدون مفاخرها . ويصور تقاليدها . ولكنا نظل نبحث عن ذلك الشاعر فلا نجده .. حتى نلتقي بالشاعر الناثر «عبد الله فكري باشا» وزير المعارف في الثورة العرابية ، فنراه يصور لنا البوارج الضخمة في الأسطول المصري في شعر رصين متين السبك فيقول :

بـــوارج أمثـــال الـــبروج تقاذفـــت
بحمـــر كأمثـــال الـــصواعق رجـــم
بـــواخر ترمـــي الـــشاهقات بمثلهـــا
سراعـــا كـــأسراب الحـــمام المحـــوم
دوارع يلقـــين المخـــاوف آمنًـــا
بهـــا سربهـــا مـــن كـــل هـــول ومـــرغم
مـــن الـــلاء لا يـــتركن حـــصنًا محـــصنًا
ولا أنـــف بـــرج شـــامخ غـــير مـــرغم
يطـــارحن أسراب المـــدافع في الـــوغى
بكـــل رجـــيح وزنـــه غـــير أخـــرم

والحق أننا كنا ننتظر من الشاعر «محمود سامي البارودي » وصفا للأساطيل البحرية كما وصف المواقع والوقائع البرية ، التي لقيها شجاعًا في «القرم» و «كريد» وغيرهما . ولكنه لم يفعل، بل نقرأ له أبياتًا طيبة في وصف السفن والقوارب وهي تجول وتروح وتجيء فوق مياه النيل الخالد حيث يقول :

وتـــرى الـــسفين تجـــول فـــوق سراتـــه

زف الرئـــــال تمطـــــرت بـــــسهوب [1]

مـــن كـــل راقـــصة عـــلى نقـــر الـــصبا

تختـــــال بـــــين شـــــمائل وجنـــــوب

ملكـــت أزمتهـــا الريـــاح ، فـــسيرها

ضربـــــان بـــــين تحفـــــز ودبيـــــب

فـــإذا أطلـــت عنانهـــا وقفـــت ، وأن

أقـــصرته ســـارت بغـــير لغـــوب

وهذه اللمحة العابرة من الشاعر محمود سامي البارودي للسفن والمراكب على أديم النيل تذكرنا بلمحة مثلها للشاعر المصري الرقيق «البهاء زهير» حيث يقول من قصيدة :

حبـــذا النيـــل والمراكـــب فيـــه

مـــصعدات بنـــا ومنحـــدرات

وإذا بلغنا من التطواف بحديث الشعراء عن سفن البحار والأساطيل مبلغ عصرنا هذا رأينا الشاعر «أحمد شوقي» يخص الأسطول الإسلامي ببعض اهتماماته . فحين اشترت الدولة العثمانية بارجتين من ألمانيا وضمتها إلى أسطولها ، وسمتهما «بربروس» و «طرغود» رأيناه ينظم قصيدة خاصة لهذه المناسبة يقول فيها مخاطبًا «بربروس» أحد أبطال البحرية العثمانية :

يـــا بربـــروس عـــلى ثـــراك تحيـــة

---

١) الزف = الإسراع ، والرئال جمع رأل ، وهو ولد النعام ، وتمطرت أي ذهبت ، والسهوب الأرض الواسعة.. يقول : أن السفن تسرع فوق مياه النيل كما تسرع أولاد النعام مضيا في الأرض المستوية .

وعـــلى ســـميك في البحـــار ســـلام[1]
أعلمـــت مـــا أهـــدى إليـــك عـــصابة
غـــر المـــآثر مـــن بنيـــك كـــرام ؟
نـــشروا حـــديثك في البريـــة بعـــدما
همـــت بطـــى حـــديثك الأيـــام
خـــصوك مـــن أســـطولهم بدعامـــة
يبنـــي عليهـــا ركنـــه ويقـــام
شـــماء في عـــرض الخـــضم كأنهـــا
بـــرج بـــذات الرجـــع لـــيس يـــرام
كانـــت كـــبعض البارجـــات .. فحفهـــا
لمـــا تحلـــت باســـمك الأعظـــام

على أن شوقي في قصيدته «صدى الحرب» التي يصف فيها الوقائع العثمانية اليونانية ، قد وصف سفن الأساطيل الدولية وهي تتأهب في بحر الروم - أو البحر المتوسط - استعدادًا للدخول في الحرب الدولية التي كانت توشك يومئذ أن تندلع نيرانها ، ومن مأثور قوله في وصف السفن المتأهبة للحرب :

ركبـــت إليهـــا البحـــر وهـــو مـــصيدة
تمـــد بهـــا ســـفن الحديـــد وتنـــصب
تـــروح المنايـــا الـــزرق فيـــه وتغتـــدي
ومـــا هـــي إلا المـــوج يـــأتي ويـــذهب
وتبـــدو عليـــه الفلـــك شـــتى كأنهـــا

(١) بربروس هو أحد أبطال البحر العثمانيين وقد سميت إحدى البارجتين باسمه .

بـؤوز تراعيهـا عـلى البعـد أعقـب [1]
حوامــل أعــلام القيــاصر ، حــضر
عليهــا ســلاطين البريـــة غيـــب
تجــاري خطاهــا الحادثــات ، وتقتفــي
وتطفــو حواليهــا الخطــوب وترســب
ويوشــك يجــري المــاء مــن تحتهــا دمًــا
إذا جمعـــت أثقالهـــا تترقـــب
فقلـــت : أأشراط القيامـــة مـــا أرى
أم الحــرب أدنــى مــن وريــد وأقــرب ؟

وما أروع شوقي في قصيدة أخرى وهو يستحضر أمجادنا البحرية فوق أديم «البحر المتوسط» وقد ملأناه بالسفين وهي موسوقة كشم الجبال ، فيقول مخاطبًا هذا (البحر) الحافل بأروع الأمجاد:

ســيد المــاء : كــم لنــا مــن (صــلاح)
و (عـــلي) وراء مائـــك ذكـــرى
كـــم ملأنـــاك بالـــسفين مـــواقير
كـــشم الجبـــال جنـــدًا ، ووفـــرا
شـــاكيات الـــسلاح يخـــرجن مـــن مـــصر
بملمومـــة ، ويـــدخلن مـــصرا ...
شـــارعات الجنـــاح في ثـــبج المـــاء

(١) البؤوز جمع باز ، والأعقب جمع عقاب وهما من جوارح الطير . وأشراط القيامة هي علامات الساعة. مواقير : موقرة مثقلة بها تحمل.

كنسر يشد في السحب نسرًا
وكأن اللجاج حين تنزي
وتسد الفجاج كرا وفرا ...
... أجم بعضه لبعض عدو
زحفت غابة لتمزيق أخرى ؟

وما أجمل ما وصف لنا الشاعر شوقي منظر الشروق والغروب في الماء من أعلى سفينة ، وذلك في قصيدته (الهلال) ، أو في المقطوعة الأخرى التي على وزن قصيدة الهلال وقافيتها

وإن كان في قصيدة أخرى رائية وصف لنا منظر طلوع البدر من سفينة حيث يقول :

والفلك مشرقة الجوانب في الدجى
يبدو لها ذيل من الأنوار
بينا تخطر في لجين مائج
إذ تنثني في عسجد زخار
وكأنها والموج منتظم وقد
أوفيت ثم دنوت كالمحتار
غيداء لاهبة تخط لأغيد
شعرًا ليقرأه ، وأنت القاري

ولقد أتيح لشاعر النيل محمد حافظ إبراهيم أن يركب متن البحر المتوسط على سفينة إلى إيطاليا في رحلة له سنة ١٩٢٣ ، فوصف البحر وصفًا جميلاً ، وهنا ـ في معرض الحديث عن مراكب البحر ـ نذكر أبياتًا له في وصف السفينة يقول فيها :

ثـم أوفـت مثـل الجبـال عـلى الفلـك
وللفلـــــك عزمـــــة لا تخـــــور
تترامـــــى بجؤجـــــو لا يبـــــالي
أميـــــاه تحوطـــــه أم صـــــخور
أزعـــج البحـــر جانبيهـــا مـــن الـــشد
فجنـــب يعلـــو وجنـــب يغـــور
وهـــو آنـــا يـــنحط مـــن علـــو كالـــسيل
وآنـــا يحوطهـــا منـــه ســـور
وهـــي تـــزور كـــالجواد إذا مـــا ســـاقه
للطعـــــان نـــــدب جـــــسور
وعليهـــا نفوســـنا خـــائرات
جازعـــات كـــادت شـــعاعًا تطـــير ..
في ثنايـــا الأمـــواج والزبـــد المنـــدوف
لاحـــت أكفاننـــا والقبـــور !

وحين تعود السفينة بالنازحين إلى أوطانهم فإن قلوب الشعراء تتجه إليها لتسرع بهم إلى تراب الوطن ورحابه ، وما أرق الشاعر أحمد شوقي وهو يتلفت من منفاه بالأندلس إلى مصر فيخاطب السفينة التي كناها بابنة اليم ، قائلاً في نفس حنون :

يـا ابنـة الـيم مـا أبـوك بخيـل | مـا لـه مولعًـا بمنـع وحـبس ؟
أحـــرام عـــلى بلابلـــه الـــدوح | حـلال للطـير مـن كـل جـنس ؟
كـــل دار أحـــق بالأهـــل إلا | في خبيـث مـن المـذاهب رجـس

نفسي مرجل وقلبي شراع ... بهما في الدموع سيري وأرسى
واجعلي وجهك الفنار ومجراك ... يد الثغربين «رمل» و «مكس»
وطني لو شغلت بالخلد عنه ... نازعتني إليه في الخلد نفسي

تجمع الأحباب وتفرقهم:

وإذا كانت «السفينة» ترد العائدين إلى أوطانهم بعد طول نأى كما رأينا عند الشاعر شوقي، فأنها أيضًا تحمل المغتربين عن أوطانهم وتدفعهم بعيدًا إلى آفاق الأرض . وقد عبر عن هذا المعنى الشاعر المهجري شفيق المعلوف بقوله من قصيدة «نداء المجاديف » :[(١)]

مجاذيف عبر اليم ، طاب لها صدى
يرجعه صفق على الموج هادئ
متى رحن يشققن العباب تصاعدت
من القعر تجري خلفهن اللآلئ
يدفعن فتيانا تذريهم النوى
على كل أفق والرياح تناوئ
فو الله ما أدري أعند وداعهم
تئن الصواري أم تئن المرافئ ؟
أطلوا بوجه من كوي السفن واجم
كأني بهم دمع بكته الشواطئ!

وليست هذه هي الوقفة الوحيدة للشاعر شفيق المعلوف على متن السفن وهي تجمع الأحباب وتفرقهم . فله قصيدة أخرى بعنوان (بين شاطئين) يصور

(١) المرجع السابق.

فيها موقف الوداع على الميناء، ومناديل المودعين البيض تلوح في الفضاء، وقد تحرك صدر السفينة لتشق بركابها صدر العباب، وكأن مقدمها يجري على أمواج متعاقبة متحركة كأنها قطيع خراف متدفع مذعور:

مناديل من ودعت يخفقن فوقهم ... فلا ترهقيهم يا سفين واقلعي
بعدن، فغشاهن دمعي كأنني ... أراهن من خلف الزجاج المصدع
ومال بنا صدر السفينة فالتوت ... تشق بنا صدر العباب المروع
كأني بها يجري مقدمها على ... قطيع خراف مجفل متدفع

وما أبأس الشاعر المغترب وهو يرى نفسه على ظهر سفينته ترمي به في مطاوي البحار، وتقذف به من ثبج إلى ثبج، وقد مرت هذه التجربة بالشاعر المهجري إلياس فرحات حينما ركب متن السفينة (أرلانزا) التي أعادته من الأرجنتين إلى البرازيل في غربة ممدودة فقال:

رباه رفقًا بمخلوق رميت به ... في الأرض تسعده طورًا وتشقيه
ما أن تفيض لتسليم مدامعه ... حتى تفيض لتوديع مآقيه
قد حاربته الليالي الغدر عاصبة ... عينيه، تعصر صاب اليأس في فيه
وقد تجاوز حد الأربعين وما ... ينفك يقذف من تيه إلى تيه...

على أن (السفينة) قد مرت بخاطر شاعرنا إلياس فرحات مرة أخرى، وهو يرثى أمه التي ماتت في أرض الوطن، وهو بعيد عنها في مهاجره الأمريكي البرازيلي، فوصف قلقها وتطلعها إلى رؤية أولادها المغتربين، وهي ترقب على ميناء بيروت كل سفينة قادمة لعلها تكون حاملة أبناءها أو واحدًا منهم، فقال في بيت من الشعر الرقيق المؤثر مخاطبًا أمه:

أنفقت عمرك ترقبين رجوعنا ... وتجوس كل سفينة عيناك

وهذا التطلع أو الترقب نحو الأكباد النازحة قد عبر عنه الشاعر محمد

عبد الغني حسن في قصيدته (بعيدون حتى بالظنون) التي نظمها في الحنين إلى أبنائه الثلاثة المهندسين المغتربين بأمريكا والبرازيل حيث يقول :

أسائل عنهم كل نجم مشرق وأسأل عنهم كل نجم مغرب
وأستروح الأنباء من نحو أرضهم لأشفي جراحات الفؤاد المعذب
وأستخبر الركبان عن كل قادم وأستنطق الربان عن كل مركب

وإذا كانت الإبل والنوق هي مفرقة الأحباب ، وغراب البين عند الشاعر العربي القديم الذي يقول :

ما فرق الأحباب بعد الله إلا الأبل
وما غراب البين ألا ناقة أو جمل!

فإن أغربة البين اليوم هي الطائرات ، والسفن البحرية التي تحمل الأحباب والأصحاب بعيدًا بعيدًا إلى مواطن لا تدركها الظنون .

في عالم البحر

وعن حديث البحر والبحيرة والتبحر وما يشتق منه يتناول د . بدوي طبانة هذه المعاني وغيرها في معرض حديثه عن بحيرة شاعر العربية الأكبر المتنبي ، ويعني بها بحيرة «طبرية» في فلسطين التي صاغ فيها المتنبي أبياتًا من روائع شعره، يقول د . طبانة : [1]

« كان البحر في أصل هذه اللغة هو الشق ، ومن هذا الأصل كانت «البحيرة» وهي الناقة التي كانوا يشقون في أذنها شقًا ، وكانت تلك عادتهم إذا نتجت الناقة خمسة أبطن ، فكان آخرها ذكرًا ، بحروا أذنها ، أي شقوها ، وأعفوا ظهرها من الركوب والحمل والذبح ، ولا تمنع من ماء ترده ، ولا تصد عن مرعى تقصده ، حتى نهاهم عن ذلك الإسلام .

وعلى هذا جاء حديث عبد المطلب أنه «حفر زمزم ، ثم بحرها بحرًا .. ، أي شقها ، ووسعها حتى لا تنزف !

ولذلك سمي «البحر» بحرًا ، لأنه شق في الأرض شقًا ، وجعل ذلك الشق لمائه قرارًا .. وكان في هذا الشق سعة وانبساط وعمق ، ولذلك قالوا «التبحر» و «الاستبحار» لكل ما فيه سعة وانبساط ، فسموا الفرس الواسع الجري «بحرًا » ومنه قول النبي ﷺ في « مندوب » فرس أبي طلحة زيد بن سهل ، وقد ركبه : «أن وجدناه لبحرا » أي واسع الجري . قال أبو عبيدة : «يقال للفرس الجواد أنه لبحر » .

وكذلك قالوا : تبحر الراعي في رعي كثير ، وتبحر فلان في المال ، ورجل بحر إذا كان سخيًا ، سموه كذلك لفيض كفه بالعطاء كما يفيض البحر .

---

١) د. بدوي طبانة/ الهلال / أغسطس ١٩٧٢.

وقالوا : استبحر فلان في العلم ، وسمى عبد الله بن العباس «بحرًا» لسعة علمه وكثرته .

و«البحر» بعد ذلك هو الماء الكثير ملحًا كان أو عذبًا . ومن استعمال «البحر» في العذب قول ابن مقبل :

ونحن منعنا البحر أن يشربوا به   وقد كان منكم ماؤه بمكان

وقال جرير :

أعطوا هنيدة يحدوها ثمانية   ما في عطائهم من ولا سرف

كومامهاريس مثل الهضب لو وردت   ماء الفرات لكاد البحر ينتزف [١]

وقال عدي بن زيد :

وتذكر رب الخورنق إذ أشـ   ـرف يومًا وللهدى تذكير

سره ماله وكثرة ما يمـ   ـلك ، والبحر معرضًا والسرير

أراد بالبحر هاهنا الفرات ، لأن رب الخورنق كان يشرف على الفرات ، وقال الكميت :

أناس إذا وردت بحرهم   صوادى العرائب لم تضرب

وقال ابن سيدة : وكل نهر عظيم بحر ، وقال الزجاج : وكل نهر لا ينقطع ماؤه فهو بحر . وقال الأزهري : كل نهر لا ينقطع ماؤه مثل دجلة والنيل وما أشبههما من الأنهار العذبة الكبار فهو بحر . وأما البحر الكبير الذي هو مفيض هذه الأنهار فلا يكون إلا ملحًا أجاجًا ، ولا يكون ماؤه إلا راكدًا ، وأما هذه الأنهار العذبة فماؤها جار .

(١) هنيدة مائة ناقة ، ويحدوها ، بسوقها ثمانية أعبد ، والسرف الخطأ والإعطاء في غير وجه ، والكوم العظام الأسنمة ، والمهاريس الكثيرة الأكل واللبن .

وعلى هذا تكون الأنهار كلها بحارًا ، ولا تكون البحار كلها أنهارًا ، وإن كان البحر قد غلب على الملح ، حتى قل في العذب ، وخرج البحر من الأسمية إلى الوصفية ، فقالوا : الماء البحر ، وهو الماء الملح قل أو كثر ، وبذلك خصص البحر بالماء الملح .

وفي آيات من الكتاب الكريم استعمل البحر فيما يعم البحر والنهر ، أي فيما يعم الملح والعذب كما في قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وكقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ .

أما النهر فإنه لم يرد في القرآن إلا مرادًا به العذب ، كما في قوله تعالى : «وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار » وقوله عز وجل : «فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني » وقوله تعالى في صفة الجنة التي وعد بها المتقون : «فيها أنهار من ماء غير آسن » .. كما استعمل كلا منهما في معناه المخصص كما في قوله عز وجل : «وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار » ..

وعلى هذا فإن عامة أهل مصر لا يبعدون عن الصواب ، ولا يجاوزون الأصل في لغة العرب إذا أطلقوا لفظ «البحر» على نهرهم العظيم الخالد ، أو على فرع من فروعه الكبيرة الجارية في مثل قولهم : «بحر النيل » و «بحر يوسف » و«بحر مويس» و «البحر الصغير» .. أو في إطلاقهم «البحر الغربي» على فرع رشيد ، و «فم البحر» على الموضع الذي يتفرع فيه النيل إلى فرعيه الكبيرين فرع رشيد وفرع دمياط ...

والأدب العربي زاخر في عصوره المختلفة بالحديث عن البحار المتلاطمة والأنهار الجارية التي أبدع شعراء العربية وكتابها في وصف أمواهها ،

واصطخاب أمواجها ، وانبساط مدها ، وانحسار جزرها ، وما يجري فوقها من الفلك التي تجري بها ينفع الناس ، ومن أبدع ذلك في الشعر قول أبي هلال :

شققن بنا تيار بحر كأنه ... إذا ما جرت فيه السفين يعربد
ترى مستقر الماء منه كأنه ... سبيب على الأرض الفضاء ممدد
ويجري إذا الأرواح فيه تقابلت ... كما مال من كف النهامي مبرد
فإن تسكن الأرواح خلت متونه ... متون الصفاح البيض حين تجرد
فطورًا تراه وهو سيف مهند ... وطورا تراه وهو درع مسرد
نصعد فيه وهو زرق جمامه ... فنحسب إنا في السماء نصعد

وقال السرى الرفاء في المد وانقطاع الجسر ببغداد :

أحذركم أمواج دجلة إذ غدت ... مصندلة بالمد أمواج مائها
فظلت صغار السفن يرقصن وسطها ... كرقص بنات الزنج عند انتشائها
تغرقها هوج الرياح وتعتلي ... ربا الموج من قدامها وورائها
فهن كدهم الخيل جالت صفوفها ... وقد بدرتها روعة من ورائها
كأن صفوف الطير عاذت بأرضها ... وقد سامها ضيمًا أسود سمائها
أو الشبح المسود حلت عقوده ... على تربة محمرة من فضائها

سهام جفون الفاتنات :

وندع الحديث عن البحر الذي لا ينضب ولا ينضب عنه حديث وإن طال .

ولنعرض لشيء من الحديث عن «البحيرة» التي صغرها أصحاب هذا اللسان ، وكبرت في أعين الشعراء ، الذين انتجعوا شواطئها ، وسبحوا فوق مياهها ، واجتلوا مشاهد الجمال في البشر وفي الطبيعة برحلتهم إليها ، وتسريح الطرف في مفاتنها ..

وقد رأى المرحوم حفني ناصف في إحدى زياراته لأوربا «بحيرة جنيف» فراعه منظرها البديع، ومنظر الأسهم النارية التي كانت تطلق في سمائها ، فتفعل في قلبه ما تفعل سهام جفون السابحات الفاتنات فوق مياه البحيرة فأنشد :

سل المهابين «افيان» و «لوزان» ... ماذا فعلن بقلب المغرم العاني
إذ كن في الفلك كالأقمار في فلك ... يشرفن فيه على ألعاب نيران
فكم من الأرض سهم للسماء ، وكم ... سهم تسدد لي من تحت أجفان!
يعلو البحيرة من نيرانها شرر ... كزفرتي حين يجري مدمعي القاني
يذهبن بالفلك إيمانًا وميسرة ... منها ويطربن من توقيع ألحان
سرب يغنين بالأفواه مطربة ... وثلة بربابات وعيدان
والورق في الشاطئ الأدنى تجاوبها ... تبدي أفانين شدو بين أفنان

وتلك صورة للبحيرات الفاتنة في أوربا ، وقد غالي أهلها في أناقتها ، وفي الاستمتاع بها في أوقات لهوهم وفراغهم ، وهي أيضًا صورة لما أثارته من مشاعر في نفوس شعرائنا المعاصرين سواء أكانوا صادقين في التعبير عن مشاعرهم وتجاربهم ، أم كانوا مقلدين للمبدعين في وصف البحيرة من الذين طارت شهرتهم في وصفها[1] .

البحرة والبحيرة:

و «البحيرة » تصغير البحر ، كذلك قال ابن منظور في لسان العرب . قال : كأنهم توهموا «بحرة» وإلا فلا وجه للهاء . يريد أن يقول : أن تصغير البحر «بحير» ولا موضع للهاء في التصغير إلا أن يكون ذلك مبنيًا على توهمهم أنها تصغير «البحرة» وهي الأرض والبلدة . وإن كان من العلماء من نص على نسبتها إلى البحرة ، وهو ما يقتضيه القياس . قال أبو البقاء العكبري: أن البحيرة

(١) المرجع السابق.

تصغير البحرة، وهي الواسعة وليست تصغير البحر، لأن البحر مذكر، قال الله تعالى: «والبحر يمده من بعده سبعة أبحر».

والبحيرة عندهم هي كل ماء مجتمع عظيم، لا اتصال له بغيره، فيكون ملحًا كما يكون عذبًا..

وقد عرف العرب البحيرات وسموها بهذا الاسم على الرغم من ندرتها في بلادهم، فقد رأوا كثيرًا منها في المواطن التي وطئوها، وفي البلاد التي انتجعوها. ومن البحيرات القليلة في جزيرة العرب «بحيرة هجر» وهي على باب الإحساء، قرب بلاد البحرين، وماؤها زعاق، وهي البحيرة التي ذكرها جرير في قوله:

كأن ديارًا بين أسنمة النقا ... وبين هذا ليل البحيرة مصحف
فلست بناس ما تغنت حمامة ... ولا ما ثوى بين الجناحين زفزف[1]
ديارًا من الحي الذين نحبهم ... زمان القرى والصارخ المتلهف

ومن البحيرات التي عرفوها خارج جزيرتهم «بحيرة أرمية» بينها وبين أرمية نحو فرسخين، وهي بحيرة مرة منتنة، واستدارتها نحو خمسين فرسخًا. و«بحيرة أنطاكية» وهي بحيرة عذبة الماء، بينها وبين أنطاكية ثلاثة أيام، وطولها نحو عشرين ميلاً في عرض سبعة أميال، في موضع يعرف بالعمق. و«بحيرة الحدث» في أطراف بلاد الروم، على اثنى عشر ميلا من الحدث نحو ملطية وتمتد إلى الحدث، وهي قلعة حصينة هناك، وفي الحدث كانت موقعة مشهورة بين العرب والروم انتصر فيها سيف الدولة انتصارًا عظيمًا، ومدحه المتنبي بإحدى روائعه التي أولها:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ... وتأتى على قدر الكرام المكارم

١) الأسنمة اسم موضع، والهذاليل ما استدق من الرمال، والزفزف الريش الذي بين الجناحين..

وفيها يقول :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أي الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجم

و «بحيرة خوارزم» وتنصب إليها أنهار كثيرة ، منها سيحون وجيحون . و «بحيرة قدس » قرب حمص طولها اثنا عشر ميلاً في عرض أربعة أميال . تنصب إليها مياه ما حولها من الجبال ، ثم يخرج منها النهر المسمى «نهر العاصي » وهو نهر حمص وحماة وشيزر ، وينصب في البحر قرب أنطاكية . و «بحيرة المرج» في شرق دمشق . و«بحيرة زغر» في غرب الأردن ، وهي بحيرة منتنة لا يعيش بها حيوان .

ومن أشهر هذه البحيرات «بحيرة طبرية» وهي نحو عشرة أميال في ستة أميال ، وهي كالبركة تحيط بها الجبال ، وتصب فيها فضلات أنهار كثيرة ، ومدينة طبرية مشرفة عليها ، ويخرج منها نهر الأردن فيشق الغور طولا إلى «بحيرة زغر».

وفي بحيرة طبرية صاغ المتنبي أبياتًا من روائع شعره في وصف هذه البحيرة ، فقال موجها خطابه إلى على ابن إبراهيم التنوخي:

لولاك لم أترك البحيرة والـ ... ـغور دفيء وماؤها شبُم
والموج مثل الفحول مزبدة ... تهدر فيها وما بها قطم
والطير فوق الحباب تحسبها ... فرسان بلق تخونها اللجم
كأنها والرياح تضربها ... جيشا وغى: هازم ومنهزم
كأنها في نهارها قمر ... حف به من جنانها ظلم
ناعمةُ الجسم لا عظام لها ... لها بناتٌ وما لها رحم
يبقر عنهنَّ بطنها أبدًا ... وما تشكى ولا يسيل دم

تغنــــت الطـــير في جوانبهـــا وجــادت الــروض حولهــا الــديم
فهـــــي كماويَّــــةٌ مطوَّقـــة جُـــرِّد عنهـــا غــــشاؤها الأدمُ
يـــشينها جريهـــا عــــلى بلـــدٍ تـــشينه الأدعيـــاء والقـــزم

لقد أبدع أبو الطيب، فصور بريشة الفنان الصناع تلك البحيرة بتلك الصور المتلاحقة، والتشبيهات التي أمدتها بالحياة، فلم تعد البحيرة ذلك المجتمع العظيم للماء الساكن الممتد بين شواطئها وإنما جعله متحركًا يفيض بالحركة التي تبعث فيه الحياة، ولم يدع شيئًا من ذلك المنظر الأخاذ إلا صوره بهذه الصور المتصل بعضها ببعض، فازدادت أجزاؤها ترابطًا :

فقد وصف أمواجها التي تهدر إذا هبت عليها الريح، وشبهها بالفحول الثائرة المزبدة التي تريد أن تستفرغ طاقتها بهذه الثورة الجامحة .

ووصف الطير على وجه مائها في حالة رفرفتها فوقه، وانغماسها فيه، وشبهها بالفرسان التي تضطرب على ظهور الخيل، فكأن الأمواج المختلفة الخيل البيض، وقد تقطعت أعنتها، فاتجهت حيث تشاء .

والطير يتبع بعضها بعضًا على وجه الماء إذا ضربها الريح، وكأنها جيشان يهزم أحدهما الآخر، فيتبع الهازم المنهزم، وهي تنشط وتطير فوق الماء إذا ضربتها الريح، أو أنها تضرب الموج فتهزمه، ثم تعود فكأنها منهزمة بين يديه .

وماء البحيرة في صفائه وقد أحاط به سواد الجنان وخضرتها كأنه قمر أحاط به الظلام، وذلك في النهار دون الليل، حين ينعكس على وجه البحيرة ضوء الشمس .

وانتقل من ذلك إلى البحيرة التي تبدو ناعمة حية من غير عظام يقوم عليها بناؤها، وهو يريد بناتها أي السمك الذي يحيا فيها، ويستخرج منها من غير عناء .

وعاد إلى الطير فوصفها وهي تتغنى في جوانبها فوق الغصون التي تحيط بها

وقد سقتها مياه المزن التي لا تكف عن تعهدها ، وإلى سطحها الذي شبهه في الصفاء ، بالماوية وهي المرآة المطوقة بطوق من الفضة أو الذهب ، وقد نزع منها طوقها ، وجردت من غلافها .

وأخيرًا فقد شاقة ذلك النظر الفاتن ، وأخذ بمجامع قلبه ، ولم يغض من هذا الجمال الساحر إلا ما رأى من لؤم أهل هذا البلد .

وهذا الوصف في جملته أثر من آثار افتتان الشاعر العبقري بمحاسن الطبيعة وجمالها الآسر، وليست هذه الصور المترادفة سوى مرآة لأحاسيسه ومشاعره ، وقد انتزعها من حياته العربية وتجاربه فيها .

البحر في الشعر المعاصر

وقف الشعر العربي المعاصر من مظاهر الطبيعة وقفة جديدة، ووصفها على نحو جديد، وصور مظاهرها، وجسدها بطريقة تختلف عن طريقة الأقدمين. ولهذا نحس بمذاق خاص، وطعم متفرد، لشعر الطبيعة المعاصر ... وقد تفرد البحر - دون مظاهر الطبيعة الأخرى - بجاذبية مرهفة نافذة، حتى تحول في الشعر المعاصر، عند معظم الشعراء، إلى رؤيا شعرية[1].

لا شك أن البحر قد فجر في نفوس الشعراء كثيرًا من التأملات والخواطر الفلسفية ... كانوا يلجأون إليه ويتأملونه في انفعال شعري حار ويحلون فيه، ويبادلونه المشاعر والخواطر، ولعل من أعظم قصائد الحلول الشعري في البحر قصيدة «المساء» التي أبدعها (خليل مطران) في الإسكندرية وقد كان عليل النفس والجسم معًا، وقد مزج أحزانه بالبحر والغروب وكل مظاهر الطبيعة. والقصيدة مشهورة متداولة، وقد تناولها الدارسون والنقاد بكثير من الشرح والتحليل، ولكنني سأكتفي هنا بإيراد أبيات قليلة ترسم صورة الضياع والحيرة للشاعر، وهو متفرد بكآبته، يشكو إلى البحر أحزان نفسه. وضياع آماله، واضطراب خواطره ويتأمل حيرته، ويمزجها باضطراب الموج والرياح الهوج التي تزمجر في البحر:

عبث طوافي في البلاد وعلة ... في علة، منفاي لاستشفاء
مُتفرِّدٌ بصبابتي مُتفرِّدٌ ... بكآبتي، متفرِّدٌ بعنائي

(١) الهلال، أغسطس ١٩٧٢، د. عبد العزيز الدسوقي، الشعر المعاصر فوق أمواج البحر.

شاكٍ إلى البحر اضطراب خواطري ... فيجيبني برياحه الهوجاء
ثاوٍ على صخرٍ أصمَّ وليت لي ... قلبًا ، كهذى الصخرة الصماء
ينتابها موج كموج مكارهي ... ويفتُّها كالسُّقم في أعضائي

وهناك تجربة طريفة للمرحوم الدكتور محمد عوض محمد . ووجه طرافتها أن الأديب الكبير لم يعرف بالشعر ، ولكن جاذبية البحر قد حركت شاعريته فكتب قصيدة بعنوان «البحر» ونشرها في الرسالة .

وهي «رؤيا شعرية تأملية » يقف فيها وجهًا لوجه أمام البحر ويناجي ذلك الخضم الزاخر الذي طوى في صدره كل الأحلام والأسرار وشهد ميلاد الكون . وسيظل حتى يشهده وهو ينحدر نحو الغروب ، وتعصف الخطوب وتنقرض السنون ، وتتوالى الأحداث وهو رزين ، يسخر حينا من تكالب الناس واصطراعهم في الحياة ، ويهزأ حينًا آخر من أحلامهم وما يلاقون من نعيم زائل:

أيها الزاخر ذو الصدر الرحيب ... كم طوى صدرك من سر رهيب ؟
قد شهدت الكون . والكون فتى ... وسترعاه إلى وقت المشيب
كم قرون عصفت وانقرضت ... وخطوب نزلت أثر خطوب
ومحياك رزين ناظر ... بابتسام تارة أو بقطوب
ساخرًا مما يلاقيه الورى ... من نعيم زائل أو من كروب
ثائرًا حينًا وحينا هادئًا ... باعثًا رعبًا وأمنا للقلوب
مهلكًا طورًا ، وطورًا منقذًا ... كعدو ناقم ، أو كحبيب ...
باسما حينا وحينا عابسا ... في كلا الحالين ذو شأن عجيب

والشاعر يتأمل مصائر الناس ، وأحداث الحياة من خلال البحر ، ويصوره حارسًا رهيبًا، شهد مولد البشرية وواكبها ورعاها وسيظل معها حتى تشيب ثم يمزج البحر بمظهر آخر من مظاهر الطبيعة هو الشمس :

عانقتك الشمس من أفق السما وهي تجرى من شروق لغروب
هل رأى العالم في غيركما كيف يحلو مزج ماء بلهيب

وهي صورة نافذة موحية لانصهار أشعة الشمس فوق سطح البحر في جميع الأوقات . وفيها إيحاء غزير لدورة الحياة ، واختلاط الأشياء ، واجتماع المتناقضات .

ثم يصل الشاعر إلى حالة من الرهبة والجلال أمام عظمة (البحر) الجبار فيناجيه مرة أخرى في انفعال عميق :

قلبك الهادئ لا تزعجه زعزع نكباء ثارت في الهبوب
لم تحرك منك إلا ظاهرًا واقعته لشمال أو جنوب
تحته قلب عميق ساكن هازئ من حادث الدهر العصيب

ثم تهول الشاعر في نهاية المطاف روعة هذا العالم العجيب المحجب الذي لا تصل الأفهام إلى أسراره أو تنفذ العقول إلى أغواره ، فيهتف في نهاية القصيدة :

ليت شعري ما الذي تضمر في
قلبك الهائل من أمر غريب
عالم آياته قد أتعبت
فكرة الحاسب أو عقل الأديب

ومن الحق أن نقرر أن هذه القصيدة قد هاضتها في بعض الأحيان هذه التأملات الذهنية والأفكار المجردة وحولتها في بعض المقاطع إلى مجرد نظم بارد يخلو من الماء والرواء .

ولكنها في كثير من مقاطعها خلت من هذا العيب واكتسبت سحرًا نافذًا من خلال الإيحاء الفكرى الذي كانت تثيره معظم صورها التأملية .

عطور الفن والفكر:

وللشاعر حسن كامل الصيرفي «رؤية تأملية» نحو البحر، صاغها في قصيدته «أنا والبحر».

وهي تجربة شعورية عاتية تصور ما يجيش في نفس الشاعر من اضطراب واحتدام وقلق وثورة، وتنفذ بنا إلى عالم الشاعر الباطني، لنشهد ما يمور فيه من اعتداد بالنفس وإحساس بالجحود.

وقد اتخذ من البحر «معادلاً موضوعيًا» جسد من خلاله رؤيته الفنية والفكرية وتصوره للحياة، ثم أخذ يزيد على ذلك فوازن بينه وبين البحر وراح يعدد ملامح البحر، وملامحه النفسية التي يزيد بها عليه. يقول:

أنا والبحر شاعران

بالأناشيد عامران

غير أني نظمتها

من سلام ومن حنان

وهو يلقي نشيده

في ضجيج وفي اضطغان

أنا أكسو عرائسي

بالجديدات من معان

وهو يزهو بعريها

في ابتذال وفي امتهان

أنا أختار من برا

حسنها الله في افتتان

وهو في اللهو جامع

القبيحات بالحسان

أنـــــا والبحـــــر شـــــاعران
في الـــــدياجير ســـــاهران
بالأناشـــــيد عازفـــــان
بالأســـــاطير . زاخـــــران
نحـــــن في الـــــضوء عابثـــــان
نحـــــن في الفجـــــر كاهنـــــان
نحـــــن في الفجـــــر كاهنـــــان
نحـــــن إلفـــــان صـــــاحبان
نحـــــن ضـــــدان حـــــائران
أنـــــا للأفـــــق حاضـــــن
وهـــــو للـــــشط في احتـــــضان
لـــــيس لي مـــــن شـــــواطئ
ثـــــم للبحـــــر شـــــاطئان

والمقطوعة ببساطة ألفاظها ورشاقة تعبيراتها وموسيقاها تتسلل إلى النفس شيئًا فشيئًا ، ثم تتلاشى بعد قليل مظاهر جمالها الشكلية وننسى عذوبة إيقاعها الراقص وسلاسة تعبيراتها ، وألفاظها الموحية الشفافة ، لنشغل بها كتجربة إنسانية كبيرة ، لا تنفصل قيمها الجمالية والفنية عن أشواقها الفكرية والروحية ، ونعيش مع الشاعر هموم نفسه وأحزان فؤاده ، التي لم يسفر عنها بصورة مباشرة في هذه المقطوعة . فهو يتأبى حتى عن الإفصاح عن مشاعره الحزينة الآسية ولكنه من خلال البحر وحلوله فيه يوحى لنا بما يمور في داخله من هموم لا حدود لها ولا تخدعنا كلماته اللينة عن السلام والحنان ، لأنه يؤكد لنا في نهاية

القصيدة أنه يحتضن الأفق وأنه لا نهاية له ... ليس له من شواطئ :

لـــــــيس لي مــــــــن شـــــــواطئ

ثـــــــم للبحـــــــــر شــــــــاطئان

ثـم تجيش في نفوسنا كـل معـاني الحـزن والألم ونتعـاطف مـع هـذا الـشاعر العظيم الذي يرتفع على الزمان والمكان ويحتضن الآفاق . ويمتـد في كـل مكـان ، وينقلنا إلى عالم التجربة الإنسانية الرفيعة التي تفعم النفس الإنسانية بعطور الفـن والفكر[1] .

شـعراء المهجر :

ولشعراء المهجر شـعر كثير في هـذا المجـال اتخذ مـن موضـوع البحـر رؤيـة شعرية حارة ، راحوا يتأملون من خلالها الحياة ومصائر الأيام وتقلبات الزمـان ، ويمزجون همومهم الذاتية بهذا الخضم الزاخر . ويضطربون مع أمواجه العاتية ، ويغوصون إلى أعماقه الساكنة الغامضة غموض المجهـول. وفي «الطلاسـم» أفـرد إيليـا أبـو مـاضي مقطعًـا لمناجـاة البحـر . أمـا ميخائيـل نعيمـة فيقـف عنـد «النهـر المتجمد» ويناجيه قائلاً .

يــا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير ؟

أم هل هرمت وخار عزمك فانقطعت عن المسير

ثم يوازن بين هذا النهو المتجمد في الشتاء والذي سيعود إلى المسير في الربيـع وبين قلبه المكبل بأحزان شتاء أبدى . فيقول :

يـــا نهـــر ذا قلبـــي أراه كـــما أراك مكـــبلاً

والفـرق أنـك سـوف تنشط مـن عقالـك وهـو لا

وهناك شعراء كثيرون من شعراء المهجر لهم شعر تأملي حول البحر .

(١) المرجع السابق.

وراء أستار الغيب:

والشاعر عبد الرحمن شكري بطبيعته النفسية الشاكة المتأملة، وقف طويلاً عند البحر، وصوره هادئًا. ومصطربًا، مائجًا وساكنًا ونفذ إلى شعابه وأوديته المجهولة، وغاص إلى أعماقه المظلمة السحيقة وجسد منه كائنًا، وجبله بشرًا سويًا، وحوله أحيانًا إلى غول رهيب وأحيانًا أخرى تصوره ماردًا جبارًا، ونكتفي بالإشارة إلى بعض أبيات من قصيدته الطويلة «البحر» التي مطلعها:

ألا ليتني لج كلجك زاخر
أعب كما تهوي النهى والبصائر

ويروح يناجي البحر ويحدثه حديث الصديق ويقول له:

أتطرب من لحن الخرير كأنه
خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته
فجاشت لديك الراقصات الزواخر

وهو يشبه خرير البحر بصدحة الدهر. ويشبه البحر بالدهر:

خريرك يحكي صدحة الدهر صامتا
كأنك دهر بالحوادث مائر
هو الدهر لا يخشى المنايا ولا يهي
صباه. ولا تقضي عليه المقادر
وأنت شبيه الدهر، لا أنت هارم
ولا أنت منقوص ولا أنت خاسر

وهنا يسفر عبد الرحمن شكري عن «رؤياه» الفنية والفكرية بقوله:

يحن إلى ما خلف أفقك ناظر
كما تنشد الغيب النهى والبصائر
كأن مني للنفس من خلف أفقه
تلوح كما لاح السراب المبادر
بلى كل نفس للغريب مشوقة
وإن خوفتها من سطاه المحاذر

فهو يبحث عن المجهول ويحاول أن يهتك أستار الغيب . مهما خوفوه بكثرة الماء واضطراب الموج وطول السفر ، أنه يشعر دائمًا أن آماله وأمانيه هناك خلف أفق هذا البحر المضطرب الجياش الذي تغرق في لجته الدول والأمم .

ومن الشعراء الذين تأملوا مظاهر الطبيعة ووقفوا عند البحر متأملين ، الشاعر محمد عبد الغنى حسن ، وقد تحول البحر عند بعض الشعراء إلى معنى آخر ، فهو «بحر الصمت» عند الشاعرة ملك عبد العزيز ، وهو «بحيرة العطش» عند الشاعر حسن عبد الله القرشي . وله ديوان بهذا الاسم ، يقول فيه :

الحب يا صغيرتي بحيرة من العطش
وكيف يرتوي الظماء من بحيرة العطش

ويتحول البحر إلى «بحر من الحزن» عند الشاعر عبده بدوي . عميق مثل الموت . غريب مثل الغايات :

«والناس تغوص .. والقاع بعيد »
لا قاع لبحر الحزن .. لا قاع لماء الخوف»

الرؤية العاطفية والبحر:

فإذا انتقلنا إلى الرؤيا العاطفية نحو البحر وهي الرؤية التي تمزج الحب والعلاقة بين الرجل والمرأة بالبحر على نحو ما . أو تتخذ من المرأة على شاطئ البحر أو سابحة على صفحات أمواجه موضوعًا للقصيد . وقد حفل الشعر المعاصر بسيل من القصائد تدور كلها حول هذه الموضوعات. ومن العسير أن أختار بمعيار موضوعي في هذه العجالة فحسبي أن أتناول بعض هذه التجارب حيثما اتفق .

ومن التجارب التي نبدأ بها في هذا المجال قصيدة «غادة البحر» للشاعر أحمد زكي أبو شادي ، وهو يتحدث عن حسناء تسير على شاطئ البحر بثيابها فتأخذ بالألباب والقلوب ، وتشغل الناس عن الفاتنات العاريات :

هيفاء ينبض بالملاحة جسمها
فترى الحياة من الثياب تطل
فكأنها الزهر المحجب بعضه
بالطل لو يخفي الملاحة طل
أو إنما هذى الثياب تحولت
فغدت مثالاً للحياة يجل

* * *

والناس قد شغلوا بها عن لهوهم
وعن الحسان اللاعبات تخلوا
ونظمت شعري من شعور عبادتي
«للحسن» فهو من الحياة أجل

مع السابحات الفاتنات :

وللشاعر صالح جودت تجارب عاطفية متعددة مع البحر ، وكأن البحر شرك الحسان عنده، يرى على شاطئه الجسد العبقري ، أو يلتقي على صفحاته بالفاتنات السابحات ، وأحيانًا يغوص معهن إلى الأعماق ، ومن قصائده في هذا المجال «قصيدة الجسد العبقري على شاطئ ستانلي باي » يقول فيها :

عبقري أنت في كل نتوء وثنيه
عبقري أنت أوحيت لشعري العبقريه
لست أنسى لحظة الصيف وما جرت عليه
لحظة بين غواني الماء في الاسكندريه
إذ تجردت وأبقيت من الثوب بقيه
حدثته عما طوته من ثنايا قدسيه

وهذا الشعر قاله صالح جودت الشاعر الغزل اللعوب في فجر شبابه الأول قبل أن تنتابه هذه الموجة من التصوف ، وقد كان في تلك الأيام الخوالي يطارد الحسان حتى في الماء، وله قصيدة جريئة بعنوان «عهد المياه» يقول فيها :

فرحنا إلى صخرة في المياه
أجادت يد البحر في نحتها
ولم نبق ساكنة في النوازع
إلا عدونا على بيتها
نكفر عن عهد حرمانها
ونصرخ بالبعث في ميتها

* * *

فغنت مع الصيف حتى انتهى

فعـــادت إلى يأســـها تـــستكين
وتـــضحك في القلـــب مجنونـــة
بعهـــد الميـــاه . فهـــل تـــذكرين

* * *

وللشاعر العراقي هلال ناجي تجربة مع «الدانوب الأزرق» يخاطبه قائلاً :

ســـجد الـــشعاع كأنـــه ذهـــب
وتراقـــصت أمواجـــك النجـــب
دانـــوب أن مفاتنـــا جليـــت
عنـــد الـــضفاف يـــسوءها الأدب
الراقـــدان ولـــيس تحـــتهما
غـــير الحـــشائش والهـــوى تعـــب
يتبـــادلان الحـــب في شـــغف
ويزقزقـــان فيزهـــد الـــذهب
تتحـــدث الأجيـــال عـــن متـــع
بـــدع ولـــيس يؤودهـــا وصـــب
ومياهـــك الزرقـــاء خلـــدها
اللحـــن والتـــصوير والأدب

* * *

وتجربة الدكتور يوسف عز الدين يمزج فيها غرامه بالبحر في قصيدته «أيها البحر» ويناجيه ويتذكر قصة غرامه ويشتكي إلى البحر من هجر حبيبته ونواها .

وللشاعر قاسم مظهر أبيات يناجي فيها الموج قائلاً :

ويقول :

فلما أطل البدر وانساح نوره
على البحر فاختالت عليه المناظر
تنبهت الأحلام في النفس بغتة
وهبت خفافًا من كراها الخواطر
وخيل لي أني عليه وزوجتي
وقوفًا نناجي موجه ونحاور

وله قصائد أخرى بعنوان «ميناء نابولي» و «المدينة الخالدة» «وجنوا» و «البندقية» ، وفيها يتحدث عن الخلجان وعروس الماء والفلك التي تمخر عباب الماء . ويذكر ذلك بزوجته الراحلة. ثم يقف على «بحيرة كومو» ويهتف :

في شطك الأحوى ختام مطافي
يا جنة الملتاع والمصطاف
طافت بشطيك الربا مخضرة
بالسرو والزيتون والصفصاف

ويقول :

لوددت أحيا في ضفافك مخلدًا
بعض الحياة هنا خلود كافي
لو ددت ، لولا أن عودي معجل
نادى به داعي الهوى المتلاف
نادت به زوجي هناك ضجيعة
في أرض وادي النيل كالأضياف

أيهـــــا المــــــوج ترفـــــــق

بالجـــــــــسوم الناعمـــــــــه

بـــــين أحـــــضانك دنيـــــا

مــــــن أمــــــان حالمـــــه

فتقبلهـــــــــا بلحـــــــــن

مــــــن أغــــــان باســـــمه

هــــــي للــــــروح ســــلام

فأعــــــــدها ســـــــالمه

من وحـي المرأة:

وللشاعر عبد الرحمن صدقي مجموعة من القصائد عن البحار والخلجان في «فلورنسا» «وجنوا» «والبندقية» ، يمكن أن نطلق عليها ديوان «البحر والمرأة» ففي تلك المعاهد وبين أحضان المياه وعلى تلك الشواطئ يتذكر غرامه وذكريات زوجته الراحلة . ويرسل الدموع قطرات حارة وفي قصيدته «الليلة الأولى على البحر » يتذكر زوجته فيقول :

وحيــد عــلى ظهــر الــسفينة ســاهر

وقــد لجـجـت في الغمــر ، والليــل غــامر

غريــق حــوتني ظلمـــة طـــي ظلمـــة

كـــأني إلى الغيـــب الـــسحيق مـــسافر

ويقول :

لقــد طــاف بي ذكــرى التــي قــد عــدمتها

شريكـــة عيـــشي غيبتهـــا المقـــابر

وللشاعرات نازك الملائكة ، وروحية القليني ، وسلمى الخضراء الجيوسي : تجارب شعرية حول البحر ، وقد جسدت روحية القليني من البحر عاشقًا تناجيه :

يا ليت عمري صيف لا انتهاء له
حتى أظل هنا في ظلك الحاني
والكأس أشربها بالعطف مترعة
أنسى الهموم بها والهم ينساني
أعيش هانئة في ظل رابية
مع الخيال ، وأنقي عبء أشجاني

وللشاعر « سعد درويش » مجموعة من الصور الشعرية النافذة الغزيرة الإيحاء تتخذ من البحر إطارًا تعبر من خلاله عن أحزان الشاعر الغرامية المشبوبة(١) .

الشباب والشعر والبحر:

ولشباب الشعراء من الجيل الجديد رؤية جديدة نحو البحر لها نكهة خاصة ومذاق متميز، وعلى الرغم مما في تجارب بعضهم من غموض وأحاله إلا أن الموهوبين منهم تمكنوا من أن يديروا حول البحر مجموعة من الأعمال الفنية الناضرة المعبرة ..

ومن أنضج هذا الجيل من شباب الشعراء في رأيي أمل دنقل ، ومحمد إبراهيم أبو سنة، وكمال عمار ، ثم محمد أبو دومة ، ونصار عبد الله .

يقول محمد إبراهيم أبو سنة من قصيدته «النهر والذين يعبرون» :

(١) المرجع السابق.

رأيـــتهم هنـــاك يعـــبرون في المـــساء
عيـــونهم فجيعـــة بـــلا عـــزاء
خيـــولهم مهمومـــة غريقـــة الآذان
يـــا ويلهـــا في صـــمتها الكئيـــب كالإنـــسان
قـابلتهم أولئـك الـذين يعـصبون حـزنهم عـلى الجبـاه
شـــباكهم مـــشدودة إلى الـــصخور في القـــرار
والبحـــر كالـــسماء واســـع ولا قـــرار
وكلـها يمـر شـاطئ قـديم . يكفكفـون العـبرة العقيـم
وينـــشدون ... لا شيء غـير حزننـا يظلـل الطريـق
والحـــزن وحـــده هـــو الـــصديق

وهـموم هـؤلاء الـشباب كثيفـة مركـزة كهمـوم العـصر وأحزانـه . ونبـضهم وحساسيتهم يختلفان بعض الاختلاف عـن الـشعراء الـذين سـبقوهم ، ولـذلك تميزت أنغامهم ، بهذا الإيقاع الخاص. وتشابكت في صورهم تلك المعاني المركبـة التي لا تسلم نفسها بسهولة للفهم .

الرؤية الاجتماعية والبحر:

وأخيرًا لنا وقفة عند الرؤية الاجتماعية والبحر .. وقصائد هـذا اللـون تـدور حـول بعـض الأفكـار الاجتماعيـة والتاريخيـة والأخلاقيـة وتـستوحي مـن البحـر فكرة تنفذ من خلالها إلى فكرة إصلاحية . أو عبرة أخلاقية أو موعظة تاريخية .

وقد اتخذ الشعراء مـن البحـر مثيرًا يبعـث في نفوسـهم الـذكريات المجيـدة . فالشاعر أحمد شوقي يقف على «البحر الأبيض» فيتـذكر أمجاد المسلمين الأوائـل وغزواتهم عبر البحار ، وجنود الله التي كانت تملأ البحر بالـسفن وآلات الحـرب يخيفون بهـا عـدو الله وعـدوهم . ويمـزج ذلـك كلـه بالوصـف الـشعري للرمـال

النواعم البيضاء، والمعاصم والنحور التي يكسو بعضها ويعرض البعض الآخر والشاعر عمر أبو ريشة يحدثنا عن «شطآن بلادي» حديثاً مثل حديث شوقي يستعيد فيه أمجاده وذكرياته يقول :

رمـــل وصـــخور
ومطـــاف نـــور
ومواكـــب أخيلـــة تهمـــي
مـــن كـــوة عالمهـــا المـــسحور
ووراء سراهـــا في الـــديجور
ذيـــل مـــن نـــور
شـــطآن بـــلادي كـــم غنتـــك
بـــسمع المجـــد شـــفاه عـــصور
أقـــوت أرجـــاؤك إلا مـــن
حلـــم في جفـــن الرمـــل يثـــور
ألقـــاك وألقـــى في الـــيم
أسراب الأجنحـــة الـــدهم
جاءتـــك مـــن الغـــرب المـــسحور
هـــدام قـــصور .. وبنـــاة قبـــور

والشاعر على أحمد باكثير يكتب قصيدة بعنوان «وحي الشاطئ» يمزج فيها الوصف الساخر بالعظة النافذة :

بـــالله حـــدثنا حـــديثك يـــا جمـــال بـــلا تقيـــه
مـــاذا رأيـــت عـــلى «ســـتانلي بـــاي» بالاســـكندريه

أشهدت أنصاف الكراسي ينتشرن على الشواطئ
مثل الكواكب في السماء أو اللآلئ في البساط
أأرحت جسمك من متاعبه وقلبك من أساه
وكرعت من ماء الحياة ، فعدت ممتلئًا حياه
أم عدت موقوذًا بسهم صوبته إليك عين
فعرفت أن على جفون الغيد حينًا أي حين

.. ونضع القلم

وبعد .. فلا يزال في ديوان الشعر العربي المعاصر نتاج غزير يدور حول «البحر» وتجارب كثيرة غير التي ذكرت يختلط فيها الوصف الناعم بالسخرية اللاذعة بالتأمل النافذ بالدعابة الرشيقة . وتجارب كبرى ، ويكفي أن نذكر قصيدة الشاعر العربي جورج صيدح بعنوان «المستحمات» لنتأكد أن بعض الشعر يستعصي على التقسيم يقول «صيدح» :

أفدى الحمائم باكرت حمامها
في شاطئ فرش العيون أمامها
مستعرض فوق الرمال هيامنا
مستعرض فوق المياه هيامها
الكاسيات العاريات تؤمه
بغلائل ما غلفت أجسامها
تركت إلى عبث النسيم شفوفها
فنضا النسيم عن النجوم غمامها

* * *

يـــا موكـــب الطوفـــان أسراب المهـــا
كـــشفت لآســـاد الـــشرى هنـــدامها
ألفـــت جـــوار الـــصيد في سرحاتهـــا
متحـــديات في الهـــوى ضرغامهـــا
وتمرغـــت في الرمـــل تخـــدع شـــهوة
لجـــت ولم تقـــض المهـــود مرامهـــا
البحـــر ناداهـــا وقلقـــل في الحـــصى
متقـــدما يتعمـــد اســـتقدامها
فمـــشت عـــلى الرقـــراق واجفـــة الخطـــا
بعـــد الـــتردد ســـددت أقـــدامها ...

وهكذا تمضي هذه القصيدة الوصفية النافذة المتأملة العابثة ... ونضع القلم حتى لا نغرق مع الشعر في أعماق البحار ! [١] .

البحر عند شعراء الإسكندرية:

كانت مدينة الإسكندرية على مدى تاريخها حافلة بأبنائها الشعراء ، ولكن الشاعر السكندري عبد العليم القباني (١٩١٨– ٢٠٠٠) اختار أن يحدثنا عن بعض هؤلاء الذين عاشوا خلال النصف الأول من القرن العشرين ومنهم [٢] : خليل شيبوب – أحمد زكي أبو شادي – عبد الحميد السنوسي – عثمان حلمي – عبد اللطيف النشار – حسن فهمي.

---

(١) المرجع السابق.
(٢) هلال ، أغسطس ١٩٧٢ ، عبد العليم القباني .

خليل شيبوب :

ولد «خليل شيبوب» في «اللاذقية» ذلك الميناء السوري الجميل، في اليوم الثامن والعشرين من يناير سنة ١٨٩٢، وتلقى دراساته هناك في إحدى مدارس «الفرير»، ولما حصل على شهادة التجارة، وفد إلى الإسكندرية سنة ١٩٠٨ تصحبه آماله في مستقبل بهيج.

وفي «الإسكندرية»، تجلى أدب «خليل شيبوب» العربي، المتأثر بالرومانسية الفرنسية، كما تجلي انتهاجه لمنهج الشاعر الكبير «خليل مطران»، ومن أبرز محاولاته في هذا الصدد، نظمه لقصة «سليم وسلمى» وكان نظم القصص الشعرية، غرضًا لعدد من الشعراء الشوام وقتئذ، وتابعهم فيه بعض المصريين.

ثم بدا أثر الطبيعة السكندرية يتضح في شعر «شيبوب» وبخاصة بحرها الكبير، وكان يحلو له أن يقارن، بين ما تطويه جوانحه، وبين ما يضمه ذلك البحر بقوله :

صدري، وهذا البحر، غورهما
أبدًا يضلل كل من سبرا

ولنصحبه في جلسة على الشاطئ. حيث نشهد معه مجموعة من الصور المتابعة التي يقدمها البحر، والتي سجلها «شيبوب» في قصيدة طويلة، نختار منها هذه الصورة لغضبة البحر :

ترى نفسها فيك السماء، فتنجلي
مباسمها، والنور غزل ملاعبه
وأنت ترى فيها جمالك زاهرًا
فمن منكما، رب الجمال وصاحبه ؟
ولكن، إذا ما ثار قلبك حاقدًا

عليهـا ، وهـذا المـاء جاشـت غواريـه
زخـرت ، كـأن الـضاريات ، زئيرهـا
عـلا ، وصـداها مـن بعيـد يجاوبـه
وهجـت وهـاج الكـون حولـك نـاقمًا
يغاصـبك الـدنيا وأنـت تغاصـبه
وأبـرق هـذا الجـو يرسـل سـخطه
غيومًـا ، كـما أربـدت بليـل غياهبـه
أثـار عليـك الراعـدات ، فأطبقـت
وأطبقـت ، كـل ثـائرات كتائبـه
نهـضت بمـوج ، كلـما كـر ، كـرة
عـلا ، وترامـى سـيله وضرائبـه
ونازلتـه مـستهزئًا بـسيوله
تطاولـه مستبـسلاً ، وتواثبـه
فأتعبتـه ، حتـى اسـترد جيوشـه
وعـاد وباديـه مـن الـذل غائبـه
وأرسـل هـذى الـشمس ، تطلـب هدنـة
إليـك ، ورب الحـسن تقـضي مطالبـه
فعـدت إلى مـا أنـت ، وجهـك ضـاحك
ونـورك رقـراق ، ومـاؤك شـاربه

مرآة الحياة الدنيا :

ولنصحبه في جلسة أخرى ، حيث جلس يتابع موكب الغيد بنظراته ، ومن

ثم يتوجه بالحديث إلى البحر فيقول :

هـــذى عرائـــسك الجميلـــة أنهـــا
مـــشمولة بالحـــسن والاحـــسان
الماشـــيات بطيئـــة ، مياســـة
أعطـــافهن ، نـــواعم الأبـــدان
والجالـــسات عـــلى الـــصخور زواهـــرًا
مثـــل الريـــاض ، قطـــوفهن دوان
والـــسابحات ، رشـــيقة حركـــاتهن
... بديعـــة التـــصريف والإتقـــان
والنـــاس يمـــشون الهـــويني مـــثلما
يتريـــث المتفـــرج المتـــواني
والبـــشر ترســـمه الحيـــاة ســـعادة
في أوجـــه الفتيـــات والفتيـــان

غير أنه لا يلبث أن تتغلب عليه طبيعته الحزينة ، فيختتم قصيدته الطويلة هذه بأبيات مأساوية يقارن في آخرها بين الحياة والبحر فيقول :

يـــا بحـــر زد وانقـــص فأنـــك مثلهـــا
فـــان ، ومثلـــك كـــل شيء فـــان

وهو يرى في البحر ، مرآة للحياة الدنيا ، ويسجل رأيه في المقارنة التالية حيث يقول :

أرى البحـــر ، مـــرآة هـــذي الحيـــاة
فهـــو يحـــاكي مـــداها اتـــساعا

وأبعـــــاده مثـــــل أبعادهــــا
يــضيق عـــلى الفهـــم أن تـــستطاعا
وتغتـــال ســـفر الوجـــود خـــداعا
ويغتـــال ســـفر الـــسفين خـــداعا
فـــلا هـــي هابـــت عليهـــا حـــصونا
ولا هـــو هـــاب عليهـــا شراعـــا
وأيامنـــــا مثـــــل أمواجـــــه
تجـــئ سراعًـــا ، وتمـــضي سراعـــا !

مقدمة «الفجر الأول»:

في سنة ١٩٢١ أخرج «خليل شيبوب» الجزء الأول من ديوانه، بعنوان «الفجر الأول» ويضم حوالي ٩٠ قصيدة ، جمعها من بين ما نظمه خلال المدة من سنة ١٩١٢ حتى سنة ١٩٣٠ وتحتوي بدايته، على تمهيد بقلم الشاعر ، ثم مقدمة «نثرية» بقلم الشاعر «خليل مطران» يؤكد فيها شاعرية «شيبوب» وأنه يرى في ديوانه فتحًا جديدًا ، أو وثبة على طريق الشعر العربي ، بينما كتب أمير الشعراء أحمد شوقي المقدمة الثانية وكانت «شعرًا» وقد جاء فيها قوله :

شـــيبوب ديوانـــك بـــاكورة ... و «فجـــرك الأول» نـــور الـــسبيل
الـــشعر صـــنفان ، فبـــاق عـــلى ... قائلـــه ، أو ذاهـــب يـــوم قيـــل
مـــا فيـــه عـــصري ولا دارس ... الـــدهر عمـــر للقـــريض الأصـــيل

عمل «خليل شيبوب» بأحد بنوك الإسكندرية منذ أن قدم إليها ، ونال إجازة الحقوق الفرنسية بالانتساب سنة ١٩٢٦ وظل يحرر صفحة الثلاثاء الأدبية بجريدة البصير السكندرية إلى نهاية حياته ، ونشر شعره بالمجلات الأدبية

المختلفة وخاصة الرسالة ، وجمع من شعره ديوانًا ثانيًا سماه «أحلام النهار» لم يطبع بعد ، وألف قصة طويلة عنوانها «ندى» واشترك مع «عثمان حلمي» في ترجمة ديوان «قبس من الشرق» كما نشر كتابًا عن «الجبرتي» في مجموعة «اقرأ» وأصدر المعجم القضائي(فرنسي وعربي) في ثمانمائة صفحة ، وأسهم في تأسيس جماعة نشر الثقافة ، والاتحاد العربي بالإسكندرية .

وانتقلت روح الشاعر إلى بارئها بالإسكندرية في اليوم الثالث من فبراير سنة ١٩٥١

أحمد زكي أبو شادي:

أما شاعرنا الثاني الدكتور «أحمد زكي أبو شادي» ، فهو قاهري المولد ، إذ أنه ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٢ ، وكان أبوه «محمد أبو شادي» المحامي ، من كبار رجال عصره ، المعروفين بوطنيتهم وأصالتهم ، كذلك كان معروفًا بحبه للأدب واشتغاله به ، وفي ظل من رعايته ، نشأ ولده «أحمد زكي» فتى متعدد المواهب الأدبية والعلمية ، وأن يكن الشعر أظهرها جميعًا .

أحب الفتى في بداية شبابه ، وكتب عن هذا الحب ديوانه الأول «زينب» ولكنه أخفق في حبه ، وكان قد أتم العشرين من سنى حياته ، فأرسله أبوه إلى «انجلترا» ليدرس الطب من جهة ، ولعله يجد السلوان في بعده عن مواطن شجونه ، من جهة أخرى ، ولكنه أخذ يبعث بوجدانياته من هناك إلى مجلات «الهلال» و «المقتطف» و «أنيس الجليس» وغيرها ، ثم جمع من هذا الشعر ديوانًا ثانيًا سماه «ألحان الغريب» وكان إلى جانب حبه هذا يحب وطنه كأعمق ما يكون الحب ، فألف في «انجلترا» جمعية سماها «جمعية آداب اللغة العربية» تولى هو أمانتها ، بينما تولى رئاستها الدكتور «مرجليوث» المستشرق الانجليزي المعروف

وفي سنة ١٩٢٢ عاد أو أعيد إلى «مصر» نظرًا لنشاطه الوطني ، لكنه عاد ليبدأ نضاله الأدبي، في معركة طويلة الأمد ، قاسية الأسلوب ، أنقسم جمهور الأدباء فيها إلى قسمين ، له وعليه ، إذ كان «أبو شادي» يؤمن أن وظيفة الشعر هي التعبير عن وجدان قائله ، وبأن الحفاظ على الفن يجب أن يفضل الحفاظ على اللغة ، بينما يأخذ عليه خصومه ، ارتماءه في أحضان الأسلوب الغربي في صوره الشعرية ، وفي بعض التراكيب اللغوية ، ومجافاة الذوق العربي الموروث والمألوف .

وبدأ «أبو شادي» في إصدار دواوينه تباعًا ، يتقدم كل ديوان منها مجموعة من المقدمات بقلمه وبأقلام أنصاره ، وينتهي كذلك بطائفة من التعليقات التي تكفي لأن تكون كتابًا مستقلاً ، ومن أوائل هذه الدواوين ، «الشفق الباكي»

١٩٢٦ ، الذي يقع مع ملاحقه ، في أكثر من ١٢٠٠ صفحة، ثم «أشعة وظلال»، ١٩٢٨ ، و «مختارات وحي العام» ١٩٢٨ ، و «الشعلة» ١٩٣٣ ، و «فوق العباب» ١٩٣٥ ، وأطياف الربيع ١٩٣٨ ، كما أخرج مجموعة من المسرحيات الشعرية ، نذكر منها «اخناتون» و «الآلهة» و «ازدشير وحياة النفوس» و «إحسان» و «الزباء ملكة تدمر» و«عبده بك» وعدد من القصائد الطويلة المطبوعة في طبعات مستقلة .

جماعة مجلة «أبو للو»:

وإلى جانب مجلتيه اللتين أصدرهما عن النحالة والدجاج ، أصدر سنة ١٩٣٢ مجلة أخرى خاصة بالشعر والبحوث المتعلقة به ، تلك هي مجلة «أبو للو» أول مجلة للشعر العربي في هذا الوطن ـ وسرعان ما أخذت هذه المجلة مكانتها في البلاد العربية ، ومن ثم أبرزت عددًا من الشعراء المعروفين إلى الآن ، ولقد يحلو لبعض الناس أن يسمى مجموعة شعرائها بأنهم من المتابعين لمدرسة «أبو للو » لكنه يمكن أن نقول أن هذه التسمية غير دقيقة ، فإن المجلة أفسحت صدرها لكل الشعراء برغم تفاوت اتجاهاتهم وتباينها ، فقد كان بعضهم مغرقًا في التشبث بالأسلوب القديم، كما كان بعضهم يحاول كتابة الشعر الحر .

وفد «أبو شادي» إلى الإسكندرية ، منقولاً إليها من القاهرة في منتصف الثلاثينات ، وذلك بفضل نفوذ خصومه الذين ظنوا ، أن في نقلته هذه ما يبعده عن مجال نشاطه في العاصمة الأم ، ولكنه كان كما قال «جمال الدين الأفغاني» «لا يعدم الليث فريسته أينما ذهب» فعندما تسلم عمله كطبيب بكتريولجي في المستشفى الأميري بالمدينة ، ما لبث أن تحول إلى طاقة أدبية تبث إشعاعاتها في كل اتجاه ، وكان أن التف حوله أكثر الأدباء الشبان ، من الذين رحبوا بمقدمه واتخذوه لهم قدوة وإمامًا ، وكان أن أسهم في تشجيعهم ماديًا وأدبيًا ، كما أسهم في إنشاء مطبعة «التعاون» التي أخذت تطبع مؤلفاتهم إلى جانب مؤلفاته ، وكذلك أسهم في إصدار مجلة «الإمام» .

أثر البحر في شعره:

أثر البحر في شعر «أبي شادي» أوسع من أن نحيط به ، في مقال غير متخصص له وحده ، ولذلك نكتفي بعرض بعض النماذج التي تشير إلى هذا الأثر ، ولا تستقصيه أو تتعمقه ، فنقول أن القاهريين أكثر انبهارًا بالبحر من سكان السواحل ، ذلك لأن عنصر المعاشرة ، يخفف عادة من حدة الأثر .

وكان «أبو شادي » قاهريًا وفد إلى المدينة ذات الشاطئ الرائع الجمال ، فأخذت بلبه ، واستولت على مشاعره استيلاء ظل ينمو وينمو حتى غادر الإسكندرية فيما بعد ، ولنستمع إليه وهو على صخرة «بير مسعود» بسيدي بشر حيث يخاطب البحر بقوله :

هيمان مثلك يا صديق الشاعر
أنظر تلهف ناظري وخاطري
أنا من علمت محبة وتفانيًا
في كل معنى من نشيدك ساحر
أصغى إليه ولا أمل كأنما
أصغي إلى لحن الخلود العامر
لغة الجمال طلاقة بل ثورة
والفن يعبد في الجمال الثائر
أو ، لا ، ففيم تأملي وتفهمي
نجواك ، وهي عميقه بسرائرى
وعلام أصحب كل موج واثب
وأعد ذرات الندى المتناثر
وعلام أشغف بالصخور روانيا

وكأنهـــا قامـــت، عـــروش قيـــاصر

وهو يقدس الجمال في كل ألوانه، ويتسامى في نظرته إلى الجمال العاري الذي اتخذ من الشاطئ مسرحًا لإظهار فتنته:

هـــذي الجـــسوم العاريـــات هياكـــل
للحـــب بـــين النـــار والأنـــوار
أنـــا مـــا أثمـــت بنظـــرتي وتـــصوفي
في هـــــذه الألـــــوان والآثـــــار
فـــيم الطبيعـــة أن جحـــدت بناتهـــا
فـــيم الحيـــاة استـــسلمت لأســـار

شاعر الوطنية والنضال:

و«أبو شادي» وقد ارتقى بعلمه إلى أعلى الوظائف الطبية بالمدينة لم يسكن إلى الوظيفة، ولم تهدأ عاطفته الوطنية، فظل ينظم شعرًا يغضب حكام عصره، فهو لا يغفر لحزب الوفد - برغم أنه كان وفديًا - أنه ضم إلى صفوفه عددًا من كبار الإقطاعيين - وهذا على سبيل المثال.

كما ظل ينظم شعرًا فيه النقمة على مجتمعه وسوء توزيع الثروة فيه، واسمعه وهو يتحدث على لسان فلاح يقول لزوجته:

غلـــب الجـــوع فهـــاتي (المـــش) هـــاتي
لا تقـــولي اللحـــم أن أصـــبر أســـاتى
ســـادتي أولى بـــه مـــذ نهبـــوا
كـــل حـــق لي وعـــاثوا بحيـــاتي
لا تقـــولي الـــدود قـــد أفـــسده

إنـــما الـــدود ـ وأن يحقـــر ـ لـــداتي
مـــــدحوني مـــــثلما قـــــد لعنــــوا
قـــد تـــساوي المـــدح واللعـــن لـــذاتي

آلام الشاعر المهاجر:

ولم يجد «أبو شادي» بدًا ـ وقد ضاق به الحكام والمحكومون على السواء في ذلك العهد ـ من أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية ليعمل هناك ، في المعاهد الخاصة بعلمه ، وبأدبه في الصحافة والإذاعة ، ولعله يجد ما كان يفتقر إليه من الأمان والاستقرار وبخاصة بعيد أن ماتت زوجته الحبيبة .

ولكنه ما لبث أن شعر بكيانه يتحطم بتأثير الغربة والحنين ، ومن محاربة بعض الحاقدين عليه هناك .

وأخيرًا انطفأت هذه الشعلة المتوهجة ، فمات «أبو شادي» غريبًا عن وطنه في ١٢ أبريل ١٩٥٥ ، تاركا وراءه ديوانًا مطبوعًا في «نيويورك» بعنوان «من السماء» ، وكتابًا آخر بعنوان «دراسات أدبية » وطائفة من الدواوين التي لم تطبع وهي: ايزيس ، الإنسان الجديد ، النيروز الحر ، من أناشيد الحياة .

عبد الحميد السنوسي:

هذا شاعر سكندري المولد والإقامة والوفاة ، فقد ولد «عبد الحميد السنوسي» مع مستهل سنة ١٨٩٩ ، ولما بلغ الثانية عشرة من عمره ، توفي والده ومن ثم عاش يتيمًا في كنف شقيقته الكبرى ، وكان شعوره باليتم - رغم رعية أخته له - حادًا قاسيًا ، أرهف مشاعره وطبع صباه بطابع حزين تجلي فيما كان ينظم من شعر في هذه الفترة المبكرة من حياته .

وعندما التحق بمدرسة «رأس التين الثانوية» التقى فيها بأستاذ شاعر كان له أثره الكبير على شعراء جيله ، ذلك الأستاذ هو «عبد الرحمن شكري» الذي تتلمذ الشاعر على يديه ، علما وشعرا.

كان «السنوسي» في بدايته ، مغرقًا في التأثر بالقدماء ، لا يكاد يفترق في أسلوبه عنهم ، تخاله واحدًا منهم ، ولكنه ما لبث أن تأثر بأستاذه «شكرى» ، ونسج على منواله ، ونتبين هذا من قراءتنا لقصيدته «قلب هائم» التي يقول فيها:

أما إن أن يبدي لي الدهر عطفه
فينعم ولهان ويهجع ساهر
أما أن أن تنجاب عني غشاوة
فإن حياتي ظلمة ودياجر
وأني قضيت العمر والروض ذابل
فلا الطير صداح ولا الغيث مائر

تأثر «السنوسي» بالبحر في شعره تأثرًا كبيرًا ، فنظم شعرًا في هدوئه وغضبه والشروق والغروب على صفحته ، بل ويصل التأثر به إلى حد التعبير بمظاهره ، عن المشاعر الخاصة به فحياة السنوسي كما يقول :

أعيش كأني في الحياة سفينة

تكالبهـــا الأمـــواج واليـــوم زاخـــر
أئـــن كـــما أن الجـــريح مـــن الـــصدى
فتهـــزأ بي الأيـــام وهـــي ثـــوائر

وهو - حين يحب - يرسم لنا النهج الذي يرجو من محبوبه أن يتبعه ، وهو نهج للبحر فيه أثر واضح :

لا أريـــد الحـــب نهـــرًا راكـــدًا
ضـــنت الـــسحب عليـــه بـــالنواح
بـــل أريـــد احـــب بحـــرًا هائجًـــا
مزبـــد الأمـــواج خفـــاق الريـــاح
أحقـــر الآمـــال مـــا تدركـــه
أن مـــلأت اليـــد ، مـــن غـــير كفـــاح
فـــإذا مـــا شـــئت أن يبقـــى الهـــوى
فـــاعبثي في كـــل يـــوم بجراحـــي

وقد نال الشاعر «عبد الحميد السنوسي» إجازة الحقوق واشتغل بالمحاماة حتى أصبح من كبار المحامين في الإسكندرية ، وشارك في الحياة السياسية بها ، فانتخب عضوًا بمجلس النواب عن دائرة الرمل ، وانتهى به المطاف في هذه الحياة في اليوم الرابع والعشرين من فبراير سنة ١٩٥٦ تاركًا ديوانين هما «لغة القلوب» و «نغم النفوس» ... وقد جمع الاستاذان «مصطفى السحرتي» و«مفيد الشوباشي» ما استطاعا جمعه من شعره ونشراه ضمن مجموعة «تراثنا» غير أنهما لم يهتديا إلى الديوان الثاني الذي توجد منه نسخة بمكتبة محافظة الإسكندرية .

عثمان حلمي:

عاش «عثمان حلمي» سكندريًا ، ومات سكندريًا ، وهو يرجو أن يبعثه الله على ذلك ، فما كان - رحمه الله - ليرضى عن سكندريته بديلاً ...

عاش عمره ، وهو يرى أن مدينته هذه فوق المدائن جميعًا ، لا تفضلها مدينة أخرى من مدن العالم فلم يبرحها - فيما يقول الرواة - غير مرتين إلى القاهرة : الأولى لاستلام قيمة جائزة المجمع اللغوي ، والثانية لتسوية معاشه .

كذلك كان يغضب أشد الغضب ، لو أنك غيرت حرف التاء من اسمه وجعلته «ثاء» مثلاً ليصبح اسمه (عثمان) أنك حينئذ تكون قد ارتكبت إثمًا في حقه لا تكاد تغفره اعتذاراتك له ، مهما أكثرت منها .

وبقدر حدة مزاجه وحرصه البالغ على كرامته ، وتقديره الأعظم لفنه فإن شعره كان سمحًا ميسورًا سهلاً لا وعورة فيه ولا حوشية ، لا تزيد الكلمات الأصلية في ديوانه «نسيم السحر» على ثمانمائة كلمة ، بينما تزيد صفحاته على الثلاثمائة صفحة ، ومن هنا كان ينبع إحساسك دائمًا وأنت تقرأ أي قصيدة فيه ، بعد بضع صفحات ، إنك قرأت مثل هذا الكلام من قبل ، ومع ذلك فقد حصل بديوانه هذا على الجائزة الأولى في الشعر من المجمع اللغوي المصري ، لاستفادة الشاعر الكاملة ، من هذا المحصول اللغوي الضئيل ، ولتنوع موضوعاته ، والتعبير بشعره عن كل الأغراض.

وهو - مع ذلك - كان يسخر من الشعراء كثيرًا وينعي عليهم الالتجاء إلى القديم البالي، من الألفاظ والأفكار ، وهو يرى ، أن كل لفظ لا يتداوله الناس إنما هو لفظ ميت ، لا يجب أن يوضع في حساب شاعر يخاطب الأحياء ، ويقول لزملائه :

ما لكم من فرط حمقكم

تمزجـــــون الجـــــد باللعـــــب
كـــــل بيـــــت مـــــن قـــــصائدكم
كبقايـــــا المنـــــزل الخـــــرب

ولقد كتب «عثمان» القصة الشعرية الطويلة كما في «البخت النائم» التي تجاوزت الألف من الأبيات ، وترجم بالاشتراك مع «خليل شيبوب» ديوانًا من الشعر الشرقي عنوانه «قبس من الشرق» وكذلك نظم عددًا كبيرًا من الرباعيات العثمانية الفلسفية والحكمية نشرها بمجلة الرسالة القديمة .

في حدائق الشلالات:

ولد الشاعر «عثمان حلمي» بالمكس إحدى ضواحي الإسكندرية ، في ١٨ مايو سنة ١٨٩٤ ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية أمضي عامين آخرين في التعليم الثانوي ثم لم يواصل الشوط بعد ذلك ، وعين في بلدية الإسكندرية بحدائق «الشلالات» لبضعة أعوام ، انتقل بعدها إلى مصلحة البريد حيث ظل يعمل بها إلى أن أحيل على المعاش سنة ١٩٥٤ .

وفي خلال عمله بحدائق الشلالات تعرف عليه عدد من شعراء المدينة منهم «عبد اللطيف النشار» و «عبد الحميد السنوسي» و «حسن فهمي» و «زكريا جزارين» و «مفيد الشوباشي» وعلى رأسهم «عبد الرحمن شكري» الذي كان يرعاهم في هذه الفترة ، وكانوا جميعًا يعقدون ندواتهم الشعرية بالحدائق المذكورة، كما كان يزورهم فيها وقتئذ الأستاذان «عباس العقاد» و «إبراهيم عبد القادر المازني» ، حيث يأنس الجميع بهذه الزيارة ، ويتبادلون معًا آخر ما دار في مجالات الشعر العالمية ثم يعرض الجميع أشعارهم للاستمتاع والنقد والتوجيه ، وكان لكل منهم أسلوبه الخاص في شعره ، فلم تصهرهم - من الناحية الفنية - بوتقة الجماعة ...

فإذا ما حاولنا أن نتلمس أثر البحر في شعره ، وجدناه في بعض تعابيره التي تجري في سهولة هنا وهناك ، فهو يقول عن نفسه مثلاً :

قلبـــــه كـــــالبحر مـــــضطرب
فـــوق مـــوج الحلـــم والغـــضب

وأن أجمل ساعات استمتاعه ، تلك التي يقضيها :

في وقفـــــة يومًـــا عـــلى شـــاطئ
حيـــث نـــسيم البحـــر يلهـــو بنـــا

وأنه يقطع الحياة على سفينة يقول فيها :

وســـارت بي عـــلى مهـــل تهـــادي
ســـــفينتي التـــــي لا كالـــــسفين
فـــريح الهلـــك تـــصرخ عـــن يـــساري
ومـــوج المـــوت يرعـــد عـــن يمينـــي
تـــسامى المـــوج في حـــال وتهـــوى
هـــوى الـــشهب في بـــرج مكـــين

وكذلك حين يتحدث عن الحسن المتجدد على الشاطيء ، حيث يصبح الشاطئ معرضًا لألوان شتى من هذا الجمال الذي لا تمله العيون .

وعندما أخرجت الدار القومية مسرحية «الظاهر برقوق» لم يشهدها مؤلفها «عثمان حلمي» فقد أدركته منيته قبل أن تعرض هذه المسرحية بأيام ، وكان ذلك في اليوم السادس من ديسمبر سنة ١٩٦٢ .

عبد اللطيف النشار:

في السادس والعشرين من فبراير «١٩٧٢» فقدت الإسكندرية الشاعر عبد اللطيف النشار، وقد كان النشار أبًا روحيًا لأغلب شعراء المدينة الشبان من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٥٠ يستمع إلى أشعارهم باهتمام ويعلن رأيه في صراحة وأبوة أيضًا، ويرشدهم في دعابة لطيفة إلى الطريق الصحيح.

والنشار - في شعره - أقرب إلى العقلانيين، من ناحية تصور الفكرة وتسلسلها، وإخضاع نتيجتها للمنطق، وأن أدعي هو غير ذلك وقال:

خذوها على العلات لا شعر صانع
ولكن كما يملي على فؤادي

كذلك دارت بينه وبين عدد من زملائه، وفي مقدمتهم عثمان حلمي ومحمد فضل إسماعيل أهاجي كثيرة، كانت تتسم بالقوة والذكاء إلى جانب خفة الظل مما جعلها أنسا للمجالس الأدبية، ولكنها لم تنشر، وقد كان الفنان المرحوم محمد إبراهيم الخطاط يحتفظ بمجموعة كبيرة منها[1].

في مدينته الحبيبة:

ولد «النشار» واسمه بالكامل «محمد فرحات عبد اللطيف» ابن الشاعر «محمد حمدي» ابن الشاعر «الشيخ محمد على النشار» بدمياط في ٢٨ مايو سنة ١٨٩٥، ثم وفد إلى الإسكندرية بعد عامين من مولده بصحبة والده الذي كان قد نقل كاتبًا بمحكمة اسكندرية، وقد كان جده الشيخ محمد على يعمل من قبل مدرسًا بمعهد مسجد الشيخ إبراهيم باشا بحي الميدان بالإسكندرية.

درس «النشار» حتى منتصف المرحلة الثانوية ثم التحق كاتبًا بالمحكمة الأهلية باسكندرية وعاش شبابه وصدرًا من شيخوخته لا يفارق الإسكندرية

١) المرجع السابق.

إلا للضرورة القصوى ، حتى أنه لما صدر قرار نقله إلى القاهرة نفذ القرار بالسفر ثم عاد في اليوم التالي ، وقابل المسئول الكبير الذي قرر نقله ، وأخبره «أنه التقى بإبراهيم باشا في ميدان الأوبرا وأن إبراهيم باشا أشار إليه بإصبعه أن يعود ثانية إلى الإسكندرية ، وأنه لم يملك إلا طاعة ولي الأمر الأعلى وعاد إلى الإسكندرية ! » فضحك المسئول وأبقاه في المدينة الحبيبة .

وعندما قرر وزير الحقانية أن ينقل النشار إلى طنطا كتب قصيدة يستعطف بها الوزير لإبقائه في الإسكندرية .

النشار والإسكندرية :

أحب النشار الإسكندرية كأعمق ما يكون الحب وكان أثرها في وجدانه وشعره واضحًا، وكان تمسكه بالبقاء فيها شديدًا إلى درجة أنه عندما غادرها أهلها في الحرب العالمية الثانية خوفًا من قنابل الألمان والطليان ، لم يغادر المدينة مع من غادر ، وإنما أصر على البقاء فيها إلى النهاية، وقد كتب في هذه الفترة عددًا من القصائد العامرة بالوفاء ، اسمعه وهو يقول عن الثغر وخلوه من المصطافين رغم اشتداد الحر وقتئذ ، وتأمل اللهفة والاستدراك في البيت الثالث :

ما راعني فيه ما انقضت صواعقه
بل راعني أن خلا في الصيف مصطاف
هذي الديار ، فأين الوادعون بها
لم يبق إلا سماديرٌ وأطياف
أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا
قف يا لساني فبعض القول إسفاف
لم يخن دهر عليها ، لا ، لا ، أبدًا
ما مثل أكنافها في الدهر أكناف

ألفــان تمــلي عــلى الــدنيا محاســنها
وســـــوف يـــــشهد آلاف وآلاف

وتأمل إحساسه المسحوق وهو ينصهر بنار القنابل التي تتفجر في المدينة ومدى الآلام التي يحسها في قوله :

وتوالــت الــضربات لا مــن حاســب
يحــصى ، ولا المحــصي لهــا يتــذكر
وتجاوبــت بالنــار ألــسنة الــردى
ياســمع ، كــم أســد بجوفــك يــزأر
رأسي ، كــسندان القيــون ونــاظري
تحــت المطــارق جفنــه والمحجــر

ثم اسمعه وهو يتحدث عن الإسكندرية وقد خلت أيامئذ من النساء فيقول:

يــا بلــدة أمــست بــلا نــساء
أيــن ابتــسامات عــلى اســتحياء
وأخريـــات جمـــة الـــسخاء
والواعـــدات دونـــها وفـــاء
يخلطـــن مـــر اليـــأس بالرجـــاء
ودانيـــات ودهـــن نـــاء
أبعـــد في القـــرب مـــن الـــسماء
مـــا صـــبر أيـــوب عـــلى الـــبلاء
كـــصبر أهـــل البلـــدة البيـــضاء

النشار الساخر:

قضى النشار القسط الأكبر من حياته ساخرًا من كل شيء ، فلم يسلم من سخريته أحد .

على أنه في نهاية حياته كان أقرب إلى المتصوفة المثقفين ، بعد أن فارقه غرور الشباب والرجولة وإن لم يفقد التحرر الذهني ، فقد كان أكثر في تحرره ، من الأجيال التي جاءت من بعده .

وقد أمضى النشار أيامه الأخيرة في حي العباسية بالقاهرة بالقرب من كريمته الوحيدة «رفيقة» التي كان يحبها حبًا جمًا ، وكان ـ وهو في القاهرة ـ يبعث إلى جريدة «السفير» السكندرية بأربع مقالات في الأسبوع تقريبًا ، يتحدث فيها عن كل شيء ، وكذلك كان يصنع أثناء غيابه في انجلترا في رحلة دامت أكثر من نصف عام ، كما كان يترجم ـ وهو بالقاهرة ـ قصة هندية عن الانجليزية لتنشر في مجلة «صوت الشرق» التي اشتغل بالتحرير فيها ، وماضي النشار حافل بالروايات العديدة التي كان يترجمها للطلاب وغيرهم عن الانجليزية ، ومن أهم مترجماته رواية «كوخ العم توم» و «حاجي بابا أصفهاني» وقد نشر الأخيرة مسلسلة في مجلة «الرواية» التي كان يصدرها أحمد حسن الزيات .

وترك النشار ديوانين من الشعر هما «جنة فرعون » و «نار موسى» ، كما أخبرني أن له مجموعة من شعره كتبها بخطه وأودعها دار الكتب المصرية بالقاهرة .

حسن فهمي:

أما الشاعر «حسن فهمي المحامي» فمن صنف يختلف إلى حد ما عن الذين أسلفنا الحديث عنهم، فعلى الرغم من أنه كان واحدًا من «جماعة الشلالات» ومن الذين تأثروا برائدها «عبد الرحمن شكري»، إلا أن خلفية دينية عميقة قد امتدت ظلالها إلى شعره، فلونت الكثير منه بلون ديني مقبول، ولهذا كان في صراع فكري عنيف مع التيارات الشاكة المرتابة التي غذت أفكار شباب عصره، خلال الحرب العالمية الأولى، وقصيدته التي يفتتح بها ديوانه «مرآتي» عنوان لاتجاهه هذا فهو يناجي فيها القوة الأزلية الأبدية بقوله :

يا صباح الأزل ... يا مساء الأبد
يا علة للعلل ... يا حيرة المجتهد
أين الثريا والثرى ... من يحرك المجدد
الكائنات كثيرة ... ليست بذات عدد
ومن رآك مرة ... فلن يرى من أحد

أما أثر البحر في شعره، فيبدو في أبيات متناثرة خلال ديوانه، وفي بعض الصور التي نكتفي بواحدة منها، يتحدث فيها عن لقاء عاطفي وقت الأصيل، وقد استرسل في عرض مشاعره حتى انتهى بنا إلى هذه الصورة التي اخترناها وفيها يقول :

فلما انتبهنا راعني البحر منظرًا
إذ اتصلت أمواهه بلهيب
أضاء السحاب المظلمات وهيجه
فأسفر وجه الجو بعد قطوب
أقول لذي ودي وبالأفق جونة

وقـــد هـــم فيهـــا حاجـــب بمغيـــب
تمتـــع بهـــذين الجمالـــين ســـاعة
جمـــال خـــضم في جمـــال غـــروب
وقـــد صـــور الـــرحمن في الأفـــق صـــورة
وأبـــدع في تلوينهـــا بـــضروب
فمـــن برتقـــالي ولـــون بنفـــسج
إلى لـــون ذي وجـــد وخـــد حبيـــب
أطلـــت عـــلى الكـــون العـــشية فاكتـــسى
بثـــوب بـــديع في الجـــمال قـــشيب
فللبحـــر مـــن بعـــد التهـــيج ســـكنة
وللـــريح هـــدأ بعـــد طـــول هبـــوب
وغابـــت ذكـــاء في الخـــضم فأصـــبحت
عـــلى الجانـــب الغـــربي غـــير قريـــب

وقد ولـد حسن فهمي سنة ١٨٩٥ ودرس بالإسكندرية دراساته الأولية والثانوية ثـم درس الحقـوق ونـال إجازتها وأصبح محاميًا نابها بالمدينـة ، وجمع شعره الذي نظمه بين سنة ١٩١٤ وسـنة ١٩١٩ في ديوانـه «مرآتي» وقـد صرفتـه المحاماة عن الاشتغال بالأدب حتى أدركته وفاتـه سـنة ١٩٣٠ ، ولعـل انقطاعـه هذه الفترة، هو الذي صرف عنه أنظار عشاق الأدب بالإسكندرية فلا يكاد أحد يعرف عنه شيئًا إلا القلة من المتخصصين [١] .

١) الهلال، عبد العليم القباني ، أغسطس ١٩٧٢.

ناجي والبحر:

إذا كان هناك ارتباط بين الشاعر والبحر، لما في البحر من أسرار وخبايا تشد الشاعر إليها، وتربطه به، فإن شاعر الحب والشجن إبراهيم ناجي ارتبط ارتباط عميقًا بالبحر، ورأى فيه من الأسرار والمعاني ما دفعه لأن يبدع الكثير من قصائده في البحر، ولكن كيف ؟!

يظفر الشاعر بلحظات من السعادة فيولي وجهه شطر البحر وهو موقن أن سعادته هناك على الضفاف سوف ترق وتصفو وتتضاعف .. ويضيق بالحياة والناس فيلوذ بالبحر يبثه شجونه ويتفرس في صفحته ويستمع إلى ترانيمه أو صرحاته فيجد العزاء كل العزاء ...

ترى هل عزلة الإنسان التي تتكاثف مرات ومرات في قلب الشاعر وندرة التجاوب والمشاركة الوجدانية بينه وبين من حوله من البشر، هي التي تدفع به إلى الطبيعة، والبحر خاصة، يبثها أحزانه ويفضي إليها بأسراره وآماله ؟ ..

قيل شيء من هذا عن الشاعر الانجليزي «شيلي» ويقال أيضًا عن الشاعر المصري إبراهيم ناجي ...

أترى الماء حلم كل ظمآن ـ ظمأ الجسد وظمأ الروح ـ مهما تعددت ألوان الظمأ وأشكاله ؟[1]

أترى البحر في تعدد وتنوع صوره ومظاهره، في الفجر والضحى والغسق، في الصحو والغيم، في وهج الشمس وفي ضوء القمر، في وداعته وفي ثورته، في همسه الناعم وفي جبروت صخبه، في انسيابه هادئًا لينًا يتأمل، وفي هرولته كأنه يريد أن يلحق بموعد فات، وفيما ترسمه الرياح على صفحته من صور وأشكال وتكوينات لا نهاية لها ـ أترى في كل هذا زادا لروح الشاعر التي لا تفتأ تحس

(١) الهلال، نصري عطا الله، البحر في شعر ناجي، أغسطس ١٩٧٢ .

الوحدة والوحشة والحرمان ... ذلك الظمأ اللانهائي الذي لا يكاد يرتوي حتى يحس لوعة العطش من جديد ، العطش إلى الاندماج في الكون الوسيع الذي لا يجد خيرًا من البحر صورة له ورمزًا ؟ ..

كم وقف الشاعر إزاء البحر ينصت إلى تسبيحاته صاخبة أو وادعة ، وإلى ولولة الريح تلطم الماء في عنف ، أو همسات النسيم كأنه ينقل إلى الماء رسالة حب فيحس أن في كل هذا شيئًا موجها إليه ، أن هناك رسالة تفد إليه طي هذه الأنغام ، وإلا فلم تتسلل إلى روحه وتسبي قلبه وتفعمه بالخواطر والإحساسات التي يجهد في تبينها وفك رموزها فيفلح ـ ولكن إلى حد ـ ويظل باقيها على حاله من الغموض والعمق والحلاوة والسحر ؟ ..

الوفاء للحب والبحر :

كانت منحة الطبيعة لإبراهيم ناجي (١٨٩٨ ـ ١٩٥٣) هي القلب الكبير والحساسية المفرطة، والروح الإنساني البعيد الآفاق .. فلا عجب أن يعرف ناجي الحب وهو غلام يافع ، ولا عجب أ نيألف البحر ويصحب حبيبة القلب إلى الشاطيء كأنهما في ضيافة قلب حنون ...

ويتكرر اللقاء عند صخرة تطل على الماء ، ثم يحدث ما لابد أن يحدث ، فيتدخل الدهر الذي لا يبقى على شيء ويفرق بين الحبيبين ، ويذهب ناجي إلى الشاطئ وحيدًا هائمًا ملتاعًا لا يجد بين الأحياء من يبثه شجونه ولواعجه ، ولا يجد إلا الصخرة التي طالما شهدت لقاءهما فيفضي إليها بنجواه ... ولم يكن ناجي في ذلك الحين قد جاوز الثالثة عشرة :

هل أنت سامعة أنيني ... يا غاية القلب الحزين
يا قبلة الحب الخفي ... وكعبة الأمل الدفين
أني ذكرتك باكيًا ... والأفق مغبر الجبين
والشمس تبدو وهي تغرب ... شبه دامعة العيون

أمـــسيت أرقبهـــا عـــلى صـــخر ومـــوج البحـــر دوني
والبحـــر مجنـــون العبـــا ب يهـــيج ثـــائره جنـــوني
ورضـــاك أنـــت وقـــايتي فـــإذا غـضبت فمـــن يقينـــي؟

وتتكـرر هـذه الـصورة في شـعر نـاجي ، تجـد فيهـا الوفـاء للبحـر ، والوفـاء للحب، فبعد سبعة عشر عامًا يوجـه شعره مرة أخرى إلى صخرة بين البحـر والصحراء كان يلتقي عندها مع الحبيبة ويستلهم البحر أشعاره ..

وفي هذه القصيدة تبرز صورة أخرى من صور الحساسية المفرطة يسعد بها صاحبها لأنها تجعل حياته غنية خصبة وواسعة الآفاق ، ويضيق بها أحيانًا ، لما تسببه له من ألم فادح ، ولكنه لا يلبث أن يتمرد على التمرد ويحن إلى مشاعره الفوارة ويباركها رغم الآلام واللوعات :

ســـألتك يـــا صـــخرة الملتقـــى
متـــى يجمـــع الـــدهر مـــا فرقـــا
يـــا صـــخرة جمعـــت مهجتـــين
أفـــاءا إلى حـــسنها المنتقـــى
إذا الـــدهر لـــج بأقـــداره
أجـــدا عـــلى ظهرهـــا الموثقـــا
قرأنـــا عليـــك كتـــاب الحيـــاة
وفـــض الهـــوى سرهـــا المغلقـــا
نـــرى الـــشمس ذائبـــة في العبـــاب
وننتظـــر البـــدر في المرتقـــى

ويحادث صخرة العهد عن حيرة قلبه بين الحب والسلوى :

شكا أسره في حبال الهوى ... وود على الله أن يعتقا
فلما قضى الحظ فك الأسير ... ر حن إلى أسره مطلقا

ويستبد الشوق بالشاعر في وحدته فيذهب إلى البحر، حزينًا ملتاعًا فيسأله عن الحبيبة وأنبائها:

يا نسيم البحر ريان بطيب
ما الذي تحمل من عطر الحبيب
صافحتني من نواحيك يد
تمسح الدمعة عن جفن الغريب
وتلقاني رشاش كالبكا
وهدير مثل موصول النحيب

الشاعر والليل والبحر:

وإذا كان الليل هو عالم الشعراء والمنشدين - كما يقول جبران - فكم من مرة خلف ناجي الحياة وأعباءها وراء ظهره، ولم يكن يتاح له ذلك إلا في المساء، فيقصد البحر فتصفو نفسه وترق وتتدفق مشاعره نغمًا عذبًا:

في هدأة الأظلام ... أحيا مع الأمواج
أحيا على الأنغام ... من مائك الرجراج

ويظل على ولائه لصخرة العهد:

الصخرة السمراء ... راحت تناديني
والنجمة العذراء ... أمست تناجيني

* * *

والرمل والأصداف ... في بهجة العرس

والـــــــــشاطئ العـــــــــراف محبـــــــــب الهمــــــــس

ولكن الإنسان لا يحيا بالعاطفة وحدها ولابد له أن يعيش في دنيا البشر وفيها ما يسر وما يسوء وفي خضمها يختلط الخير بالشر اختلاطًا محيرًا ، وتعلو كلمة الباطل حينًا ويتجبر، وتختنق الحقيقة ويحار العقل وتنتابه الشكوك ، ويحاول أن يخرج من ظلامه وحيرته فلا يجد الطريق سهلاً.

ويقصد ناجي البحر عله يساعده على الخروج من حيرته :

البحـــــــر أســــــأله ويــــــسألني
مـــا فيـــه مــــن رى لظامئـــه
متمــــــردعـــــات يــــضللني
كـــذب الـــسراب عـــلى شـــواطئه

ورغم الحيرة التي لا دواء لها يظل القلب الوفي مفتونًا بالبحر :

قلـــت للبحـــر إذ وقفـــتُ مـــساء
كـــم أطلـــتُ الوقـــوف والإصـــغاء
وجعلـــتُ النـــسيم زادًا لروحـــي
وشربـــتُ الظـــلال والأضـــواء
لكـــأن الأضـــواء مختلفـــات
جعلـــت منـــك روضـــة غنـــاء
مـــرَّ بي عطرهـــا فأســـكر نفـــسي
وسري في جـــوانحي كيـــف شـــاء

ولكن حيرته تلح عليه وتفرض نفسها على فكره ولغز الوجود يستعصي على الحل، ويقيس الشاعر نفسه إلى الأبد فيحس هول الطبيعة وجبروتها وأبديتها .

أما الإنسان فما زال ذلك الكائن الصغير الذي لا يستطيع شيئًا إزاء القدر عندما يقسو عليه ويتنكر له :

وهدير الأمواج يعصف كالرعـ ـب بنفسي وفي وحدتي الخرساء
صارخ أنت في ظلام على الأر ض وإن كنت في شفيف الضياء
أنت أعمى يسير في وحشة القفـ ـر وحيدًا يدب في الظلماء

وهكذا ترجح كفة الأسى ويروح ناجي يلتمس الأعذار للبحر الذي لا يستطيع أن يرقأ له جرحًا :

نشوة لم تطل صحا القلب منها مثلما كان أو أشد عناء
إنما يفهم الشبيه شبيها أيها البحر ! نحن لسنا سواء
أنت باق ونحن حرب الليالي مزقتنا وصيرتنا هباء
أنت عات ونحن كالزبد الذا هب يعلو حينا ويمضي جفاء

* * *

كل يوم تساؤل ليت شعري من ينبي فيحسن الأنباء
ما تقول الأمواج ! ما ألم الشمـ ـس فولت حزينة صفراء
تركتنا وخلفت ليل شك أيدي ، والظلمة الخرساء
وكأن القضاء يسخر مني حين أبكي وما عرفت البكاء
ويح دمعي ، وويح ذلة نفسي لم تدع لي أحداثه كبرياء

هل في هذه الأبيات ما يوحي بأن ناجى قد تنكر للبحر ؟ أبدًا ، أن الصلة القوية بينهما تبقى والإحساس بالقرابة الروحية يزداد عمقًا ويروح ناجي يحلل مشاعره ويعترف للبحر أن التصور يأتي من ناحيته هو :

هو روحي الذي يحاكيك في البأس ولكن يؤوده عبء جسمي

فـإذا مـا اجـتلاك والجـسم غفـلان توخـــاك في مـــضاء وعـــزم
هـو روحـي الـذي يحاكيـك يـا بحـر ويخـشى قلبـي الجـزوع أذاكـا
ضعضع الجسم عزم روحـي المعنى يـا أخـا الـروح بـث فيـه قواكـا

أين شط الرجاء:

وعندما يكون ناجي في المدينة ولا يجد سبيلاً إلى البحر يقصد إلى النيل يبثه صباباته ويشكو الحرمان والظمأ :

يـــا نهـــرُ روّيـــت كـــل ظـــامي
فـــراح رّيـــان إن يـــذُقْ
فكـــن رحـــيمًا عـــلى أوامـــي
فَـــلي فَـــمٌ بـــات يحـــترقْ

***

يـــا نهـــر لي جـــذوة بجنبـــي
هادئـــة الجمـــر بالنهـــار
فـــإن دنـــا الليـــل برحـــت بي
وســـاكن الليـــل كـــم أثـــار

***

وقفـــت حـــران في إزائـــك
فهـــل يـــرى منـــك مـــسعد
وددت ألقـــى بهـــا لمائـــك
لعلهـــا فيـــه تـــبرد

ويشكو ناجي إلى النهر هوان الحياة والإحياء .. يستعرض تلك الصور التي

كان يتمنى أن تختفي من الحياة ولكنها تزداد وتتكاثر ويصاب الشاعر بالوجوم والأسى الذي لا يستطيع له دفعًا ويشكو محنته بالناس إلى النهر :

طـــال بنـــا الـــصمت والجمـــود
لا البـــدر يـــوحي ولا الغـــدير
يـــا عـــالم الـــضيم والقيـــود
برَّحـــتَ بالطـــائر الأســـير
يـــا أيهـــا العـــالم الأخـــير
مـــاذا تـــرى فيـــك مـــن نـــصيب
أراحـــةٌ فيـــك للـــضمير
أم موعـــدٌ فيـــك مـــن حبيـــب؟

***

مللـــتُ في هـــذه العـــوالم
مهزلـــة المـــوت والحيـــاه
وصـــورة القيـــد في المعاصـــم
ووصـــمة الـــذل في الجبـــاه

ويلج به اليأس فيرى نفسه ملاحًا يستغيث ، والزورق يغرق والبحر لا يأبه ... بل أن ماءه هموم :

أيـــن شـــط الرجـــاء يـــا عبـــاب الهمـــوم
ليلتـــي أنـــواء ونهـــاري غيـــوم

***

الـــبلى والثقـــوب في صـــميم الـــشراع

والضنى والشجون وخيال الوداع

كبرياء الهموم:

ولعل ناجي قد عرف بالتجربة أن البحر يرد إليه إنسانيته ويجلو خصائصه التي لا تجد لها مكانًا في عالم البشر الذين يلتقون ويتفرقون في أسار المادة، ولا فكاك منها إذا أراد الإنسان أن يجد لقمة العيش، ولذا قال في إحدى قصائده:

... وأنا أبدأ يومي بالمساء

وذلك بعد أن ينتهي من أعماله، وعالم ناجي كطبيب له ناحيته الإنسانية الرفيعة، ولكنه طب الأبدان وما يخلفه من انطباعات مفعمة ألمًا وتعاسة .. تعلم ناجي أن يقصد الشاطئ كي يلتقي بالإنسان الكبير الذي يعيش داخله فيرتد إليه إيمانه بنفسه ويعثر على معدنه النقي، ويشعر بتعاسة الحياة وقدرته على مواجهة كل ما تأتي به ...

بين اليأس والرجاء:

ومهما علت نبرة الألم في شعر ناجي فهو يظل دائمًا مفتونًا بالحياة يغفر لها، كما كان يغفر لمن يحب، يهديه إحساسه الفياض ومشاعره الرقيقة إلى مواطن الفتنة والجمال، ولأن عنصره الحب يحس أنه في حضن أمه الطبيعة فلا يرى في الموت نهاية بل اندماجًا في الكون الوسيع فيهتف:

يا ليتني موجة من موجك الهدار
أفنى مع اللجة سرا من الأسرار

وتمضي السنوات والشاعر يحيا بين يأس ورجاء يغزل الفرحة من إحساساته الباطنة فتأبى تجارب الحياة إلا أن تحيلها إلى مرارة وأشجان فلا يرى في البحر «الروضة الغناء» ولا «بهجة العرس» ولا «الظلال والأضواء»:

صـــورة للبحـــر أم صــورة نفـــسي
عنـــدما الـــنفس مـــن اليـــأس تثـــور
قـــد عـــلا المـــوج وقـــد عـــز التـــأسي
لم يعـــــد إلا عبـــــاب وصـــــخور

* * *

غـــرب الحـــظ كـــما مـــال الـــشراع
هكـــــذا الأعـــــمار في الـــــدنيا تميـــــل
وسرت في الجـــــو أشـــــباح الـــــوداع
وتنـــــادى كـــــل شيء بالرحيـــــل

وهكذا يمضي العمر بين يأس ورجاء . بين لهفة محرقة وأمل لا يتحقق حتى تلوح مغارب العمر وأطياف الوداع والشاعر لا يجد في الدنيا بابا للعزاء ، ولكنه ينظر إلى ما وراء البحر ويهتف:[1]

أإذا اشـــتد عـــلى القلـــب الـــبلاء
أإذا جـــار عبـــاب وتنـــاهي ...
تعـــصف الأمـــواج عـــصفًا بالرجـــاء ؟
كيـــف ننـــسى أن للكـــون إلهـــا ؟

١) المرجع السابق.

الهمشري والبحر:

كان لشاعر الأعراف محمد عبد المعطي الهمشري صلة عميقة بالبحر ، وكيف لا وقد استمد منه أشهر ملحمة ارتبطت به وهي شاطئ الأعراف ، حيث يحدثنا عنه وعنها صديقه الشاعر مختار الوكيل ، فيقول :

كثيرًا ما كنت أتوق إلى الكتابة عن الهمشري الشاعر العاطفي الرمزي الذي عرفته في باكورة الشباب طالبًا بمدرسة المنصورة الثانوية ... فقد التحقت بتلك المدرسة عام ١٩٣١ لأجد بين صفوف تلاميذها طالبين ألمعيين متميزين بما ينظمان من الشعر المتألق الأنيق الرفيع ، وهما الشاعران صالح جودت ، رد الله له كامل الصحة ، وألبسه ثوب العافية وحفظه ذخرًا لدولة الشعر والأدب - والشاعر محمد عبد المعطي الهمشري ...

عرفت الهمشري كما قدمت في تلك الآونة ، وكان يقول الشعر في كل شيء : قاله في معرض الفكاهة عندما سقط فأر في إناء العدس بمطبخ المدرسة ، واشتهرت تلك الأبيات في حينها وتناقلتها الأفواه ورددتها الألسن ، ولعل أبياتا مماثلة في نفس الموضوع نقلت عن الشاعر صالح جودت وذاعت واشتهرت كذلك [1].

وقال الهمشري أبياتًا أخرى في ابنة مدرس اللغة الفرنسية (المسيو بياجي) ، وقد جاءت أبياته تلك عندما أخرج الأستاذ الفنان «رجب» مسرحية للمدرسة قام فيها المرحوم الأستاذ السفير أحمد فتحي رضوان بدور الآنسة ، وقد تولى الأستاذ «رجب» عمل الماكياج بحيث أصبح الأستاذ رضوان على صورة قريبة من صورة الآنسة (بياجي) فما كان من الهمشري إلا أن حيا صانع الماكياج ، البارع بقوله :

(١) الهلال ، ملحمة شاطئ الاعراف ، د . مختار الوكيل ، مايو ١٩٧٦ .

أهـــلا بمبـــدع صـــنعة الماكيــــاج   أخرجـت كـل فتـي كبنـت بيـاجي

وهذا البيت وأمثاله عرف وذاع عن الهمشري في مناسبات عديدة كما عرفت وذاعت أبيات مماثلة عن الشاعر الكبير صالح جودت، وكنا نحن نرددها سعداء بأن يكون بيننا أمثال هذين الشاعرين الموهوبين!

ومرت الأيام، والتقيت بالهمشري وصالح جودت في رحاب (أبو للو) عندما أنشأها الشاعر العبقري الدكتور أبو شادي عام ١٩٣٢ بالقاهرة. وكنا نجتمع بدار المجلة في حارة (عمر شاه) بحي السيدة زينب، حيث كان الدكتور أبو شادي يتولى فتح الأبواب لشتى الأحاديث الأدبية والفنية، وهو يصحح «بروفات» المجلة وعيناه لا تفارقان صفحاتها، وحيث كان الشاعر حسن كامل الصيرفي غاد رائح بالبروفات، ينهمك في إعداد صفحات المجلة، وهو يطلق النكات والقفشات الرفيعة التي يهش لها الجميع، وحيث كان الشاعر إبراهيم ناجي يلقي بعض شعره العاطفي بطريقته الموسيقية ذات الطابع الشخصي الآسر...

وكان الهمشري يشارك إخوانه أحاديثهم الأدبية الطلية في مختلف آفاق الأدب والفن ولكن بمقدار، فقد كنت ألاحظ أن فكره يسرح بعيدًا عن الجو الذي يحيط به. كنت أراه حاضرًا بجسمه وكيانه غائبًا بروحه وخياله، وقد غشت وجهه الجميل سحابة رقيقة من التفكير والتأمل تحاول ابتسامته (الجيوكندية) أن تلقي عليها ستارًا خداعًا وكان الهمشري جميل الصورة كما قدمت، أنيق الملبس، إذا غشى مجلسًا لا يستطيع المرء أن يتحاشى النظر إليه، فقامته الممدودة الممشوقة، وبناؤه الرياضي وأكتافه العريضة، وزيه الأنيق وملامحه الدقيقة، كانت كلها مما لا تستطيع العين الإنسانية أن تقتحمه أو تتجاوزه.

ولقد صدق أخي الشاعر الكبير صالح جودت عندما قال يصفه في مقدمة ديوان الهمشري الذي تولى مشكورًا جمعه وتحقيقه : (كان يفيض قوة وشبابًاو حيوية ، فهو عملاق ، عريض المنكبين ، تكاد حمرة الشباب تقفز من خديه ، لا يشكو شيئًا في جسده ، يحب أن يتأنق في ملبسه ويتخذ رباطات عنق ذات ألوان زاهية كألوان مناديل صدره ويزين عروة سترته دائمًا بوردة كبيرة حمراء) ...

وهذه صورة صادقة في وصف الهمشري . ومع ذلك فقد كانت له سبحات وشطحات ، فتارة كان يوقد الشموع في بيته ويؤثرها على نور الكهرباء ، وكان يطلق البخور عندما ينظم الشعر، ويستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، وكان أميل ما يكون إلى العزلة !

ولقد عجبت كيف اتجه هذا الشاب المتدفق حيوية ورونقًا وبهاء إلى الشعر الحزين الأسود هذا الاتجاه العارم ، بعدما شاع عنه وذاع من نظم الشعر العاطفي الرومانسي العذب الحنون ، وساءني أن أعلم أن مأساة عاطفية نزلت بساحته ، وزلزلت قلبه ، وما لبثت أن غيرت مجرى حياته وقلبته رأسًا على عقب. لقد أحب الهمشري ... أحب حبا عظيمًا ! لقد وقع هذا الفارس المتألق في حومة الغرام فريسة هينة لفتاة أحلامه التي لم ترحمه ولم تشفق عليه ، فكانت عاقبة ذلك الحب الخيبة واليأس والحرمان . ومات الحب وهو بعد في ريعانه ثم كان ذلك الاتجاه الحزين الأليم الذي ران على شعر الهمشري ، وكانت تلك الابتسامة (الجيوكندية) ، التي تناضل لكي تبدو على شفتيه أثناء حديثه مع رفاقه ومحبيه . ولكن عبثًا حاولت الابتسامة إخفاء حزنه الصادق أو مداراة إخفاقه في ذلك الغرام الفريد الذي التقى به في مطلع الشباب !

وهكذا كانت ملحمته الرائعة (شاطئ الأعراف) التي بدأ نظمها وهو بعد في ميعة العمر وطراوة اليفاعة ، (بين الخامسة عشرة والثامنة عشرة) ، وهو بعد يطلب العلم بمدرسة المنصورة الثانوية ، ولقد نشرت بعض مقاطعها الأولى في

مجلة (السياسة الأسبوعية) فأحدثت دويًا في الوسط الأدبي حينذاك ، فلما جاء إلى القاهرة في أعقاب نشره بعض مقاطع الملحمة في (السياسة الأسبوعية) ازدادت نيران مأساته الغرامية اشتعالاً وفي ذلك يقول : (وكان ما خفت أن يكون ، فقد هاجت سماء المدينة الأزلية (القاهرة) وروحها الناعسة الحالمة على أعتاب القدم والأبد ، أقول هاج كل ذلك الحزن إلى أبعد قرارة في نفسي ، ولا سيما حينما وقفت على مقربة من الجزيرة أرقب (النيل) من ناحية بدا لي فيها ذلك الأزلي، كأنه شاعر يغني في جانب الموت أغاني تلاشت معانيها في حواشي الألحان) !

وهكذا تراءت له مياه النيل ، وكأنها تغني أغنيات الموت ، ذلك الشبح الرهيب الذي أخذ يطارده في عنف منذ ذلك العهد الغض الرطيب ، ثم أخذ يقتفي آثاره في (نوسا البحر) ـ بلدة أخواله ـ فقد مكث في تلك القرية خمسة أيام عقب زيارته للقاهرة ، ولندعه يقص علينا ما كان من أمره في تلك الأيام الخمسة:

(كنت أختلف في أمسياتها مع قريب لي إلى مكان هادئ يشرف على النيل في مشهد رائع ، طالعته على مبعدة أشجار باسقة من الصفصاف واللبخ والجميز وهائش الغاب ، فكانت تكسبه روعة في الليل ضافية ، وكأنها بعض عباد البراهمة فنيت نفوسهم في ذهول العبادة : .. وهم ينصتون بألف أذن إلى مزامير الألهة : .. ثم كانت بعد ذلك قصيدة (شاطئ الأعراف) ، فالنيل لم يكن غير نهر الحياة والموت في هذه الظلمة المروعة التي كانت تألف نفسي إليها ، وهي رهبة الأبدية في هذه الأعراف أيضًا !) .

وهذه صورة الوصفية الرائعة تنبئ عن صدق في الشعور والإحساس يكاد يكون منقطع النظير ، وقد لا يشعر به غير الشعراء والفنانين ذوي الحس المرهف والخيال المتوثب الصافي المنطلق البعيد ! ولقد صدق الشاعر عندما قال في ختام مقدمته تلك : (لقد انتهت قصيدة شاطئ الأعراف ، ولكن هذه الروح العلوية

التي غمرت سماء حياتي بنور جمالها الباهت الحزين ، وهي تصاحبني في شاطئ الأعراف ما تنفك تصاحبني بعد شاطئ الأعراف !) .

ولقد أحسن شاعرنا الهمشري صنعًا بإهدائه قصيدته (إلى هذه الروح التي أرهفت أذني لسماع أصداء مواكب الآباد ، والتي تتغنى بها كل مشاعري كما يتغنى الجدول بكل أمواجه) ! أجل ، لقد أحسن الشاعر صنعًا بإهداء قصيدته هذه لتلك الروح الموحية الآسرة ، التي غيرت مجري حياة شاعرنا الفذ ، وكانت دليله ومرشده وهاديه إلى نهايته المأسوية في ريعان شبابه على (شاطئ الأعراف) !

ولكن ماذا يعني الهمشري بشاطئ الأعراف ، وما هي رؤيته وتفسيره ووصفه لذلك الشاطئ المجهول ؟

يفسر لنا الشاعر نفسه ذلك بقوله [١] :

« الأعراف ، كما فسرها المفسرؤن مكان بين الجنة والنار !) ولقد أطلق الشاعر هذا الاصطلاح في ملحمته (على شاطئ خيالي يقع وراء عالم الحياة ويشرف على عالم الموت . وبعد أن مات الشاعر حملته آلهة الشعر على زورقها السحري في(بحر الوقت) ورست به على هذا الشاطئ: (شاطئ الأعراف) !

والشاعر يصف لنا كل ما رآه طوال رحلته من عجائب الموت التي تحلم بها كل نفس شاعرية تسلم زمامها إلى الخيال المطلق . وعندما يصل الشاعر إلى شاطئ الأعراف يصف لنا هذا الشاطئ ، ثم يروعه بحر هائج مصطخب يشرف عليه شاطئ الأعراف ، فيصفه لنا :

(هذا البحر هو (بحر الوقت) ، وثمة (قصر خرب) يعترض (بحر الوقت) هو (قبر الليالي):

ثم يشاهد الشاعر موكبًا ضخمًا (من زوارق سحرية يتقدمها فلك عليه خيال

(١) راجع مجلة أبو للو .

ملاك يعزف على قيثارته . هذا هو ملاك الحياة يقود عناصر الوجود من الخير والشر ... إلخ في زوارقها ، ومر ذلك الموكب في (بحر الوقت) واختفى في غياهب هذا القصر الذي هو (قبر الليالي) ، ثم أرخى على العالم ستار العدم والصمت !) .

هذه خلاصة لفكرة ملحمة شاطئ الأعراف ، كما قدمها وعلق عليها الشاعر الهمشري نفسه ، ومنها يتجلى لنا أن الشاعر قد استحوذت عليه فكرة الموت واستأثرت به استئثارًا عجيبًا منذ يفاعته الأولى ، فصاغها هذه الصياغة الشعرية الفنية الرائعة ، في هذه الملحمة الفذة التي أحسب أن الشعر العربي مدين للهمشري الشاعر بها !

ولكن ما مدى أصالة فكرة الملحمة ومدى قدرة الهمشري على تصويرها في شاطئ الأعراف؟

يرى د . مختار الوكيل أن فكرة الملحمة فكرة أصيلة ، فالحياة والموت ضدان متقابلان ، ولكنهما متكاملان . وقد نبهتنا الديانات السماوية على اختلافها إلى حقيقة الموت الأزلية ، وعرض لها القرآن عرضًا مبسطًا ومسهبًا في كثير من آياته لصور الموت بأنه الوجه المقابل للحياة ، كالليل والنهار ، كما عرض للحياة في البرزخ وقد أبدع لنا الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري «رسالة الغفران» التي صور فيها مشاهد متخيلة من الجنة والنار ، كما صور الشاعر الإيطالي «دانتي» (١٢٦٥ ـ ١٣٢١) ومشاهد من الآخرة كما تخيلها في عمله الأدبي الكبير «الكوميديا الإلهية» التي قام فيها برحلة خيالية إلى الجحيم والمطهر والجنة ، فالمعري الشاعر الفيلسوف كان منكوبًا بفقد بصره وانعكس في شعره وأدبه ورسالة الغفران فلسفته التي جاءت مزيجًا من روح التهكم الحزين والتشاؤم والأسى الذي يغلف حياته ، كذلك «دانتي» عكس في كوميدياه الإلهية تجارية المخففة في حياته وغرامياته ! لكن الهمشري كما يذكر د . مختار الوكيل [1] كان في ملحمته لا يخلو من تلك الروح الرومانسية الغنائية العذبة ، فهو مثلاً يقول في

---

(١) الهلال ، مايو ١٩٧٦ .

وصف «جنة الشعراء» في ملحمته :

نـــستطيبُ الجلـــوس في ظـــل أيْـــكٍ

رفـــرف الطـــيرُ فوقـــه أسرابـــا

يتغنـــى بـــين الـــشمار بلحـــن

هـــل ســـمعت القيـــان غنـــت طرابـــا ؟

مـــن وحيـــدين يـــسجعان سرورا

وشـــجيين يـــشدوان انتحابـــا

وجـــرى المـــاء في الغـــدير رحيقـــا

وجـــرت فوقـــه الزهـــور حبابـــا

***

جنـــةٌ صـــاغها الإلـــه مـــن الـــسحر

ففيهـــا صـــبابة الـــسعداء!

نورهـــا مـــن وشـــائع مـــن هـــواء

فهـــي منـــه في رقـــة القمـــراء !

مـــن خيـــال الأشـــعار قـــد صـــاغها الله

ففيهـــا روائـــع الـــشعراء !

ولقد اشتغل كثير من الشعراء بهذه المعاني والاتجاهات الشعرية في العصر الحديث ، وقد طالعت للشاعر علي محمود طه في قصيدته (ميلاد شاعر) أبياتًا كثيرة تتضمن صورًا مماثلة لما ورد في أبيات الهمشري التي أوردتها آنفًا ، وهو مما يدخل في باب توارد الخواطر ، يقول علي محمود طه :

أدخلـــوا الآن أيهـــا المحـــسنونا

جنـــة كنتمـــو بهـــا توعـــدونا

وانـــشروا الـــصفو فوقهـــا والـــسكونا

غــــير لحـــن يــرف فيهـــا حنونـــا

تتغنــــــى بـــــه الطيـــــور وكونـــــا

وتغنــــوا بهـــــا كــــما تـــشتهونا

وصـــــفوها جـــــداولاً وعيونـــــا

وورودًا نديـــــــة وغـــــــصونا

واجعلـــوا جنتـــي قـــصيدة شـــاعر !

وشبيه بهذا ما قاله الشاعر المهجري فوزي المعلوف في قصيدته أو ملحمته (على بساط الريح) التي اشتهرت كثيرًا لما كتب عنها الدكتور طه حسين في (حديث الأربعاء) في الثلاثينات، يصفه بقوله :

(عاش هذا الشاب بين الأمل والذكرى والحنين . وتغنى في قصيدته هذه يأسًا مهلكًا وحزنًا محرقًا لا مصدر لهما إلا الأمل والذكرى والحنين) ولقد تشابه فوزي المعلوف مع الهمشري في مأساته فقد مات كذلك في شرخ الشباب ، وفيما يلي مطلع تلك القصيدة أو الملحمة (على بساط الريح) :

في عبــــاب الفـــــضاء فـــــوق غيومـــــه

فوق نسره

ونجمته

حيـــــث بـــــث الهـــــوى بثغـــــر نـــــسيمه

كل عطره

ورقته

موطن الشاعر المحلق منذ البدء لكن بروحه لا بجسمه

أنزلته فيه عروس قوافيه، بعيدًا عن الوجود وظلمه
ملك قبة السماء له قصر، وقلب الأثير مسرح حكمه
ضارب في الفضاء، موكه النور، وأتباعه عرائس حلمه.

وهكذا نرى أن الهمشري يتغنى للموت غناء عذبًا رقيقًا في (شاطئ الأعراف) الذي تراءى له في خيالاته (المتوحشة) على ضفاف النيل، بين أدواح الصفصاف وأحراش الغاب على شاطئ (نوسًا البحر)، وعلى محمود طه يصف (جنة الشعراء) وصفًا رائقًا متدفقًا متسلسل الرقة في قصيدته (ميلاد شاعر) فهذه الجنة هي التي وعد بها الشعراء المبدعون، وفوزي المعلوف يرى في ملحمته العذبة (على بساط الريح) أن موطنه الحقيقي هو في عباب الفضاء حيث يحلق بروحه لا بجسمه... فعروس قوافيه قد أرسلته طليقًا في أعماق الفضاء حيث يحلق بروحه لا بجسمه ... فعروس قوافيه قد أرسلته طليقًا في أعماق الفضاء، بعيدًا عن الوجود وظلمه ... فهنالك مملكته... في قبة السماء قصره! وفي قلب الأثير مسرحه!

أثمة توارد في الخواطر بيبن هؤلاء الشعراء الثلاثة؟ أم أن هذه الأرواح الرقيقة الشاردة الهائمة قد ألهمت سبحاتها، وألهمت وصف أقدارها ذلك الوصف الرائع المأسوي الرقيق، الذي تغشاه فترة رقيقة من الحزن العذب، وتكتنفه سحابة وطفاء من الأسى الغامض اللذيذ!

ثم يتساءل د. مختار كما تساءل غيره العديد من نقاد الأدب من المؤثر ومن المتأثر من هؤلاء الأدباء.

وهل ثمة صلة روحية بينهم جميعًا وبين أبي العلاء ودانتي .. أم أنها كلها أرواح هائمة في الأثير تبحث في قلقها العبقري عن غايتها، وقد تلهم الأسرار، فتشق لها الحجب والأستار!

ولعل شاعرنا الهمشري كان قد ألهم في ختام ملحمته (شاطئ الأعراف) ، خاتمة حياته وتلك بعض سمات الشاعر الملهم ، فما أصدقه حين يقول وهو يتحدث عن نفسه :[1]

كـــان إنـــشادك المبـــارك فجـــرًا

مـــستهلاً وضيء نـــور الحيـــاة ...

ليـــت شـــعري ، فـــأين أذوي وأينـــت؟

قـــد أقـــرت ألحـــان ذي الأغنيـــات ؟

***

لهفـــي مـــا أراك تبعـــث لحنًـــا

فـــأخبر الـــشعر مـــا دهـــي قيثـــارك !

ســـوءة لليـــد التـــي عطلتهـــا

وعفـــت في غنائهـــا أوتـــارك !!

---

(١) الهلال ، مايو ١٩٧٦ .

علي محمود طه.. والبحر!

ملاح في بحار الحب !

ارتبط علي محمود طه بلقب الملاح التائه منذ صدور ديوانه الأول «الملاح التائه» عام ١٩٣٤ والذي كان في مرحلته الأولى ملاحًا تائهًا في بحار الحيرة والأسى والظنون ، باحثًا عن أمن اليقين ، وعن الأمل المنشود الذي يسعى من أجل تحقيقه في عالم الواقع بعد أن أعياه البحث في عالم الخيال ..

وفي المرحلة الثانية من حياته ـ بعد مرحلة حب المجهول ـ وأسفاره الصيفية إلى ربوع أوربا ومغانيها منذ سنة ١٩٣٨ تحول الملاح التائه في بحار الأسى والحيرة بحثًا عن الأمل المجهول إلى ملاح مرح يجول في بحار الحب والفن والجمال ، ويغرد على قيثارته أشجى أغاريد الحب والجمال وترى د . نازك الملائكة أن تسمية «الملاح التائه» له دلالتها وصلتها بشعره وحياته ذلك أن «الملاح التائه» ليس مجرد عنوان لديوان الشاعر الأول ، كما قد يوهم ظاهره ، وإنما هو ظاهرة واضحة تتصل بالأعماق الروحية والنفسية لشاعريته وحياته ، ومن ثم فهي تشخص الروح العامة التي تسيطر على شعره وتمثل نفسيته على العموم(١) .

وإذن فما دلالة «الملاح التائه» في شعر علي محمود طه ؟

يتألف هذا الاسم من كلمتين هما «الملاحة» وهي السفر في البحار و «التيه» وهو الضلال أو الاستغراق في عالم البحر دون إرساء على شاطئ . والمدلول البسيط القريب لمثل هذه التسمية أن علي محمود طه يحب البحر حبًا خاصًا له

(١) نازك الملائكة : شعر علي محمود طه .

تأثير في ذهنه وروحه وشعره ولذلك ارتأى أن يتيه فيه ملاحًا يمخر البحار ويصادق الأمواج ويكتنه أسرارها . وفي شعره كثير من الدلائل على هذه الصداقة المتحمسة للبحر مثل قوله :

قف من البحر مصغيًا والعبابِ ... وتأمل في المزبداتِ الغضابِ
صاعدات تلوك في شدقها الصخر ... وترمي به صدور الشعابِ
هابطاتٍ تئن في قبضة الريح ... وترغي على الصخور الصلاب

حيث نجد تصويرًا رائعًا ، بلغة تقطر انفعالاً ، للبحر واضطرابه وجنونه ، وكانت قوة البحر وسطوته الرهيبة تجتذب قلبه حتى لقد كتب قصيدة عنوانها «على الصخرة البيضاء» يصف فيها ثورة للبحر جعلت أمواجه تطغى فتغرق قرية صغيرة بمن فيها وما فيها . ولم يقتصر الشاعر على وصف جنون البحر وأهواله وإنما نظم شعرًا جميلاً في وصف هدوئه ووداعته في ساعات الصفو وليالي القمر ، وكثيرًا ما اقترنت هذه الأوصاف بمشاعر الحب العذبة التي ملأت قلبه :

وانتحينا من جانب البحر مجري ... مطمئن الأمواج شاجي الخرير
نزلت فيه تستحمُّ النجوم الزهرُ ... في جلوة المساء المنير
راقصات به على هَزَج الموج ... عرايا مهدلات الشعور
وعلى صدره الخفوق طوينا الليل ... في زورق رخيّ المسير
ورياح الخليج دافئة تثني ... حواشيِ شراعه المنشور
خافقًا فوقنا يدفّ شعاع البدر ... في ظِلّه دفيف الطيور

وقد اجتذب قلب الشاعر أحاديث البحار وروّادها ومغامراتهم وبطولاتهم حتى إنه نظم قصيدة رائعة يحيِّي بها ربان غوّاصة غرقت في اليمِّ خلال الحرب العالمية الثانية ، وقد وضح حبّه للبحر وظمأه إليه كما تشير هذه الأبيات يخاطب

بها الربان الغريق :

يا ابن البحار وليدًا في مسابحها ... ويافعًا يؤثر الجُلّي ويختارُ
ما عالمُ الماء يا ربّان ؟ صفه لنا ... فما تحيط به في الوهم أفكارُ

ولسنا نريد أن نستقصي ما نظم شاعرنا في البحر وعوالمه الغامضة وصوره وأسراره ، لأن ذلك كثير ، وإنما سنختم هذه الجولة بالإشارة إلى مسرحية «أغنية الرياح الأربع» وكل حوادثها تدور في عالم الشواطئ والبحار بحيث لا يهبط ستار المسرح إلا على مشهد ختامي نرى فيه على البعد سفينة مغرقة في البحر وعلى الجرف شاعرٌ يبكيها ويستخلص العبر من مصيرها . كما لا يفوتنا التنبيه إلى أن علي محمود طه ، بسبب حبّه العميق للبحار ، قد ترجم من الشعر الإنجليزي قصيدة معروفة للشاعر جون ميسفيلد نقتطف منها المقطع الأول :

يا فرحتي للبحر أرجع ثانيًا ... متفرِّدًا بعبابه وسمائه
أقصى مناي سفينة ممشوقة ... وبزوغ نجمٍ أهتدي بضيائه
وصرير دفّتها وعزفُ رياحه ... وخفوق قلع أبيضٍ في مائه
وأرى الضباب يرفّ فوق جبينه ... في شاحب من لونه وروائه
يجلوه ألآق رمادي السنا ... متطلع بالفجر خلف فضائه

على أن «الملاح التائه» - إلى جانب دلالته العامة على حب الشاعر للبحر - يملك معنًى رمزيًا خاصًا ، والدليل البسيط على هذا أن علي محمود طه لم يكن ملاحًا بالفعل - خلافًا للشاعر جون ميسفيلد صاحب الأبيات التي اقتطفناها ، وقد كان في صباه ملاحًا حقًا - وعلى ذلك فإن الملاحة والبحر والتيه في شعر علي محمود طه مجرّد رموز إلى اتجاهات روحية وفكرية ملأت قلبه وشغلت حياته . وعلى هذا المستوى ينبغي لنا أن ندرس التسمية .

وأول ما نلجأ إليه في طلب تفسير التسمية قصيدة الشاعر المعنونة «الملاّح التائه» وهذا أولها :

أيها الملاَّحُ قم واطو الشراعا لِمَ نطوي لُجّة الليلِ سراعا
جدِّف الآن بنا في هينةٍ وجهة الشاطئ سيرًا واتبّاعا
فغدًا يا صاحبي تأخذنا موجة الأيام قذفًا واندفاعا
عبثًا تقفو خطى الماضي الذي خلت أن البحر واراه ابتلاعا

فما معنى البحر في هذه الأبيات ؟ وعلام يدلُّ قوله : «لجَّة الليل» و «موجة الأيام » ؟ إن المعنى الواضح هو أن هذا البحر الذي تاه فيه «الملاّح» علي محمود طه ليس البحر الحقيقي وإنما هو بحر الحياة ، لأن «اللجَّة» التي يخوضها هي لجة الليل لا لجة البحر ، والموجة التي يخشاها هي «موجة الأيام» وكلا الليل والأيام يدلان على الزمن والحياة . وعلى ذلك فإن هذه اللجج والأمواج التي يبحر فيها الملاح التائه رمزيّة تدلُّ على الحياة نفسها ولا صلة لها بالبحر .

ونحن نملك دليلاً لا يردُّ على هذا المعنى ورد في القصيدة الجميلة «صخرة الملتقى » وقد قال فيها :

وورائي الصحراء وادي المنايا وأمامي المحيط لجَّ الحياة

ففي هذا البيت رمز الشاعر بالمحيط إلى الحياة نصًا دون ما غموض أو لبس، وقد أضاف كلمة «لجّ» إلى الحياة لا إلى المحيط ليكمل التنبيه الكامن وراء الاستعارة ، فالحياة عند الشاعر محيط هائل له لُجَج .

وقد يكون أقوى حتى من هذا الدليل ذلك الإهداء الذي صدر به الشاعر ديوانه «الملاح التائه»: «إلى التائهين في بحر الحياة» وفيه يتجه الملاَّح الذي تاه في بحر الحياة إلى الذين تاهوا مثلَهُ، وهو اتجاه طبيعي له تبريره في منطق الفكر والقلب . وهذا الإهداء يلقي من الضوء على مدلول البحر الذي تاه فيه «ملاحنا» ما نظنه يكفي لحسم أي جَدَل قد يثار حول الموضوع [1] .

(١) د . نازك الملائكة : شعر علي محمود طه .

ولا نظنه يخفى على القارئ أن تشبيه الحياة بلجة بحر ليس معنىً جديدًا في الشعر، وإنما قاله قبل علي محمود طه غير قليل من الشعراء يهمنا منهم، في هذا السياق، الشاعر الفرنسي «لامارتين» الذي أُعجب به علي محمود طه وترجم قصيدته المشهورة «البحيرة» شعرًا حافظ على روحها وجوهرها محافظة رائعة وإن يكن تساهل في بعض معانيها، وفي هذه الترجمة ورد تشبيه الحياة بالبحر.

إننا في الحياة، في عرض بحر ... ليس نلقي المرساة فيه بأرض
ما به مرفأ يبين ولكن ... نحن نمضي في لجّه وهو يمضي[1]

هذا إذن البحر الذي تاه فيه الملاّح، ومدلوله كما رأينا هو الحياة نفسها. فما مدلول «التيه» في «الملاح التائه»، وهل رمز به علي محمود طه إلى شيء معين كما رمز بالبحر إلى الحياة، لدينا من وسائل الإجابة عن هذا السؤال أبيات من شعره وردت كلمة التيه في سياقها، ومنها هذه الأبيات:

يا فتية الفولجا تحية شاعرٍ ... رقّت له في شدوه الأشعارُ
ملاّح وادي النيل إلا أنه ... أغرته بالتيه السحيق بحار
أبدًا يطوّف حائرًا بشراعه ... يرمي به أفقٌ وتقذف دارُ

وفي وسعنا أن نعيِّن مضمون هذا «التيه» بملاحظة السياق الذي وردت فيه هذه الأبيات وهو سياق تحية الشاعر لمدينة ستاليتغراد التي انتصرت في الحرب ببطولتها وثباتها. فالتيه إذن هو تخطي وادي النيل إلى أرجاء العالم النائية بحثًا عن القيم الرفيعة التي يهيم بها الشاعر كالبطولة والمعرفة والشعر.

وفي هذا النص ترمز البحار نفسها إلى هذه القيم وأمثالها. وليس حبُّ المُثُل غريبًا على علي محمود طه، فمن منّا يستطيع أن ينسى صرختَهُ اللهيفة:

يا ربّ ما أشقيتني في الوجود ... إلا بقلبي ليته لم يكن

(١) الملاح التائه ص (١٩٥).

في المثـــل الأعـــلى وحـــبّ الخلـــود حمّلتـــه العـــبء الـــذي لم يهـــن

وعندما يكون التيه في البحار رمزًا للمعرفة والشعر والمثل الروحية يصبح من المفهوم أن نسمع الشاعر يقول في قصيدة من أواخر شعره :

يقـــودهنَّ عـــلى الأمـــواج في مَـــرَحٍ مـــلاّحٌ وادٍ لـــه بالتيـــه إغـــراء

والمعنى الذي يقصده أن له «ولعًا» بالتيه ، وهذا يلقي ضوء على سبب تسميته لنفسه «بالملاح التائه» فهذا الملاح يعشق التيه ويسعى إليه .

وخلاصة الرأي أن «الملاح التائه» يُعبر عن روح التيه والبحث عن الحقيقة وخوض غمار الحياة والفكر والخيال . وهو يؤكد حب الشاعر للأسرار المبهمة المتمثلة بالبحار ومسافاتها وأعماقها ومما يؤيّد رأينا في أن البحر يرمز إلى السّر والمجهول ، أحد بنود الإهداء الذي صدر به الشاعر ديونه «الملاح التائه» ونصه: «إلى أولئك الذي يستهويهم الحنين إلى المجهول» ، وذلك يوحي بأن الملاح التائه يبحث عن الأسرار والخفايا في بحار الحياة . وقد وردت «السباحة نحو المجهول» في موضع آخر من الديوان :

وقفـــتُ أشـــيع الفكـــر فيهـــا كأنـــه إلى الـــشاطئ المجهـــول يـــسبح

وإنما سمي شاعرنا نفسه « الملاح التائه» لأنه يحبّ هذه السباحة إلى المجهول فالتسمية تشخص اتجاهاته الروحية والفكرية ، مثل حب الأسرار والبحث عن الحقيقة ، والولع بالأسفار ، والتماس التجارب الخصبة ونحو ذلك [(١)] .

فالدكتورة نازك المائكة تعطي تفسيرًا دقيقًا عن صفة الملاح التائه التي ارتبطت بعلي محمود طه الذي يتفق مع تفسير د . طه حسين الذي وصف شخصية الملاح التائه بتلك الحيرة العميقة ، هذه الحيرة العميقة ، الطويلة العريضة ، التي لا حد لها ، كأنها محيط لم يوجد على الأرض . هذه الحيرة التي

(١) المرجع السابق .

تصور الشاعر ملاحًا تائهًا حقًا ، والتي تقذف به من شك إلى شك ، ومن وهم إلى وهم ، ومن خيال إلى خيال ، والتي لا تستقر به على حقيقة حتى تزعجه عنها إزعاجًا وتدفعه عنها دفعًا، ويقذف به إلى حقيقة أخرى لا يكاد يدنو منها ويتبينها بعض الشيء حتى يراها أشد هولاً وأعظم نكرًا ، وإذا هو يهرب منها ويجد في الهرب ، وإذا هو يلتمس جبلاً يعصمه من الماء في هذا البحر الطاغي فلا يجده ، أو قل لأنه لا يكاد يجده ويستقر عليه مستريحًا بعض الشيء مما احتمل من عناء وتكلف من جهد ، حتى يبلغ الماء قمته ، ويوشك أن يغمره كله ، وإذا صاحبنا مفلت هارب يلتمس جبلاً آخر . ولولا أن له جناحين قويين يطير بهما فيبعد في الطيران ، ويرتفع بهما فيمعن في الارتفاع ، لغمره البحر واحتواه الماء ، ولانتهى إلى قرار من الظلمة والهلكة لم يصل إليه الشعراء بعد[1] .

***

هكذا كانت شخصية الملاح التائه ، في المرحلة الأولى من حياته قبل سن الثلاثين أما المرحلة الثانية بعد الثلاثين فحدث تحول في حياة الملاح التائه وفي شعره فأصبح ملاحًا سابحًا في بحار الحب والفن والموسيقا والجمال!

عذاب الرومانسية:

نشأ علي محمود طه في بيئة محافظة بمدينة المنصورة بدلتا مصر ، وكانت بيئة انعدم فيها الاتصال الكامل بين الرجل والمرأة ، وكانت روحه الظامئة للحسن والجمال ، ومشاعره الرومانسية نحو امرأة كمصدر للحنان والحب والإلهام قد أثرت في أحاسيسه وأرهفت وجدانه، فانعكس ذلك في شعر محروم حزين يتغنى بتلك الأطياف البعيدة المنال .

وفي صباه المبكر أحب فتاة يونانية متمصرة اسمها «أنيتا» ابنة صاحب مقهى ثري من اليونانيين بالمنصورة لكن ظروفه المالية الصعبة واختلاف الدين حالا دون تحقيق حلمه بالزواج منها ، فانطوى على نفسه وضاقت الدنيا في وجهه ،

(١) د . طه حسين / حديث الأربعاء .

وتعذب بحبه الرومانسي الذي اصطدم بالواقع المادي المرير وعندما تزوجت أنيتا من شخص آخر ظل يذرف الدمع السخين على تجربة حبه الضائع التي خرج منها بالفشل والإحباط والأسى المتجدد .

فأصبح يميل أكثر إلى الوحدة في ظلال الطبيعة في المكان والموعد الذي كان يلتقي معها فيه لكنها لا تأتي ، ورغم ذلك لا ييأس بل يعود في انتظار مالا يأتي ، فلا يجد أمامه سوى أن يناجي طيفها هائمًا :

أطــالعُ وجهــك تحــت النخيــلِ
وأســمعُ صــوتك عنــد النَّهَــر
إلى أن يمَــلّ الــدجى وحــشتي
وتــشكو الكآبــةُ مني الــضجرْ
وتعجــبُ مــن حــيرتي الكائنــاتُ
وتُــشفقُ منِّــي نجــومُ الــسَّحرْ
فأمــضي لأرجــع مســتــشرفًا
لقــاءك في الموعـــد المنتظـــر

وكان مما يعذبه أنه يعشق الحسن والجمال ولكن الظروف كانت تحول بينه وبين تحقيق أحلامه:

أيهــا الــشاعرُ اعتمــدْ قيثــارَكْ
واعــزف الآن مُنــشدًا أشــعارَكْ
واجعــل الحُــبَّ والجمــالَ شــعارَكْ
وادْعُ ربًّــا دعــا الوجــود وبــارَكْ

ولكنه يعشق الحسن البريء ويهيم بالجمال السامي ، ويتطلع للحب العذري المبرئ من كل الأغراض :

قلــتُ حــسبي مــن الربيــع شــذاهُ
ولعَيْنـــــيَّ زهـــــرهُ اللــــمَّاحُ
نحــنُ طــيرُ الخيــال ، والحــسنُ روضٌ
كلّنـــــا فيـــه بلبــــلٌ صــــدَّاحُ
فَنِيَـــتْ في هـــواهُ منـــا قلـــوبٌ
وأصــــابت خلودهـــــا الأرواحُ

كان يضيق ببادية الأرض ويتطلع إلى آفاق النجوم حيث السمو والبعد عن دونية البشر:

ومـــا ذنـــب روح نمتـــه الـــسماء
إذا ضـــج في الأرض مـــن ســـجنه
تعلـــق مهـــواه فـــوق النجـــوم
وحـــوّم وهنًـــا عـــلى كنِـــه
ليـــــنعم في ظلــــه لحظــــه
ويمـــــلأ عينيـــــه في حـــسنه !

ولكن روحه الظامئة للحب المثالي واصطدامه بالواقع المرير الذي جعله يفقد حبه تظل حائرة حزينة ، فيهيم على وجهه يصرخ من قلب مكلوم ينعي الحب الذي كان ، ولا يجد ما يبل ظمؤه ويروي قلبه المتعطش لنبع الحب الصافي سوى أن يملأ الدنيا أنينًا ويطلق صرخة المحب الحزين:

قرّبـــت للنـــور المـــشعِّ عيـــوني
ورفعـــتُ للّهـــبِ الأحـــمِّ جبينـــي
ومـــشيتُ في الـــوادي يمـــزّق صـــخرَه

قــدمي ، وتُــذْمي الـشائكاتُ يمينــي
وعــدوتُ نحــو المــاءِ وهــو مقــاربي
فنـــأي ورد إلى الـــسراب ظنـــوني
وبـــدت لعينـــي في الـــسماء غمامـــةٌ
فوقفُـــتُ ، فارتَّـــدتْ هنالـــك دوني

ثم لا يجد أمامه سوى الشمس والليل والنار والنور ليسائلها عن سر عذابه وحيرته :

يــا صــبحُ : مــا للــشمس غــير مــضيئة
يــا ليــلُ : مــا للــنجم غــير مبــين ؟
يــا نــار : مــا للنــارِ بــين جــوانحي ؟
يــا نــورُ : أيــن النــورُ مــلء جفــوني ؟

وظل شاعرنا محرومًا من الحب ، كطير مقيد مطوي الجناح يود لو يطير إلى آفاق الحب والجمال ولكن قيود المجتمع والتقاليد حالت بينه وبين هذا الانطلاق.

وظل هكذا حائرًا ما بين مشاعره ورغباته وبين القيود والسدود حتى سن الثلاثين حين جاءته فرصة السفر إلى أوروبا عام ١٩٣٨ وهو في السابعة والثلاثين من عمره بعد أن ساعده اتصاله بحزب الوفد على فتح آفاق السفر أمامه ، فأخذ يكثر من الرحلات الصيفية إلى أوربا فشعر بالتحرر من قيود البيئة والعادات والتقاليد ، فانطلق يعب من متع الحسن والجمال بلا قيود حتى يعوض سنوات العذاب والحرمان ، وانعكس كل ذلك في شعر حسي صريح يصف ويصور مجالي الحسن والجمال دون أن نشعر فيه بحرارة العاطفة أو دفء مشاعر الحب ، ولكنه أحس بفرحة المحروم الظامئ الذي وجد الماء أمامه بعد طول عطش في هجير الصحراء:

شـــــاعرَ النيـــــلِ طُـــــفْ بهـــــا
غنِّهـــــا كـــــل مبتكَـــــر
الثلاثـــــون قـــــد مَـــــضتْ
في التفاهـــــاتِ والهـــــذْر!

مباهج الجمال:

اندفع الشاعر المفتون يعب من مباهج الحسن وألوان الجمال في رحلاته الصيفية الأوربية وهو يقترب من الأربعين، ولا يجد في ليالي الصيف إلا المرأة والكأس الوهاج ومباهج الجمال :

ليـالي الـصيف أحـلامٌ ، تـراءتْ للمحبيِّنـا
تغيبُ الخمرُ والساقي ، ويبقى سحُرها فينا
وهـــذا كأسُـــها الوهـــاجُ صـــدَّاحٌ بأيـــدينا
فهيّا نشرب الليلةَ ، من نبع الهوى العذْبِ
تعـــاليْ نحلُـــم الآن ، فهـــذي ليلـــةُ الحـــبِّ!

وعند بحيرة «كومو» يلتقي الشاعر بأديبة أمريكية حسناء فتجذبه بحسنها الصارخ ويأبى ألا أن يجمع بين بهجة الروح ونشوة الجسد ليعوض آلام الحرمان:

نحـــــن رُوحـــــان عاصـــــفان
وجـــــسمان مـــــن ســـــقَرْ
فاعـــــذري الـــــرُّوحَ إن طغـــــي
واعـــــذري الجـــــسَم إنْ ثـــــأرْ

ثم يصف عينيها الساحرتين فيقول :

بـــــتنَ يلعـــــبن بـــــالنُّهي
لَعـــــبَ الطفـــــل بـــــالأكَرْ
هـــنَّ أصــــفى مـــن الـــشّعاع
وأخفـــــى مـــــن القـــــدَرْ !

لقد بهرت عيناه بروائع الحسن وبدائع الجمال في زيارته الأولى لأوربا ، فلم يستطع السيطرة على نفسه وصاح ولهًا مفتونًا :

أأنـــا الغريـــبُ هنـــا ومـــلءُ يـــدي
أعطـــافُ هـــذي الأغيـــد المـــرحِ
خفَقـــتْ عـــلى وجهـــي غـــدائُرها
فجـــذبتها بـــذراع مجـــترحِ
عرضـــتْ بفاكهـــة محرَّمـــةٍ
وعرضـــتُ ، لم أنطـــقْ ولم أبـــحِ
يـــاربِّ صُـــنعُكَ كلّـــه فـــتنٌ
أيـــن الفـــرارُ وكيـــف مُطّرحـــي
إنيِّ عبـــدتُك في جَنـــي شـــفةٍ
ويـــدٍ ، ووجـــه مـــشرق الوضَـــحِ
ولـــو اســـتطعتُ ، جعلـــتُ مـــسبحتي
ثمـــرَ النهـــودِ ، وُجـــل في الـــسُّبحِ!

ويحث صديقته في بحيرة كومو على الانغماس في بحار اللذة والنشوة :

مـــا تُـــسرِّينَ أفـــصحي إنّ في عينـــكِ الخـــبرْ
الغريبـــانِ هاهنـــا لـــيس يُجـــديهما الحـــذَرْ

نحــــن رُوحــــان عاصَــــفان وجــــسمان مــــن ســــقَرْ
فاعــــذري الــــرُّوح إن طغــــى واعــــذري الجــــسم إن ثــــأر !

وحين أطل على فينيسيا منى نفسه بالملذات لينسى عمره الذي ضاع في أوهام العاطفة الخيالية وورومانسية العذاب ، ليلتمس أحلامه المفقودة في هذه الجنة الأرضية :

هــــذه الجنَّــــةُ ، يــــا ويــــح الأفــــاعي
نفثــــت في زهرهــــا سُــــمَّ الخــــداعِ
آه دعنــــي مــــن أحاديــــث الــــصراع
ضــــاع عمــــري ويــــح للعمــــر المــــضاع
فــــالتمس نهــــزة حُــــبٍّ ومتــــاع
تحــــت أفــــق صــــادح صــــافي الــــشعاع
يــــا شراعــــي طُــــفْ بهاتيــــك البقــــاع
وتهيَّــــــــــأ للقــــــــــاء ووداعِ !

ويمضي الملاح التائه يدعو نفسه إلى انتهاب اللذات قبل أن يمضي العمر وتضيع أحلى أيامه ولياليه :

أيهــــا المــــلاّحُ قــــمْ واطــــوِ الــــشراعا
لِمَ نطــــوي لُجَّــــةَ الليــــلَ سراعــــا
جَــــدف الآن بنــــا في هينــــة
وجهــــة الــــشاطئ ســــيرا واتباعــــا
فغــــدًا يــــا صــــاحبي تأخــــذنا
موجــــةُ الأيــــام قــــذفًا وانــــدفاعا

عبثًا تقفو خُطى الماضي الذي
خِلْتَ أنَّ البحر واراهُ ابتلاعا
لَم يكنْ غيرَ أويقاتِ هوىً
وقفتْ عن دورة الدهر انقطاعا
فَتمهَّلْ تسعدِ الرُّوحَ بها
وهَمتْ أو تطرب النفسُ سمَاعا
وَدعِ الليلةَ تمضي إنها
لم تَكنْ أولَ ما ولّى وضاعا
سوف يبدو الفجرُ في آثارها
ثم يمضي ودواليكَ تباعا !

وفي حسية بالغة يصف بمشاعر المحروم الظمآن كيف أن نهدها يود لو يمزق الثوب الذي يقف حائلاً بينه وبين الانطلاق :

عض في الثوب واشتكى
وطأة الخز والوبر
سمة الطائر المعذب
في قيده نقر !

وأصبح لا يرى في الحياة سوى ليالي الغرام والفن والبهجة ، ولا يجد متعته إلا في ليالي النجوى وأحلام الحب :

حلم مساء أتاحه دهري
غرّد فيه الحبيس في صدري
فنولّيني فليس في العمر

سوى ليالي الغرام والشعر
إني رأيتُ النذير في الأثر
تطلق كفاه طائر الفجر
فقرّبي الكأس واسكبي خمري!

ويرى أن كل عيش ما خلا الحب حرام وأن الحياة الحب والحب الحياة :

كل نجم مهجة تهفو
وعين لا تنام
وشعاع البدر معشوق
به جن الغمام
يا حبيبي كل عيش
ما خلا الحب حرام!

بل أصبح يرى أن الحب الحسي هو نداء الحياة التي تلبيه الأجساد الظامئة :

هو الحب ؟ لا بل نداء الحياه
تلبيه أجسادنا الظامئه
يخف دمي لصداه الحبيب
وتدفعني القدرة الهازئه

أحب علي محمود طه ـ شأنه شأن الرومانسيين ـ المرأة ورآها مصدر الحنان والحب والإلهام والجمال والتي غيرت حياته :

أراها على الأرض طيفَ النعيم
وحُلْم الفراديس فيما مضى
وكانت حياتي مَحْضَ اتِّباع

فـــصارتْ طرائـــفَ مـــن فنِّهـــا
وكـــان شـــبابي صَـــمْتَ القفـــارِ
ورَجْـــعَ الهواتـــف مـــن جِنِّهـــا
فعـــادتْ ليـــالي الـــصِّبا والهـــوى
أرقَّ المقـــــاطعِ في لحنهـــــا
وأفرغـــت بـــؤسي في حِـــضْنِها
وأترَعـــتُ كـــأسي مـــن دنِّهـــا !

ويفلسف انغماسه في عشق النساء وافتتانه بحسنهن وإغراقه في الملذات الجسدية لإحدى ملهماته التي سائلته :

أوَحقًّـــا دنيـــاك زهـــرٌ وخمـــرٌ
وغـــوانٍ فـــواتنٌ وغِنـــاءُ
قلـــتُ : يـــا فتنـــة الـــصِّبا حَفِلَـــتْ
دنيـــاك بالحـــبِّ والمُنـــى والأغـــاني
مـــا أثـــارت حـــرارة الجـــسد
المـــشتاق إلاّ مـــرارةُ الحرمـــان
إنَّ أجـــســادنا معـــــابرُ أرواح
إلى كـــلِّ رائـــع فتَّـــانِ
أنـــا أهـــوى روحيَّـــةَ العـــالم
المنظـــورِ لكـــنْ بالجـــسم والوجـــدانِ

وهي رؤية بعض فلاسفة الصوفية الشاطحين الذين يؤمنون بالوصول إلى السمو الروحي بعد الإشباع الجسدي والوجداني !

ويغرق الشاعر المفتون نفسه في بحار البهجة والمتعة بين المرأة والكأس والموسيقا يحاول أن ينسى أن عمره على هذه الأرض قصير :

الكـــــــأسَ والقيثـــــــارْ
يـــــا ربَّــــــةَ الحـــــسنِ
يـــــا ربَّــــــةَ الأشـــــعارْ
غنِّـــــي بهـــــا غنِّـــــي

* * *

غنـــــي بهـــــا رُوحًـــــا
عُلْويـــــــةَ الـــــــومْضِ
لــــــو أدركـــــتْ نُوحـــــا
عـــــــشنا بــــــلا أرضِ

* * *

عـــــــشنا كــــــأحلامِ
في خــــــاطرِ الأكـــــوانْ
في عـــــــالم ســـــــامِ
لا يعــــــرف الأحـــــزانْ

* * *

هــــــاتي اسْــــقِني هــــاتي
مــــن دَنِّهـــا المختـــــومْ
أنــــــسَي بهــــــا الآتي
مــــن عمــــريَ المحتـــومْ

إنه عاشق فنان يهوي الحسن والجمال لا يريد من الدنيا سوى أن ينفرد وملهمته بين أحضان الطبيعة وأنغام الموسيقا :

رب ليلٍ مَرّ أفنيناهُ ضمًا وعناقا
وأدرنا من حديث الحب خمرًا نتساقى
في طريق ضرّب الزهر حواليه نطاقا
وتجلى البدر فيه وصفا الجو وراقا

* * *

وأصبحت حياة شاعرنا الهائم امرأة وكأس وموسيقا وشعر :

حياتي قصة بدأت بكأس
لها غنيتُ وامرأة جميله !

ولكن هل أشبع علي محمود طه وجدانه وقلبه وروحه من مباهج الحسن مع المرأة والكأس؟

وهل ارتوى من روائع الحسن وبدائع الجمال ؟

وهل عوض سنوات حرمانه ووجد ضالة روحه الظامئة في هذه المباهج ؟

أحزان الملاح العاشق:

لكن الملاح العاشق الذي جاب بحار الحسن والعشق والجمال صدمته أمواج مباهج المتعة العالية وحطمت روحه ، فأحس بالحيرة والضياع وهو يرى ذراعي حواء كحيتين تحطمان ضلوعه وتسرق روحه :

ولفّتْ ذراعين كالحيَّتين
عليّ ، وبيّ نشوةٌ لم تطر
وقد قرّبتْ فمَها من فمي

كـــشقّينِ مـــن قَـــبسٍ مُـــسْتَعِرْ
أشــــمُّ بأنفاســــها رغبــــةً
ويهتـــفُ بي جفْنهـــا المنكـــسرْ
تَبَيَّنْـــتُ في صـــدرها مـــصرعي
وآخـــرةَ العاشـــقِ المتحـــرِ !

ويشعر الملاح التائه بعد أن أشبع الجسد وارتوى أن روحه لا تزال ظامئة وقلبه أصبح أكثر خواء ، لأنها تجارب حسية بلا عاطفة صادقة أو مشاعر دافئة مثل التي افتقدها في مطلع شبابه، فيرى الحسناء أمامه مجرد أفعى تسعى لامتصاص شبابه وسرقة روحه ومشاعره ؛ فيصرخ فيها لتبتعد عنه بعد أن أصبح أطلال روح :

دعينـــيَ حـــواءُ أو فابعَـــدي
دعينـــي إلى غـــايتي أنطلِـــقْ
أخمـــرٌ ونـــار ؟ لقـــد ضـــاق بي
كيـــاني وأوشِـــكُ أن أختنِـــقْ
أرى مـــا أرى ؟ لهبًـــا ؟ بـــل أشـــمُّ
رائحـــةَ الجـــسد المحـــترِقْ
فيالـــك أفعـــى تـــشهيَّتُها
ويـــاليَ مـــن أفعـــوانٍ نَـــزِقْ!

ويحزن على مثاليته التي تحاول أن تطاول السماء ولكن حواء تريد أن تجذبه إلى الطين :

هُـــوَ ابـــنُ الـــسماءِ ولكنَّـــهُ

مـــن الــــنقص تركيبـــهُ والــــتمامْ
صـــنَاعُ الطبيعـــة ، بـــلْ صُــــنْعُهَا
فمنهـــــا دَمامُتــــــهُ والوسَــــــامْ
يُــــسِفُّ إلى حيـــث لا ينتهـــــي
ويـــــسمو إلى قمـــةٍ لا تُــــرَامْ

وفي لحظة حزن وألم يعترف أنه برغم إغراقه في مباهج الحسن والكأس إلا أن الطهر ما زال يملأ حسه ، وأن قلبه كزهرة الحقل البيضاء الصافية :

إن أكُــنْ قــد شربــتُ نَخْــبَ كثـيراتٍ
وأترعــــــتُ بالمدامــــــة كـــــأسي
وتَولّعـــــــــتُ بالحـــــــسان لأنّي
مغــرم بــــالجمال مـــن كـــل جــنسِ
وتَوحَّــدتُ في الهــوى ثــم أشركــتُ
عـــلى حــــالتيْ رجــاءٍ ويـــأس
وتَبـــذّلتُ في غرامـــي فلــم أحـبِسْ
عـــلى لـــذةٍ شـــياطينَ رِجْــــسي
فبرُوحـــي أعـــيشُ في عـــالم الفـــنِّ
طليقًـــا والطهـــرُ يمـــلأ حِــسِّي
تائهًـــا في بحـــاره ... لــــستُ أدري
لِمَ أزْجـــي الـــشراعَ أو فـــيِمَ أرْسي
لِيَ قلـــبٌ كزهـــرةِ الحقـــلِ بيـــضاءَ
نمَتْهـــا الـــسماءُ مـــن كـــلِّ قَـــبْسِ

هـــو قيثـــارتي عليهـــا أغنـــيّ
وعليهـــا وحـــدي أغنّـــي لنفـــسي
لي إليهـــا في خَلْـــوتَي همـــساتٌ
أنْطَقْتهـــا بكـــلِّ رائـــعِ جَـــرْسِ

لقد صدم الشاعر الملاح حين افتقد الحبيبة المثالية التي كانت روحه تهفو إليها ، ودخل في عدة مغامرات عاطفية عله يجد الحبيبة المنشودة التي افتقدها في شبابه ولكنه لم يجد في بحار الهوى إلا السراب والضياع:

لقـــد دَّنـــسَ الجَـــسدُ الآدمـــيُّ
حيـــاةٌ حرَصْـــتَ عـــلى طُهْرهـــا
بكـــى الفـــنُّ فيـــكَ عـــلى شـــاعرٍ
تـــسائِلُه الـــروحُ عـــن ثأرهـــا
نزلـــتَ بهـــا وهْـــدةً كـــم خبـــا
شُـــعاعٌ وغُيِّـــبَ في قبرهـــا
رفعـــتَ تماثيلـــكَ الرائعـــاتِ
وحَطّمْـــتهنَّ عـــلى صَـــخرها
فَـدعْ زهـــرةَ الأرض يـــا ابـــنَ الـــسماءِ
فأنـــتَ المـــبرَّأ مـــن شرِّهـــا
مراحُـــك في الـــسُّحب العاليـــاتِ
وفـــوق المُنِّـــورِ مـــن زُهْرهـــا
فَمُـــدَّ جَناحيـــكَ فـــوق الحيـــاةِ
وأطْلِـــقْ نـــشيدَك في فَجْرِهـــا

وتزداد الظلمة أمام الملاح التائه وهو يخوض عباب الحياة ويضل زورقه في البحار الهائجة لا يجد بصيص أمل أمامه يأخذ بيده :

أدركِ التائـــــهَ في بحــــر الهــــوى
قبـــل أن يقتلُـــه المـــوجُ صراعـــا
وارعَ في الـــدنيا طريـــدًا شـــاردا
عنـــه ضـــاقتْ رقعـــةُ الأرض اتـــساعا
ضـــلَّ في الليـــل سُراهُ ، ومَـــضَى
لا يَـــرى في أفـــقٍ منـــه شـــعاعا
يحتـــوي اللافَـــح مـــن حرقتـــه
وعـــذابٍ يـــشعلُ الـــرُّوحَ التياعـــا
والأســـى الخالـــد مـــن مـــاضٍ عفـــا
والهـــوى الثـــائرَ في قلـــبٍ تـــداعى

ووسط حيرته وضياعه تعاوده نوازع الشوق القديمة لحبه الطاهر البرئ ، فيحاول أن يروضها بلاجدوى :

اهـــدئي يـــا نـــوازع الـــشوق في قلبـــي
فلـــن تملكـــي لمـــاضيّ رجوعـــا
آه هيهـــــات أن يعـــــود ولـــــو
أفنيـــتُ عمـــري تحرُّقًـــا وولوعـــا
آه هيهـــــات أن يعـــــود ولـــــو
ذوَّبـــتُ قلبـــي صـــبابةً ودموعـــا
فاهـــــدئي الآن يالثورتـــــكِ

الهوجِـــاء جبَّـــارةً تـــدكُ الـــضلوعا

ثم يتنبه حس الفنان في نفسه : فيعرض عن زهرة الحياة لأنـه ابـن الـسماء ومراحه في السحب العاليات ، كالنسر ينشر جناحيه عاليًا ويغني للدنيا بأسرها :

فـــدع زهـــرة الأرض يـــا ابـــن الـــسماء
فأنـــــت المـــــبرأ مـــــن شرهـــــا
مراحـــــك في الـــــسحب العاليـــــات
وفـــوق المنـــور مـــن زهرهـــا
فمـــد جناحيـــك فـــوق الحيـــاة
وأطلـــــق نـــــشيدك في فجرهـــــا

* * *

يـــا قلـــبُ مثـــل الـــنَّجم في قلـــق
والنـــاسُ حولـــك لا يحـــسُّونا
لـــولا اخـــتلافُ النـــورِ والغَـــسقِ
مـــــرُّوا بأفقـــــكَ لا يُطلّونَـــــا

* * *

فاصـــفْح إذا غمطـــوك إدراكـــا
واذكـــــر قـــــصورَ الآدميينـــــا
أتريـــدهم يـــا قلـــبُ أملاكًـــا
كـــلا .. ومـــا هـــم بالنبيينـــا

* * *

وصَرخـــتَ حـــين أجنّـــك الليـــلُ

مَتمـــــرِّدًا تجتاحُـــــكَ النَّـــارُ
وبـــدا صراعـــك أنـــت والعقـــل
ولأنـــتما بحـــرٌ وإعـــصارُ

* * *

مـــا بـــين ســـلمكما وحـــربكما
كـــونٌ يبـــينُ ، ويختفـــي كـــونُ
وبنيـــتما الـــدُّنيا ، وحـــسبكما
دنيـــا يقـــيمُ بناءَهـــا الفـــنُّ

إنه الإحساس الحاد بالاغتراب الروحي ، كالطائر يريد أن ينطلق إلى اوسع الآفاق ولكنه حبيس القفص إنها مأساة الفنان الحساس العاشق للجمال الباحث عن الحب المثالي النادر .

يصف علي محمود طه نفسه في مطلع حياته فيقول [(١)] :

«يخيل إليّ أني من قوم آخرين ومن بلد آخر ، فأنا لا أزال أشتاق إلى القريب المجهول وأحن إلى الوطن النازح ، ويشتد بي النزوع أحيانًا فأتمنى لو أطير ، وأتوهم حين يخفق قلبي أنه طائر يريد أن ينهض وأن ضلوعي من حوله قفص يأبى أن ينفرج » !

والأرض ضـــاق فـــضاؤها الرحـــبُ
وخَلَـــتْ فـــلا أهـــل ولا ســـكن
حـــال الهـــوى وتفـــرّق الـــصحبُ
وبقيـــتْ وحـــدك أنـــتَ والـــزمن!

(١) الرسالة : ٦ مارس ١٩٥٠ .

ويظل الملاح التائه يضرب في بحار الحب والجمال ، وتتقاذفه أمواج الشك والحيرة ، وتدفعه صخور الغربة والمرارة من شاطئ إلى شاطئ حتى يرحل عن الحياة وهو في عنفوان رجولته بمدينة القاهرة بعد مرض قصير لم يمهله طويلاً ، ويودع الحياة في ١٧ نوفمبر ١٩٤٩ وهو لم يتجاوز السابعة والأربعين من عمره وعلى شفتيه ابتسامة حزينة وصرخة هامسة حائرة تهتف :

أنـــا مـــن ضـــيّعَ في الأوهـــام عمـــره
نـــسى التـــاريخ أو أنـــسى ذكـــره
غـــير يـــوم لم يعـــد يـــذكر غـــيره
يـــوم أن قابلتـــهُ أول مـــــره!

* * *

عشاق الإسكندرية

وهناك بعض الشعراء الأوروبيين الذين وقعوا في عشق الإسكندرية فعاشوا على ضفاف شواطئها واستوحوا منها قصائد رائعة، ويستعيد الأديب نقولا يوسف (١٩٠٤ - ١٩٧٦) بعض ذكرياته ودراساته حول هؤلاء الشعراء، فيقول :

عاش معنا في هذه المدينة الشاعرة - الإسكندرية - بجوار بحرها، جمع من الشعراء والشاعرات، الأوربي الأصل، السكندري المولد أو النشأة، ممن أحبوا بلادنا، وتغنوا في شعرهم بمحاسنها، وكانوا لها الأوفياء، الصادقين كانت الإسكندرية وطن أولئك الشعراء.

يقاسمونه آماله وآلامه ... منهم من ولد فيها وعاش عمره، وربطته بها ذكريات الطفولة، ورفات الآباء، ومغاني الشباب ... ومنهم من جاءها طفلاً أو صبيًا، وشب بها وشاب .. وهذه باقة من هؤلاء الشاعرات والشعراء الأوربيين السكندريين، المحدثين [1] .

يرى السائر اليوم في «طريق الحرية » بالإسكندرية - وهو «شارع كانوب» البطلمي بالأمس - رافدًا متواضعًا يخرج من ذلك النهج الكبير، على مقربة من حي «كوم الديماس » أو «كوم الدكة» كان يسمى إلى عهد قريب «شارع ليبسيوس» ثم تبدل الاسم فاصبح «شارع شرم الشيخ» - ويتوسطه بيت قديم ذو ثلاث طبقات، يعلوه رقم - ٤ - وعلى بابه لوحة من الرخام كتب عليها بالعربية واليونانية هذه العبارة : «في هذا المنزل قضى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة من حياته : الشاعر الاسكندري - ق «ب» كفافيس ١٨٦٣ - ١٩٣٣» .

(١) الهلال، أغسطس ١٩٧٢، نقولا يوسف : شعراء أوربيون على ضفاف الاسكندرية .

وعلى بعد خطوات من هذا المنزل، ما زال يقوم بيت عتيق لم تزل تشغله جريدة «تشيدروموس» اليونانية اليومية وما برحت تصدر منذ تسعين عامًا، طاوية في مجلداتها مئات الأقلام، وأسماء كتاب وكاتبات وشعراء وشاعرات عاشوا تحت سماء الإسكندرية وجاوروا بحرها.

شاعر المدينة العجوز:

وعلى هذا الحي ومقاهيه كان يتردد جموع الأدباء والفنانين أبناء البحر المحدثين من أهل المدينة وزائريها، كما فعل قدماؤهم منذ ثلاثة وعشرين قرنا، يوم كانوا يتمشون في أمسيات الصيف بين شارعي «كانوب» و «سوما»، وبين الأكاديمية وقبر الاسكندر، وبينهم أعضاء رابطة شعراء بلياد - «الثريا» وشيخها الشاعر «كاليماخوس».

ولد الشاعر «قسطنطين كفافي» بالإسكندرية يوم ١٧ من أبريل ١٨٦٣ وتوفي بها في ٢٩ من أبريل ١٩٣٣ شيخًا في السبعين ودفن بمقابر الشاطبي، وكان قد قضى بعض سنى شبابه في استانبول وانجلترا وأثينا غير أنه ظل متشبثًا بمسقط رأسه، لا يعرف غيره، ولا يحب أن يبرحه، ففيه ولد وشب وتوظف وشاب. وبه نظم شعره جميعًا، ومنه الكثير المستلهم من الإسكندرية وبحرها ومن تاريخها القديم والحديث. كما كان يحب مصر وأهلها وله قصيدة سماها: «مصر الحلوة».

وكان والده «بترو» تاجرًا ميسورًا استوطن الإسكندرية عام ١٨٤٥، وتزوج من إحدى بنات القسطنطينية اليونانيات، ثم توفى عام ١٨٧٠ تاركًا أبناءه في رعاية أمهم التي ماتت عام ١٨٩٩ - وعاش الشاعر وحيدًا لم يتزوج، واشتغل مترجمًا عن الانجليزية وإليها في تفتيش الري قسم ثالث»، ثم تقلب في وظائف أخرى حتى عام ١٩٢٢، وكان قد ضعف بصره فاعتزل الوظائف وعاش بقية عمره ينظم الشعر الكثير وينشر منه القليل.

وكان في طوافه بأنحاء هذه المدينة العريقة، التي احتلها الغزاة «الانجليز» ومرح فيها أعوانهم الملاك ـ يشعر بأنه يشابه الطائر الحبيس في القفص، إلا أنه أيضًا أسير الحاجة، أسير الضجر، أسير الحرمان، أسير الزمن الذي يسير به إلى النهاية المحتومة ـ في المدينة التي أصابها يومذاك الانحلال...

وقد صوره «لورانس داريل» في «رباعية الإسكندرية» وختم جزءها الأول «جستين» بقصيدة ترجمها إلى الانجليزية عن «شاعر المدينة العجوز» ـ «كفافي» ـ حين يقول:

تقول لنفسك: سوف اذهب إلى أرض أخرى.

إلى بحر آخر...

إلى مدينة أجمل من هذه بكثير...

ـ قد توجد ـ أو يرجى أن تكون.

فهاهنا كل خطوة تزيد العقدة أحكامًا والقلب مدفون في جسد، ومستهلك.

ما من أرض جديدة يا صديقي.. ما من أرض جديدة يا صديقي.. ما من بحر جديد!

فالمدينة سوف تتبعك!

ولسوف تطوف دون غاية بالشوارع ذاتها.

وفي الأحياء نفسها تنحدر من الشباب إلى الشيخوخة.

وفي البيت نفسه تشيب في النهاية. فالمدينة قفص! وليس ثمة مكان آخر فهذا على الدوام مهبطك الأرضي. وما من فلك هناك يخلصك من ذاتك...

آه... ألا ترى؟

إنك ما دمت قد حطمت حياتك في هذه البقعة من الأرض فقد حطمتها بالمثل في كل مكان على الأرض قاطبة ! » .

ويقول «كفافي» في أبيات عن ملاح البحر بعنوان «الصلاة» ـ وقد ترجمها عن الانجليزية المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد في سياق حديث عنه :

«ملاح آخر أخذه البحر إلى أعماقه ولا تزال له شمعة موقدة .

تحفظها أمه في انتظاره ... تحفظها موقدة أمام أيقونة العذراء عسى أن يصحو الجو في البحر يومًا ويعود إليها.

وتسمع الرياح كلما هدأت من بعيد ولكن الأيقونة تعلم ، وهي تستمع إلى الصلاة ـ

وتشفق أن تقول : أنه لن يعود » .

ولقد ترجم ديوان « كفافي» إلى اللغات الانجليزية والفرنسية والإيطالية بعد أن جمعت أشعاره في اليونانية عقب وفاته في مجموعة تتضمن مائة وتسعين قصيدة ومقطوعة (عام ١٩٣٥) .

وفي عام ١٩٥٧ طبع الديوان مترجمًا إلى الإيطالية ، وظهرت له ترجمة انجليزية جديدة عام ١٩٦١ قدمها الشاعر «أودن» ، وترجمة فرنسية قام بها «جورج بابوتساكيس» عام ١٩٥٨ ... وكذلك وضع عن «كفافي» عدد من المؤلفات النقدية منها كتاب «مالانوس» عام ١٩٤٣ بعنوان: «كفافيس .. حياته وآثاره» وكتاب «ستراتي تسيركا» عام ١٩٥٨ بعنوان : «كفافيس وعصره» ، تحدث فيه عن بيئة الشاعر السكندرية في عهده وأثرها في شعره ، ثم كتاب «مانولي يالوركي» عام ١٩٥٩ عن «كفافي الإنسان والشاعر» ...

بيت قرب البحر:

وكان يعاصر «كفافي» بالإسكندرية عدد من الشعراء السكندريين - يونانيين، وإيطاليين، وفرنسيين - منهم الشاعر «قسطنطين قسطنطيدس» المولود بالإسكندرية عام ١٨٩٠ من والدين يونانيين جاءا من جزيرة رودس. وتعلم بمدارس الثغر وأجاد اللغتين اليونانية والفرنسية والحديث بالعربية، وطالع الكثير من الأدب العالمي .. وكان أبوه يشتغل بتجارة القطن في مدينة ميت غمر. وذهب شاعرنا لمعاونة أبيه في عمله، وتوفى الوالد في ميت غمر ودفن بها، وحل الابن مكانه وخالط هناك الفلاحين وأحبهم وأحبوه.

وقد نظم «قسطنطيدس» الشعر عن الريف والفلاح، وأرض الفراعنة، ولكن نزعته الأدبية طغت على عمله التجاري بالرغم من مكاسبه، فعاد إلى مسقط رأسه وأنشأ مع أصحابه الأدباء ناديًا أدبيًا سموه: «نادى الحياة الجديدة» - وأصدروا عام ١٩٠٤ مجلة «الحياة الجديدة» ظلت تصدر حتى عام ١٩٢٧ وبها نشر شاعرنا الكثير من بواكير شعره، كما نشر بها الشعراء والكتاب اليونانيون أشعارهم ومقالاتهم - ومنهم «كفافي»، و «جيكا»، و «غنفتوس»، و «بابا زافيروبولو»، وغيرهم، وبدأ في نتاجهم جميعًا أثر البيئة السكندرية البحرية ...

وظل «قسطنطيدس» السنين الطوال، والي قبيل وفاته عام ١٩٧١ - يسكن بيتًا قريبًا من البحر تملكه أسرته بحي «جناكليس» برمل الإسكندرية - تطل شرفاته على بيت الفنان السكندري محمود سعيد، ودار المؤرخ بجامعة الإسكندرية جمال الدين الشيال. وفي تلك الصومعة المجاورة لشاطئ البحر وأمواجه نظم الشاعر مئات القصائد والكثير من المؤلفات النقدية والتاريخية مما اجتمع في دواوينه: «أغنية حسناء الشمس» - ١٩١٧ - «وبلسم» - ١٩٢٣ - و «من أبو لو إلى أبو لونية رودس» ١٩٣٥ - وقد استلهمه من زيارة قام بها لجزيرة رودس - و «الينبوع ١٩٣٨» - وغيرها...

ومن قصائده ما يحمل هذه العناوين : «متحف الإسكندرية » ، و «كليوباترا» و «الاسكندر الأكبر يخاطب مصر» ، و «فرعون» ، و«الفلاح المصري» و «النيل بميت غمر» ، و «رودس الأغنية» ، و «قبرص ! ـ الثائرة على الاستعمار» .

كما ترجم بعضا من آثار صديقه الشاعر واصف غالي إلى اليونانية عام ١٩٣٠ ، وسافر شاعرنا في صيف ١٩٧١ للاستشفاء في اليونان وتوفى هناك في ديسمبر من ذلك العام .. مخلفًا نحو العشرين من دواوين الشعر ، والمؤلفات في الآثار والتاريخ والنقد [١] .

عقود حبات اللؤلؤ :

كما كان يعاصره في فترة من الوقت الشاعر السكندري المولد ، والإيطالي الأصل : «جوسيبي أو نجاريتي» ـ الذي أصبح شاعرًا عالميًا ، وقد ولد بشارع منشة بحي محرم بك بالإسكندرية يوم ١٠ من فبراير ١٨٨٨ من والدين هاجرا إلى مصر من مدينة «لوكا» الإيطالية . وتعلم بمدارس الثغر ، وتأثر بالبيئة السكندرية البحرية ، واستلهمها بواكير شعره ، وعرف شعراءها .

ثم غادر الإسكندرية في الشباب ليتم دراسته في باريس ، وتزوج من زميلته الفرنسية ، وعاد إلى روما وجند في الحرب العالمية الأولى ، ثم استقر بروما على إحدى رباها السبع ، وأصدر ستة دواوين شعرية وكتابًا في النثر ـ منها : «الميناء المدفون » و «فرحة الغارقين» و «عاطفة الزمن» و «الفرح» وشهد نصب تمثال صديقه أحمد شوقي بحدائق روما .

ولما زار الإسكندرية مسقط رأسه عام ١٩٥٩ في طريقه ليحاضر بالمركز الثقافي الإيطالي بالقاهرة كان يتحدث عن ذكريات طفولته وصباه بالإسكندرية وعن صديقيه محمد ناجي وأحمد شوقي .. وكانت الإسكندرية ـ كما يقول :

---

(١) الهلال ، مايو ١٩٧٦ .

«حلمه العادي الذي صحبه طوال حياته، وترك على شعره آثار ذكرياته وانطباعاته، وخيالاته» كما كان لبحرها أثر واضح في شعره، وفي تعلقه بالتجديد، وصفاء الديباجة ..

وكان شعره كما وصفه النقاد «أشبه بحبات البللور التي تنتظم في عقود قد لا تتجاوز الكلمتين أو الحبتين في بعض الأحيان»، أو حبات لؤلؤ البحر، وبللورات الأمواج ... وفي صيف ١٩٧٠، كان «أونجاريتي» في رحلة إلى أميركا فتوفى هناك وقد نيف على الثمانين .

أناشيد الصومعة البحرية:

ومن فرنسا قدم إلى الإسكندرية عام ١٨٩٥ صبي في العاشرة، ليمضي بها زهرة العمر، ومن بحرها يستوحي الشعر - هو الشاعر «هنري تويل» الذي جاء مع أبيه المهندس بالسكك الحديدية المصرية، ثم ذهب في فجر شبابه ليدرس الهندسة بفرنسا، وعاد إلى الإسكندرية مهندسًا بالموانئ والمنارات، وما لبث أن أصبح من شعرائها أصحاب الدواوين .

ويروي الشاعر الإيطالي المتمصر «جان موسكاتيلي» - صاحب عدة دواوين شعرية ومؤلفات في الفرنسية والحائز عام ١٩٥٣ على جائزة واصف غالي في الشعر من رابطة «فرنسا - مصر» بباريس - أن الشاعر «هنري تويل» وجد على الشاطئ الرملي بين «المكس» و«العجمي» من ضواحي الإسكندرية، بيتا مهجورًا بنته «شركة قناة السويس» القديمة، فجدد شاعرنا هذا البيت ونمقه، وجعله واحة للشعر والشعراء، ومنتدى أدبيا مقصودًا يؤمه أيام الآحاد من شاء من أدباء الإسكندرية، وكان منهم الشاعر «أونجاريتي» الإيطالي السكندري، والفنان محمد ناجي، والقصاص «أنريكو بيا»، وغيرهم ...

وقد زار هذه الدار يومًا «بيير بنوا»، وهناك قرأ على هذه الجماعة مخطوطته «بئر يعقوب» ... وخلال السنوات الطوال كانت هذه الناحية من خليج

العجمي المشمس ، مهبطًا لوحي «هنري تويل» . هناك نظم قصائد ديوانه الأول: «مصباح الأرض» المطبوع بباريس ١٩١٢ ... ووضع كتابه : «أدب وشرق» المطبوع ١٩٢٠ مصورًا فيه انطباعاته الشرقية والسكندرية ، وشغفه بالإسلام وصوفيته وروحانيته .

وفي عام ١٩٢٧ رحل «هنري تويل» إلى «مونبليه» بفرنسا حيث ظل بقية حياته وفيًا للشاطئ الذي ألهمه فنه ، وبه تغنى في شعر أخاذ رفيع ، وهناك نشر مجموعة شعرية أخرى عام ١٩٣٢ .

ومما نظم «هنري تويل» في صومعته البحرية بالعجمي هذه الأنشودة :

العجمي ، والمصراوي ، والمكس !

سهولي البيضاء ، جزر بلادي ، وطني الأفريقي .

روابي التي تعابثها الريح بين كفيها !

لكم كنت في نسيان عنائي .

والربيع يطوق قمح السهل .

انعطف نحوك وبالكاد تحسين بي .

وفي سبتمبر حين يستحم نخيلك في فجر من ذهب .

لم تكن بي حاجة إلى المسير بقربه .

وهذه اليد في يدي أصفى من الذهب !

ألوان خدود العذارى:

ويجيء إلى الإسكندرية عام ١٩١٩ الشاعر «فرناند ليبرت» قادمًا من فرنسا، ليعلم اللغة الفرنسية بمدرسة رأس التين الثانوية ، مزاملاً هناك الشاعر عبد الرحمن شكرى ، والمؤرخ شفيق غربال .

وكان قد طبع بباريس عام ١٩١٦ أول دواوينه الشعرية : «أصوات من الظل » ، وما لبث أن طبع بالإسكندرية عام١٩٢٠ ديوانه : «ترنتيك» ـ وبالقاهرة : «أغاني البحيرة » ١٩٣٦ ، ووضع كتبًا في النقد الأدبي ، وكتاب «مصر أرض النيل» ١٩٣٩ ، و«جدار الصمت» ، و «ذكرياته بمصر في أثناء الحرب ١٩٣٩ ـ ١٩٤١ » ، كما نشر القصص .

ويمتاز ديوانه : «أغاني البحيرة » ـ كما يقول الشاعر السكندري أحمد راسم . «بطائفة شائقة من الخواطر الكريمة عن مصر .. تصور عاطفة الشاعر في تأثره بالحياة المصرية بأسلوب جزل وخيال جذاب .. ولقد تمكن «ليبرت» بدقة تصويره أن يرجع بنا إلى ساعات مضت كانت سماء مصر فيها وردية اللون لا تستطيع أن تجد لها شبيها اليوم إلا خدود العذارى اللاتي يزيد في جمالهن بعدهن عن الزينة ! » .

وعاش «ليبرت» طويلاً قرب بحر الإسكندرية ، ونظم القصائد في شاطئها، وفي طريقه منها إلى دمنهور وريف البحيرة .

مولد الزهرة العبقرية:

خلال النصف الأول من القرن العشرين ، توالى ظهور الشاعرات الأوربيات السكندريات ، وجلهن من اليونانيات ـ وتوالى نشر أشعارهن في الصحف والمجلات الفرنسية واليونانية بمصر ، وإصدار المجموعات الشعرية تباعًا ، إلى جانب مقالاتهن الأدبية والمؤلفات القصصية والنقدية ، وكانت الإسكندرية ومصر جميعًا موضع حبهن ووفائهن . وكن المريدات المتعشقات للبحر الذي ولدن ونشأن في كنفه، تشدهن إليه ألوان مظهره وعجائب مخبره ، وما دار من الأحداث على مسرحه ، وما نشأ من الحضارات عند شواطئه ، ومن يكدحون فوقه وحوله وبجواره .

ووسط هذه الطاقة من الشاعرات تبدو «افيجيني باليولوغو بترونده» زهرة عبقرية. ولدت بالإسكندرية مع الحرب العالمية الأولى وشبت مكافحة ثائرة شاعرة. وتوفى والدها المحامي السكندري «باليولوغو» وهي طفلة فألحقت بالقسم الداخلي من مدرسة اليتيمات «بيناكيو» بالثغر، ثم بالمدرسة اليونانية الثانوية بالشاطبي.. وأرسلت عام ١٩٣٧ إلى كلية المعلمات بأثينا، وعادت بعد عام لتمارس التدريس. ثم عينت بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٤٤ ناظرة لمدرسة البنات الابتدائية، ثم لمدرسة «أفيروف» الثانوية.

وفي عام ١٩٤٤ أنشأت «بترونده» مدرسة نموذجية خاصة سمتها: «ليسيه الإسكندرية» وأشركت معها المعلمة الأديبة الشاعرة: «أيرين ماريه روسيا»، وسافرت عام ١٩٥٠ في بعثة إلى جامعة السوربون ومعهد التربية بباريس، ورجعت لتدير مدرستها على أحدث النظم، وكانت ترحل للدرس والاطلاع على أحدث الطرق التربوية في الخارج، وزارت لذلك: سويسرا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا وأمريكا.

وتزوجت شاعرتنا من مدرس زميل لها، تحابا وما زالا إلى الساعة شريكين متعاونين.. وظلت تدير مدرستها الخاصة وتعلم فيها مدة ستة عشر عامًا، وتؤلف لتلاميذها الكتب والقصص، والأناشيد والترانيم.. وكانت لهم الأم الرءوم، ولم تنجب أطفالاً، ولها قصيدة تناجي بها آلهة الحب لترزق طفلاً تقر به عينها. وفي عام ١٩٦٠ دعى زوجها القبرصي الأصل للتعليم بمدارس قبرص، فارتحلت معه عن موطنها، وتركت مدرستها لزميلاتها، حتى أغلقت بعدها.. وهي لا تزال تعمل بمحطة الإذاعة في قبرص، ولم تنس المدينة التي بادلتها الحب والوفاء. وهي هناك بالروح مع الأمة العربية.

وكانت شاعرتنا «بترونده»، فيما بين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٥٨ قد طبعت بالإسكندرية تسعة دواوين شعرية، وأربعة كتب تربوية ـ في اللغة اليونانية.

وصدر ديوانها الأول عام ١٩٣٩ بعنوان : «قطرات الندى» . وأعقبته بديوان سمته : «وأغان أخرى» - ١٩٤١ - ثم بمجموعتين نشرتا عام ١٩٤٢ إحداهما باسم : «الخلاص» ، والأخرى : «أغنيات للأطفال » نظمتها لتلاميذها وبها أغان عن البحر ، والنيل ، والقطن ، والنخلة ، وطفل عربي ، وقارب الصيد، والعامل ، والعمل ، والآلات ، والصحة ...

ثم ظهر ديوانها : «نحو النور» ١٩٤٥ ، و «الشرق الأوسط» ١٩٤٦ ، و«سيمفونية الحب» ١٩٥٠ ، و «اهداء» ١٩٥٦ .

وكان آخر ما طبعته بالإسكندرية - عام ١٩٥٨ - من مجموعاتها الشعرية التسع ، ديوانًا باسم : «نطاق الحب» أو «في محيط الحب » .

وبعثت الشاعرة ديوانها إلى الزعيم الراحل جمال عبد الناصر مشفوعًا بحبها لمصر وثورتها وزعيمها ، فأرسل إليها شكرًا وتقديرًا ..

وبين عشرات القصائد والأناشيد التي تضمها دواوين الشاعرة الموهوبة «أفيجيني باليولوغو بترونده» - في مناجاة الإسكندرية وأمجادها ، ومصر وأهلها وكفاحها ، تصادفنا هذه القصيدة المنظومة باليونانية تخاطب بها وطنها السكندري وبحره :

اسمك موفور .. يا وطن روحي !

يا عروس الفنون ، يا اسكندرية !

ها أنت تهبين من سبات السنين ذات المرتقيات والمهابط .

وتطلين على البحر بعين أكثر سطوعًا من عين منارتك !

مواهب شعرية مبكرة:

وعلى شاطئ الإسكندرية - عاصرت الشاعرة اليونانية الأبوين ، السكندرية الموطن والنشأة: «اليزابيث بساراس» - زميلتها الشاعرة «أفيجيني باليولوغو» ،

وشابهتها في سمو الموهبة الشعرية، وفي سعة الثقافة ، وقد عاشت كلتاهما حياتها الأدبية على هذا الشاطئ ، وهناك ظهر نتاجها وانتشر.

ولدت «بساراس» قبيل الحرب العالمية الأولى في قرية جبلية باليونان .. وجاءت في طفولتها مع والدها المحامي المثقف «بنايوتي بساراس» .. وتوفي هذا الوالد في رحلة إلى باريس ، واشتغلت الأم بالتدريس ثم لحقت بزوجها ، وبقيت الفتاة تواجه الحياة «بالإسكندرية » وحيدة طوال عمرها ، ولم تتزوج ، ولكنها استعانت على العيش بقلمها وفنها وثقافتها ، فقد عنى والداها بتثقيفها على أيدي كبار المعلمين ، فأجادت اليونانية والفرنسية والانجليزية ، وبرعت في الرسم والتصوير . وتعلقت بالأدب والاطلاع ، وتجلت مواهبها الشعرية باكرًا » وأخذت منذ فجر شبابها تنشر شعرها باللغتين اليونانية والفرنسية في صحف الإسكندرية ومجلاتها » .

ثم اختيرت منذ عام ١٩٤٢ محررة رئيسية بجريدة «تشيدروموس» اليومية - التي لم تزل تصدر بالإسكندرية منذ سنة ١٨٨١ - وفي هذه الصحيفة نشرت شاعرتنا المئات من المقالات والقصص والقصائد ، وأشرفت على صفحتها الادبية ، وأخرجت عام ١٩٤٣ مجموعتها المسماة : «الإسكندرية المكافحة » التي استلهمتها من أحداث الحرب العالمية الثانية - الفكه منها والحزين.

ويلاحظ أنها في جل ما تنظم وتنثر تعيش بمشاعرها في هذا الجو السكندري العربي الذي نشأت فيه فهي لم تبرح مصر منذ صباها غير مرة واحدة عام ١٩٥١ حين زارت اليونان ، ثم هاجرت إليها عام ١٩٧٠ للاستشفاء والكتابة في الصحف ، بعد أن ملأت الفضاء شعرًا ، فنظمت عن الإسكندرية في حاضرها وأمسها ، وعن بحرها وبرها . وعن مريوط ، والنيل ، وحقول القطن والقصب، والفلاح ، ورمضان . وأفردت ديوانًا خاصًا بشعراء العرب نشرته عام ١٩٥٤ ، ترجمت فيه إلى اليونانية - نظمًا - عددًا من القصائد العربية القديمة والحديثة .

البلابل والمزامير الغريبة:

وظلت بساراس منذ عام ١٩٣٥ تصدر مجموعاتها الشعرية والنثرية تباعًا، وقد بلغ عددها حتى عام ١٩٦٠ ستة عشر كتابًا - طبعت جميعًا بالإسكندرية - منها تسع مجموعات من الشعر باليونانية، ومجموعتان بالفرنسية، وثلاث مترجمة عن الشعراء الأوربيين والعرب - ففي ١٩٣٥ ظهر ديوانها: «ورد ولهب» وفي عام ١٩٤٠: «على أجنحة النصر» استلهمت قصائده من أحداث الحرب العالمية الثانية، وكفاح الشعوب من أجل حريتها، وما لبثت أن أعقبته عام ١٩٤٢ بديوان مماثل سمته: «اذهب إلى المعركة وعد منتصرًا أو لا تعود» وهي العبارة التي كانت الأم الاسبرطية في القديم توصي بها ابنها في طريقه إلى الميدان.

وفي عام ١٩٥١ ظهر للشاعرة ثلاث مجموعات: «طيور البحر» - و«ورود متناثرة» - وتضم الثالثة عددًا من قصائد بعض كبار الشعراء مترجمة نظمًا إلى اليونانية. وفي ١٩٥٣ نشر ديوانها: «الفراشات» وبه ثمانون قصيدة باليونانية - منها قصائدها عن الإسكندرية، والبحر، ومريوط، وأكتوبر بالإسكندرية - وثمان قصائد عن مصر بعنوان: «أزاهير النيل».

وقد اختصت كتابها النثري: «المزامير الغريبة» بشعراء العرب القدامى والمحدثين وتتخلله نماذج من الشعر العربي ترجمته إلى اليونانية نظمًا، وبه محاضراتها عن: «الأغاني المصرية الشعبية» ترجمت معها نماذج من تلك الأغاني والمواويل ومن الشعر المصري الحديث.. ومحاضرتها عن «الشعر المصري القديم» وبها بعض أناشيد اخناتون.. وثالثة عن «الشعر العربي القديم» وبها مختارات من شعر المتنبي وابن الرومي، وابن زيدون، وعنترة، وامرئ القيس، والخنساء، ومجنون ليلى، وابن المعتز - نحو عشرين شاعرًا عربيًا ترجمت نماذجهم إلى اللغة اليونانية. كما تضمنت هذه المجموعة أيضًا قصائد مترجمة عن شوقي، وخليل مطران، وأحمد راسم.

وفي عام ١٩٥٧ نشرت «بساراس» ديوانًا باليونانية سمته «ليال معطرة» ، وظهر ديوانها : «البحار» عام ١٩٦٠ ومن قصائده : بنات بحري ، ومنارة الإسكندرية ، ومريوط ، والعلمين ، وقصب السكر ، والمصور والزمن ، وأحبك ...

ومن قصائدها عن الإسكندرية والبحر تقول :

البحر الأبيض ، اللازوردي يقبلك...

والنيل العظيم في رقة يعانقك ..

والتاريخ يشع مجدك ...

ـ طفلة أفريقيا تدعين ...

ووليدة يونان تسمين ..

مليكة عظيمة ذات تاجين ..

وطفلة جميلة ذات أمين ..

أمامك تسجد العصور .

وعند كل غروب شمس .

تخلفين صورة متأججة .

في سمائك الذهبية المتوهجة ...

شاعرات مجيدات :

ومع هاتين الشاعرتين الكبيرتين كانت هناك بضع شاعرات مجيدات من بنات البيئة البحرية ـ منهن : الشاعرة «أماليا نيقولائيدي» ، وكانت تعيش بين الاسكندرية والقاهرة ، وظهرت لها مجموعة شعرية في اليونانية عام ١٩٥٢ ، وظلت تنشر شعرها في الصحف والمجلات بمصر ، ومنها قصائدها عن البحر ،

والقاهرة، والأقصر، والفلاح، والآثار المصرية [1].

والشاعرة «ماري ينولي» المولودة عام ١٩١٣ والتي أمضت جل حياتها بالإسكندرية، ونشرت باليونانية عام ١٩٣٣ ديوانها الأول: «أمسيات شحابة» - وبه قصائد من الشعر المنظوم، والمرسل، والمنثور.

والشاعرة: ايرين «ماريه» روسيا - السكندرية، وقد نظمت في اليونانية شعرًا رقيقًا وكتبت القصص والمسرحيات للأطفال. ونشرت رواية «الغرباء» عام ١٩٥١، كما نشر لها بمجلة «بانوراما» الأدبية بالإسكندرية، وبمجلة «فينيكيا» - أي النحلة - بأثينا، الكثير من الشعر والقصص والمقالات ... وكانت تشتغل بالتعليم في مدارس الإسكندرية اليونانية كما كانت ناظرة لمدرسة «فامليادو» واشتركت مع الشاعرة «باليولوغو بتروندة» في إدارة مدرسة «ليسيه الإسكندرية» الخاصة منذ عام ١٩٤٤ حتى توفيت عام ١٩٥٨ ...

***

١) المرجع السابق.

البحر في الأدب الفرنسي

غاص الشاعر عبد الرحمن صدقي (١٨٩٧-١٩٧٣) في الأدب الفرنسي واستخرج لنا بعض لآلئ الشعر التي قيلت في البحر عبر التاريخ ، فيذكر أن

البحر لم يدخل دخول الطاغي المقتحم على الأدب الفرنسي إلا على أثر الحروب الصليبية التي كان قوامها الفرنسيين ، مما جعل العرب يطلقون على الصليبيين اسم «الفرنجة» وهو تعريب « Francs » اسم الفرنسيين القديم . ومعلوم ان الحملات الصليبية دامت نحو قرنين من الزمان ، زادت خلالها الحاجة إلى استعمال السفن الضخام في نقل الألوف من الصليبيين فرسانا ومشاة مع العدة والمؤن ، متجهة في محاذاة الشواطئ إلى شرق البحر الأبيض المتوسط قاصدة بيت المقدس في فلسطين . ثم بعد أكثر من قرن من الزمان ، ما كان في عهد الملك لويس التاسع من عبور السفن الضخام عرض البحر إلى شمال أفريقيا قاصدة مصر ، حيث كانت هزيمة الصليبيين وأسر ملكهم في الخامس من أبريل سنة ١٢٥٠ ، وما كان بعد دفعه الفدية من حملته الصليبية الأخيرة سنة ١٢٧٠ قاصدًا تونس حيث أصابه الوباء وأدركته المنية .

والفضل في خروج السفن بمن عليها إلى عرض البحر منذ القرن الثاني عشر يرجع إلى تقدم الملاحين المطرد في استخدام «البوصلة» ، أي بيت الإبرة ذات السن المغناطيسية التي يهتدون بانجذابها نحو نجمة القطب الشمالي إلى تعيين سائر الجهات.

كانت الموضوعات الدينية هي الغالبة في فرنسا طوال العصور الوسطى على الفنون الأدبية، وأكثرها كان يكتب شعرًا بها في ذلك المسرح الذي كان أروجها، وأشدها ملاءمة لإرضاء الأذواق وموافقة الأهواء عند سائر الطبقات من عامة الناس والنبلاء والسيدات والعلماء .

وإذا نحن ذكرنا أن قمة النجاح لهذا المسرح - في الأعوام المائة الأخيرة في العصور الوسطى - ترجع إلى المسرحيات الدينية المسماة « الأسرار » التي تتعرض لوصف الجنة والنار ، مع الافتنان - على نحو يكاد يخلو من الجد لمجاوزته الحد - في تصوير الزبانية الشياطين ... إذا نحن ذكرنا ذلك ، أدركنا ما كان من استغراق أهل تلك العصور - نظريًا على الأقل - في عالم الغيب ، حتى صرفهم عن آيات الله في عالم الشهادة ، فلم يعنوا عناية تذكر بوصف بديع صنعه تعالى في مجال الطبيعة في هذه الحياة الدنيا ، وتصويرها كما هي في خلقتها الطبيعية نابضة حية .

هذا البحر ، نضرب المثل على وجوده عند شعراء العصور الوسطى ، بتقديم هذه المقطوعة باللغة الفرنسية القديمة في القرن الثاني عشر وهي للشاعر « فيليب ذي توم» من شعراء الجنوب الفرنسي ، وهم المشهورون باسم «التروبادور» جيران العرب من الجانبين : الأندلس والصقليتين (جزيرة صقلية وجنوب شبه الجزيرة الإيطالية) . وهذه ترجمتنا لها :

هذا البحر ، تغشاه عروس الماء

وإذا هاج عليه الإعصار طاب لها الغناء .

إن لها جسم المرأة حتى حقويها

وساقاها كمثل ساق الصقر ، وكالسمكة ذيلها .

فإن هي أرادت أن تدخل السرور على قلبها .

عمدت إلى الغناء فرفعت به صوتها الرخيم .

فلا يكاد يسمعها النوتي الملاح .

حتى يسكر حسه وينام ذاهلا عن نفسه .

فمن تكون عرائس الماء هذه ؟

إنهن عروض الحياة الدنيا وزخارفها .

ومن هذا البحر ـ بحر الحياة المضطرب .

تطلع فتنة هذه الدنيا .

أما السفينة فترمز إلى راكبيها ، أبناء الأرض .

ولما كان النوتي الملاح رمزًا للنفس .

فالسفينة هي الجثمان الذي يحتوي نفس الإنسان .

* * *

والمغزى : أن النفس حين تقارف الإثم .

يأخذها السبات إلى أن يسلمها إلى الموت .

وهكذا دخل «البحر» في أدب العصور الوسطى ، عصور الإيمان ، رمزًا للدنيا الغرور ، المتقلبة، الخادعة ، الغدارة التي ليس لها أمان .

البحر والأساطير اليونانية :

في القرن السادس عشر ، جاء عصر النهضة باعثًا التراث الدفين الذي كادت تعفي عليه السنوات ، من علوم اليونان والرومان وآدابهم وفنونهم ، وهم أهل حضارة بعيدة عن الروح المسيحية . فلا غرو أن يتحول الاهتمام في فرنسا وعند أهل الغرب منذ ذلك العهد ، عن البحث في أمور الدين وما وراء الطبيعة، إلى طلب المتعة في الحياة الدنيا وعبادة الجمال في الإنسان والطبيعة.

فكانت أولى مظاهر هذا التحول : أن تنكر الجيل الجديد لكل ما يمت إلى العصور الوسطى من قريب أو بعيد ، لا في الآداب والفنون فحسب ، بل في أسلوب المعيشة الفردي والاجتماعي، ومفهوم المسلك الأخلاقي ، وبالجملة في النظرة إلى الحياة من حيث المبدأ والهدف .

ولقد بلغ جيل النهضة من الفنانين والأدباء في الغرب المسيحي ، ومنه فرنسا ، ومن حماسته لهذا التراث القديم للعلوم والآداب والفنون ، أن تقبلوه على علاته ، وتأثروا به كله حتى أساطيره الدينية وتماثيل آلهته الوثنية ، إلى حد أن صار لها نصيب عظيم من أعمال فناني النهضة من مثالين ورسامين ، سواء من حيث الموضوعات أم من حيث الطابع الفني ، والمبالغة في التجسيم ، وأبراز التقاطيع الجسدية في الجنسين ، حتى في الشخصيات الدينية .

وقد ظهرت بطبيعة الحال هذه الظاهرة بعينها وبنفس هذا الجلاء . بل أجلى منه وأطول منه زمنًا ، في الأدب الفرنسي الكلاسيكي طول عهده . من القرن السادس عشر حتى القرن الثامن عشر في المسرح وسائر الفنون الأدبية التي تكتب شعرًا .

وفيما يلي تأييد لما ذكرناه عن هذه الظاهرة السائدة على الشعر الكلاسيكي في وصف الطبيعة، وخاصة «البحر» وما يجري مجراه ونبدأ بأكبر شعراء النهضة في فرنسا غير مدافع ، وهو « رونسار» Ronsard الذي يكفي لإظهار مبلغ حماسته للشعر اليوناني القديم قوله في مقطوعة من أجمل مقطوعاته الشعرية التي يتغزل فيها على عادته بالحسان :

«أريد أن أقرأ «إلياذة هومر» كلها في ثلاثة أيام .

«فأغلق الباب بأحكام ، وامنع الزيارة عني ، يا غلام » .

هذا الشاعر الذي ذهب في شدة حرصه على إعادة القراءة لملحمة «هومر» العتيقة ، أن حرم نفسه ثلاثة أيام ولياليها من زيارة حسنائه المعشوقة ... اتفق في زمنه ، وعلى وجه التحديد في سنة ١٥٧٠ ، أن هاجم الأتراك في عهد السلطان سليم الثاني جزيرة قبرص في البحر الأبيض المتوسط ، لانتزاعها من جمهورية البندقية التي بسطت سلطانها عليها منذ سنين . فماذا فعل شاعر النهضة المسيحي؟ أنه ـ في تأثره بالشعر اليوناني القديم ـ اتجه بالدعاء والابتهال إلى ألهة

الجمال «فينوس» باعتبار أن ميلادها كان هنا من زبد البحر بالقرب من هذه الجزيرة، فهي حاميتها، وفي مستطاعها بكل تأكيد حمايتها، لأن عشيقها هو «مارس» إله الحرب نفسه وحسبنا هذه الإشارة إلى مقطوعة شاعر النهضة، فما نظن بالقارئ حاجة إلى المزيد من التفاصيل الوثنية التي أشرنا لها.

ولعل هذا الشعر وأمثاله، قد جاء من اتصال «رونسار» وأمثاله الشعراء من قبله وبعده، بالبلاط. ومع ذلك، فقد كان للشاعر - وهو شاعر الملك - من استقلال الشخصية والشجاعة الأدبية، ما جعله يخاطب «شارل التاسع» بهذين البيتين من قصيدة له في التهنئة بتنصيبه بعد بلوغه سن الرشد وتسلمه مقاليد الحكم:

«مولاي! كونك ملك فرنسا ليس كل شيء.

« فلابد من أن يكون للنسب، ما يشرفه من صفات الفضيلة ».

ونحن نخطئ في حق « رونسار» أشد الخطأ، إذا أطلنا الوقوف عند كونه «شاعر الملك» فقد كان أكبر من ذلك بكثير. فلقد نظم العدد العديد من مطولات القصائد الوطنية التي تشتعل حماسة وتفيض إخلاصًا، كما نظم المقطوعات الوفيرة الشهيرة، المحببة للقراء حتى اليوم فيمن أحبهن من الحسناوات. والقارئ لهذه الأشعار الرقيقة - وما يتصل بها من مناجاة الحمامة الورقاء « La tourterelle»- يكاد يحسبها ترجمة لما تقدم في العصور الوسطى من شعر الغزل عند العرب.

وإذا تركنا هذا كله إلى موضوع كلامنا وهو البحر، فإن للشاعر فيه وصفا كأنما استوحاه من القرآن الكريم في قوله تعالى: « وجعلنا من الماء كل شيء حي » وذلك في الأبيات التي يصف فيها رونسار «البحر» بعيدًا عن الاساطير اليونانية المألوفة الاستعمال في عصره ذلك في قوله: «البحر رحم الكون». «La matrice de L'univers» .

وفيما يلي عصر النهضة نكتفي من الأمثلة على غلبة الأساطير اليونانية الرومانية على وصف الطبيعة ومنها البحر في العصور الكلاسيكية بهذا المثال من القرن الثامن عشر ، وهذا القرن التزم الكلاسيكية في شعره ، وإن كان قد مهد في نثر «جان جاك روسو» إلى قيام المدرسة الرومانتيكية التي خلفتها ، وذلك لأن العصر كان عصر انتقال بدليل انتهائه بالثورة الفرنسية الكبرى .

ومن عجيب المصادفات أن الشعر الكلاسيكي الذي اخترناه مثالاً للقرن الثامن عشر يحمل اسم «روسو» مع اختلاف في وسطه ، فهو «جان باتيست روسو » من المشهورين في زمانه وصاحب مدرسة في الشعر ، ولا حاجة بنا إلى القول أن لا وجهِ للشبه بين الاثنين :

على سواحل أرجوس اليونانية

حيث يقبل في جلاله البحرِ ، محطمًا أمواجه على الصخر .

تقدمت صغري فتيات أرجوس إلى إله البحر .

تستعديه على داعر من ساكني الغاب .

من ذلك الجنس الذي ألف الاعتداء على كل كاعب عذراء .

وقد رفعت صوتها مستنجدة :

يا إله البحر «نبتون» العظيم .

«استمع لصوتي الضارع الحزين ، لا تدع طهارتي مطمع الغاصبين ، صن حياتي وسمعتي من كل عشق أثيم ، ويلاه ، لو أن هذا الدعاء ، ضاع سدى في الهواء !

كذا تكلمت فتاة أرجوس الصبية الحسناء ، والدموع تهمي غزارًا من عيونها النجلاء » .

ونقف في الترجمة عند هذا الحد ، تاركين للقارئ أن يتخيل إله البحر «نبتون» يخرج إلى صبية «أرجوس» الحسناء ، مقبلًا على صدفة وضاءة تجرها خيل مطهمة ضخام ، ومن ورائه حاشية جمة العدد من الأعوان ، وفي أثرهم جنيات الماء يترنمن بالغناء على موسيقى يعزفها أفواج من حيوان البحر في أبواق من الودع والمحار ، مما يذهل صبية أرجوس الحسناء عن نفسها وعن موضوع شكواها . ولكن الإله «نبتون» يحييها في احترام ويقدم لها مع ألطف الابتسام بعض ما تكنه بحاره من اللآلئ والمرجان ، فتطمئن نفسها ويتهلل وجهها بالبشر وتلتمع عيناها بالهوى العذري وتفيض بالرضا كل جوارحها . فتركب الصدفة معه وهما يتناجيان ، إلى حيث يضمهما الخدر في أعماق البحر .

وأيا كانت الحال ، فإن هذا الباقي الحي من الأدب . التقليدي في القرن الثامن عشر ، ظهر إلى جانبه من مستحدث الأدب في النثر والشعر ، ما كان له في الأزمنة الحديثة أعظم تأثير[1] .

في الأزمنة الحديثة:

الواقع أن التجديد الذي دخل في الأزمنة الحديثة على الشعر ، واشتهر في الأداب باسم «الشعر الرومانتيكي» في القرن التاسع عشر ، لا يمكن أن يكون تطورًا ، ولو بعيد المدى، مثل شعر «جان باتيست روسو» المتوفي في منتصف القرن الثامن عشر ، لأن الاختلاف بين الجيلين لا يقف عند الفارق في الخيال ، وأسلوب التطوير وضروب الإيقاع الشعري ، بل هو اختلاف يذهب إلى أعمق من ذلك ، إلى ذلك النوع من الحساسية الذي اختصت به المدرسة الرومانتيكية.

وأعجب ما في الأمر ، أن هذه الحساسية التي يؤرخها تاريخ الأدب الفرنسي بالعام ١٨٢٠ وهو موعد ظهور ديوان الشعر المسمى «تأملات» للشاعر الفونس «لامرتين» قد سبق إليها رائد من أدباء القرن الثامن عشر نفسه ، ولكنه رائد من كتاب النثر ، عاش حياته خصمًا للشاعر «فولتير» وتوفى في سنة وفاته . إنه

---

١) المرجع السابق.

الكاتب العصامي الذي تعلم وحده من غير معلم جلس إليه أو جامعة التحق بها «جان جاك روسو» . فهو باتفاق الرأي عند النقاد أجمعين «حد الرمانتيكية» الذي امتد بعد ذلك تأثيره خلال السنين المتعاقبة بدرجات متفاوتة إلى كل الأدب الفرنسي العصري حتى اليوم .

فقد كان الأدب منذ قرون عدة قبله - نثرًا أو شعرًا - باستثناء «فرانسوا فيللون» في القرن الخامس عشر - أدبًا لا يعبر عن صاحبه ، فأدخل عليه - مع الموسيقى الداخلية - تلك الحساسية الشخصية الخاصة ، وذلك القران بل الوحدة بين الطبيعة والإنسان .

وهذه الحساسية الفردية الخاصة التي ظهرت أول ما ظهرت في نثر «جان جاك روسو» منبثة في جميع ما سطره قلمه من سيرته الذاتية ، كالاعترافات ، إلى كتاباته الاجتماعية والسياسية ، وسرعان ما سرت إلى أكثر من كاتب من كتاب النثر بعده ، وعلى الأخص «برناردان دي سان بيير » الذي يعرفه قراء الشيخ الأديب مصطفى لطفي المنفلوطي في مصر والوطن العربي كله . ولما كان هذا الكاتب الفرنسي ممن عرفوا البحر أول ما عرف ، لمولده بجواره في ميناء «الهافر» الكبير شمال فرنسا ، فقد ترك لنا الكثير عن البحر في كتاباته عن الطبيعة ، نكتفي منها بهذه الفقرة .

«كنت في أيام طفولتي كثيرًا ما أذهب وحدي إلى شاطئ البحر ، فأجلس في تجويف صخرة من الصخور الساحلية مصقول كالحرير أبيض كالحليب ، في وسطه بقايا مما يحمله العباب من النباتات الساحلية فتظل في موضعها تضربها أمواجه المتكسرة المزبدة . هنا كنت أهرب ممن يكبرونني سنًا من الناس ، فأجد الراحة في الشكوى إلى الشمس من استبدادهم ، وكانت الرياح في زفيرها والأمواج في خريرها كأنها تنحازان إلى جانبي .. وتظهران بهذه الأصوات المرددة عطفهما على محنتي وعذابي . وأني لأراهما - الرياح والأمواج - مقبلتان نحوي من

أقاصي الأفق ، وهما تعبران ماخرتان لجة البحر الرجراج الأزرق ، تسوقان أمامها المئات من الأكاليل البحرية . فأتلقاها على أنها من قبيل التحية لي . ثم لا يلبث ذلك اللغط الغامض الذي يتوارد على سمعي من بعيد ، ذلك اللغط الخليط بين اللطيف والعنيف ، من حفيف وعزيف ، ووسوسات وهمهمات ، فضلاً عن الحركات المتصلة الخفية ، لا تلبث في سمعي تشغلني وتستبد بي ، حتى تحتويني وتستغرقني في ما لا آخر له من أحلام اليقظة ... » .

وبعد هذه الفقرة التي ربما تقرأ هنا في العربية لأول مرة ، نحيل القراء إلى قصة لهذا الكاتب معروفة لديهم لا محالة عن الحب المثالي بين «بول وفرجيني» التي عربها على طريقته وتحت عنوان «الفضيلة» أديبنا الشيخ المنفلوطي ، حيث يجدون نموذجًا مشهورًا في وصف هياج البحر ، في المشهد الفاجع لموت«فرجيني» على مرأى من «بول» . من جراء غرق المركب الذي كان يقلها في عودتها إلى الحبيب ، ولابد لنا ـ مع ذلك ـ من تنبيه القارئ إلى أن الترجمة العربية لا تظهر ما كان يتميز به التلميذ المؤلف عن أستاذه من الصبر الطويل على ذكر التفاصيل حتى أدقها شكلاً ولونا وحركة وصوتًا في أوصافه للطبيعة .

ولكن هذا التلميذ الصبور الذي عرفه عندنا الكثير لم يلبث ـ مع بقائه على المسرح الأدبي ـ أن بدا في حجم أصغر من حجمه الطبيعي ، حين ظهر من كتاب النثر على طريقة «روسو» شخصية أخرى ـ هي باعتراف الجميع ، الشخصية الكبرى التي تمثل النثر الرومانتيكي في القرن التاسع عشر .

صاحب هذه الشخصية الأدبية هو «شاتوبريان Chateau Briand الذي كان كالرحالة الكثير الأسفار ، كما كان من رجال السياسة الناجحين ، ومن أنصار العقيدة والإشادة بالدين ، ثم هو ـ أولاً وآخرًا ـ أسبق من أدخل على الأدب الفرنسي ذلك الحزن الغامض .. الأليم في الحس، المحبوب للقلب ، الشهي إلى النفس : ذلك الحزن الذي اشتهر باسم «الحزن الرومانتيكي» ، كما

أطلق عليه النقاد اسم «داء العصر» .

وقد كان مولد هذا الكاتب الناثر الكبير بجوار البحر في بلدة «سان مالو» التي كانت في عصر من العصور مأوى لقراصنة البحار . وسكان المدينة معظمهم من الصيادين الذين يتعرضون في طلب العيش لما يتعرض له أمثالهم في أحيان كثيرة من الأخطار ، من سوء الأحوال الجوية والأنواء وهياج الأمواج ، في خروجهم إلى صيد الحيتان في عرض البحار .

ومن ثمة كانت كتابات شاتوبريان عن «البحر» مستمدة من انطباعاته ومعاناته العملية طوال حياته المديدة الحافلة ، في أسفاره العديدة التي نذكر منها على الترتيب رحلته عبر المحيط الأطلسي ـ الذي يتردد بين أمواجه ذات يوم قائظ ـ في طريقه إلى أمريكا سنة ١٧٩١ ، ومنفاه بعد ذلك إلى انجلترا نحو سبع سنوات، وسفره إلى روما سفيرًا ، ثم رحلاته بعد استقالته إلى اليونان وفلسطين ومصر وتونس وإسبانيا ، ثم سفره إلى برلين ولندن سفيرًا ، ثم مقامه في سويسرا حتى سنة ١٨٣٣ وهكذا حتى وفاته في سنة ١٨٤٨ .

والكاتب الكبير يحدثنا في أول «مذكرات من وراء القبر» التي طبعت بعد وفاته ، فيقول : «ما من يوم مر بي ، وذكرت فيه أول أيامي ، إلا تراءت في أعماق ذاكرتي ، الصخرة التي كان يعلوها البيت الذي ولدت فيه ، والحجرة التي جنت علي فيها أمي أن جاءت بي إلى الحياة ، والعاصفة التي كان هديرها أول ما هز مهد نومي . كما يتراءى لي ساحل البحر الزاخر ، ما بين القصر والقلعة حيث كانت نشأتي رفيق الأمواج والرياح . لقد كان أول ما ذقته من اللذات مقاومتي للعواصف ، ولعبي مع الموت ، وهو ينحسر أمامي إلى عرض البحر . أو يجري ورائي إلى الساحل ... » .

ثم يصف لنا الكاتب الكبير ما كان يشهده في الحين بعد الحين وخاصة في فصل الشتاء من زحام في كنيسة القرية ، والكل ركوع من شيوخ الصيادين

المتقاعدين ، وصبايا النساء الأرامل وأبنائهن ، يصلون وفي أيديهم الشموع على هذا الميت المسجي في التابوت من الصيادين الذين أغرقهم البحر كالعادة كل حين ، من هذا المشهد المتكرر ، عرف الغلام «شاتوبريان» الموت أول ما عرفه في صورة البحر ، أن ذلك البحر نفسه رفيق ألعابه ومسرح أحلامه ـ هو الذي يختطف الرجال من عقر دورهم ومن أحضان نسائهم ، ليملأ به بطنه الكبير ويشبع سمكه ...

ولما كان دور الكنيسة يشمل أيضًا مباركة الصيادين كلما خرجوا للغياب في عرض البحر أيامًا للصيد، فقد اقترنت في ذهن «شاتوبريان» ، منذ هو غلام حتى وهو شيخ فان ، معاني الحياة والموت والدين والبحر [1].

البحر والرومانتيكية في الشعر :

كان القرن التاسع عشر عصرًا للشعر العظيم في فرنسا . فما من عصر غيره طالعنا بمثل ما طالعنا به من الحيوية والتنوع في الشعراء والموضوعات ، في مثل هذا النطاق المحدود من الزمان .

ويعتبر هذا العصر فاتحة عهد جديد للشعر ، دون انفصام تام عما قبله ، كالانفصام الذي قضت به النهضة في القرن السادس عشر القضاء الأخير على عهد العصور الوسطى في أوربا . فنحن لا نزال نرى حتى اليوم بعض الاتجاهات الكلاسيكية الرئيسية قائمة ، يتداول عليها الضعف والقوة باختلاف المؤثرات مع سير النظم الاجتماعية ، وعلى حسب الاتجاهات العلمية فضلاً عن تقلبات الشعور العام تجاه المسائل العامة .

وقد كان أمام الأدباء الفرنسيين منذ مستهل القرن التاسع عشر ، الدراسات التي أثارتها الأديبة النابغة «مدام دي ستايل» في كتابها سنة ١٨٠٠ وعنوانه «الأدب من حيث علاقته بالمجتمع» الذي رددت فيه نداءها «لابد لكل مجتمع

---

١) المرجع السابق.

جديد من أدب جديد» . كما ألمحت سنة ١٨٠٢ في قصتها «دلفين » التي تدور حول حياتها الخاصة تحت هذا الاسم المستعار ، إلى حرية الفرد أمام المجتمع . وأخيرًا قدمت سنة ١٨١٣ في كتابها عن «ألمانيا» نماذج عن أصحاب الأدب الجديد في ألمانيا مثل «جوته» و«شيلر » ، إلى جانب حملات الشاعر الناقد الألماني «شليجل» على القيود الكلاسيكية التي يتقيد بها المسرح الفرنسي ، بدلاً من الانطلاق والحرية .

وقد كان من الطبيعي ، أن يستقبل الجيل الجديد الفرنسي هذه الدعوة ، من مصادرها الفنية - فرنسية وأجنبية - إلى الانطلاق والحرية ، بتلك الفورة الرومانتيكية التي بلغ فورانها قمته سنة ١٨٤٠ ، ولم يهدأ إلا في منتصف القرن .

وكانت الإشارة الأولى هي - كما سبق أن ذكرنا - ديوان «تأملات شعرية» الذي صدر في ١٣ مارس ١٨٢٠ مشتملاً على أربعة وعشرين قصيدة باسم «ألفونس دي لامرتين» .. وإذا بالديوان الصغير ينجح نجاحًا فوريًا ومدويًا ، حتى طبع سبع مرات في تسعة أشهر ، إذ لقي فيه الجيل الرومانتيكي الشاعر الذي كان ينتظره .. ولم يكن الديوان مع ذلك يعرض جديدًا من حيث الشكل والموضوعات فقد كان الجديد شيئًا آخر . أنه هذه الحساسية الجديدة التي تنطق بها موسيقية غريبة عن الشعر الفرنسي ، كأنها مستنزلة من الأفلاك السماوية قد أوحى بها إليه .

والواقع أن الديوان كان من وحى حب عفيف طاهر ، لمن سماها «الفير» - واسمها الحقيقي السيدة «جيلي شارل» - كانت في خريف سنة ١٨١٦ تستشفي في مدينة المياه المشهورة «اكس لي بان» من مرض اشتبه في أنه جرثومة السل .

واتفق في ١٠ من أكتوبر أن كانت في نزهة في زورق على بحيرة «بورجيه» وتعرضت للغرق ، فبادر إلى إنقاذها شاب وسيم في السادسة والعشرين ، هو - كما قد تبادر بالطبع إلى ذهن القاريء - شاعرنا «لامرتين» .. ولما كانا متقاربين في السن ، فقد انعقدت الصلة بينهما ، وتكرر لقاؤهما على البحيرة . ولكن الصلة لم

تدم إلا أيامًا معدودات فقد اضطرت السيدة إلى العودة لرعاية زوجها الكهل الذي اشتد به المرض . ولم يجد الشاب الشاعري ما يغريه بالإقامة بعد رحيلها ، فعاد إلى بلدته «ماكون» .. ولكنه لم يلبث أن حاول الاتصال بها في باريس ، وتجدد اللقاء بينهما في حدائق «التويلري» ، من يناير ١٨١٧ حتى آخر مايو . وكان المرض قد استفحل بحيث لا تخطئه عين الرائي لفرط نحولها وشحوب طلعتها والوهن في مشيتها . ثم انقطع لقاؤهما وغادر الشاعر باريس إلى بلدته .

فلما أن جاء الخريف التالي نازعته نفسه إلى السفر إلى معاهد هواهما في «أكس لي بان» . فلم يتحقق ما كان يحلم به من تجدد لقائهما ثانية في نفس المكان والزمان . فجعل في غيبتها يستعيد على البحيرة ذكريات ما كان ، ويتمنى لو احتفظت الطبيعة بهذه الذكريات تخليدًا لهذا الحب ، فكانت قصيدة الشاعر نفسها «البحيرة» هي الكفيلة - بدلاً من الطبيعة - بتحقيق حلم التخليد المنشود، بفضل خلودها عند أجيال القادمين .

ولم يبق «لامرتين» وحده طويلاً فارس الميدان ، فقد ظهر بعده فتى يصغره باثنتي عشرة سنة وهو «فيكتور هيجو» . وكان «هيجو» قد تعلق بالأدب من صغره ، حتى بلغ من ولعه - وهو طالب بمدرسة الليسيه - بكتابات الناثر الرومانتيكي الكبير «شاتوبريان» وشخصيته ، أنه كان يسطر هنا وهناك على كراساته المدرسية هذه العبارة : «أريد أن أكون شاتوبريان ، أو لا شيء » .

وقد انتهى الأمر أن انصرف الفتى عن إتمام دراساته ، ليتوفر على نظم الشعر . وكان ينتهز كل فرصة للمباريات الشعرية ليتقدم إليها ، بما طبع عليه من الحاسة العملية وروح النضال والمزاحمة على الحياة والطموح إلى الشهرة . فلم تمض سنتان على ديوان «لامرتين» : «تأملات» حتى نشر «هيجو» ، وهو في العشرين من عمره ديوانه «قصائد» ، فبلغ من النجاح ما اقتضى ظهور طبعات في السنوات التالية مع الزيادة فيه في كل مرة حتى سنة ١٨٢٨ .

ولكن المفاجأة الكبرى كانت في سنة ١٨٢٩ حين نشر ديوانه «الشرقيات» الذي جاء بعد موضوعات «لامرتين» العاطفية يكشف عن ناحية أخرى من الرومانتيكية ، وهي الاهتمام بالشرق ، مجلوا في أبهى وأروع ألوانه المحلية .

أن نجاح «الشرقيات » فاق كل نجاح قبله لـ «فيكتور هيجو» نفسه . وقد توالت الطبعات الواحدة أثر الأخرى ، فنفدت ولم ينفد الطلب عليها .. ذلك أن الشاعر أتى بالجديد في الشكل والمضمون ، كما أنه ـ طبقًا لما أسلفنا ـ عنى العناية كلها باللون المحلي الذي صار في المقدمة من أغراض الفن الرومانتيكي . يضاف إلى ذلك أن الشرق الذي وصفه الديوان أو استحضر خياله في هذه الأشعار المشرقة الساطعة ، هو ذلك الشرق الذي كان يشغل أوربا بأسرها منذ بدء التمرد اليوناني سنة ١٨٢١ على الحكم العثماني . فإن هذه الحرب التحررية ، لم تكن قد انتهت تمامًا حين ظهر هذا الديوان وفيه الكثير مما يدور حول وقائعها ، مثل منظومات «كناريس» ، و«نافارين» و «المعركة الخاسرة» و «الطفل» وأمثالها ، بالإضافة إلى لوحات شرقية أو أسبانية مثل : مصر ، وكرم العربية ، والقمر على البسفور ، وغرناطة وغيرها ، وكلها شائقة الموضوع ، قوية الخطوط ، مشبوبة الألوان مع مزج الأنوار بالظلال ، وبالجملة تخاطب الخيال الأوربي أضعاف ما تخاطب العاطفة أو العقل. وقد آثرنا هنا أن نترجم للقارئ ما استفتح به الشاعر ديوان : «الشرقيات» وعنوان المقطوعة: «الطوفان» .

البحر ! البحر في كل مكان

أمواج ، ثم أمواج .

على الدوام أمواج لا آخر لها .

تدفعها على الدوام أمواج لا آخر لها .

لا ترى عين هناك أو هنا .

إلا أمواجًا متراكمة .

تتأرجح كالجبال على سطح الهاوية .

متدحرجة فوق لجج في الأعماق متراكبة متلاحمة .

* * *

وفي الحين بعد الحين تبدو في هذا البحر حيتان .

تسبح أفواجًا بعد أفواج ممتطية ظهر الأمواج .

عارضة زعانفها بلون الفضة .

أو ذيلها العريض الضارب للزرقة .

والبحر كالوادي فيه قطعان الأغنام .

تتراكض فتهتز فروتها الصوفية وسط الزحام .

ولكن بعيدًا هناك ، دائرة من الفولاذ تسد الأفق .

حيث تتصل زرقة السماء بزرقة الماء .

وبعد هذه المقطوعة الصغيرة من فاتحة القصيدة الطويلة التي افتتح بها «هيجو» ديوانه «الشرقيات» ، كنا نود أن نقدم له قصيدة مشهورة من دواوينه الأخيرة وعنوانها باللاتينية Ocean Nox أي « الليل يطلع من البحر » وهي عن فجيعة من فجائع الملاحين ، هبت الأعاصير على سفنهم في البحر الهائج فأغرقتها ، ولا يعرف أهلهم أن كانوا مغرقين أو مفقودين ، فهم نهارا وليلاً حياري على الساحل ينتظرون .

ولما كانت القصيدة من المطولات ، فقد اجتزنا بذكر خلاصتها ، مؤثرين عليها مقطوعة جاءت في أواخر ديوان «الشرقيات» بعنوان «نشوة» Extase ، لم نتمالك أن سرت إليها منا - دون تعمد - هذه النفحة الإسلامية .

كنت وحدي مع الأمواج الطامية في ليلة طلعت نجومها الزاهية

والسماء ليس فيها سحابة

وعلى البحر لا شراع

وناظري شاخص يتطلع إلى الغوص ، إلى ما وراء عالم الحس ،

فإذا الغابات والجبال والطبيعة كلها .

كأنها ـ في همهمة لها مختلطة خافتة .

تسائل أمواج البحر ، ونجوم السموات .

* * *

وهذه هي أمواج البحر

تجيش كالجحافل أيما جيشان

وهذه هي نجوم السموات

تدور في مسراها متصاعدة الأنغام

فيمتزج العالي والخفيض من أصواتها في أتم انسجام .

ويكون جواب الأمواج في البحر

أن تحني هاماتها التي يعلوها ناصع الزبد .

تحية خاشعة لمالك الملك

الرب الرحمن ، الله[1].

١) المرجع السابق.

البحر والشعر الرمزي:

بعد سنين طوال من الفورة الرومانتيكية التي تزعمها في فرنسا «فيكتور هيجو» ، وأعلن المبادئ التي تقوم عليها مدرستها في المقدمة التي كتبها لمسرحيته «كرومويل» سنة ١٨٢٧ ، وبعد أعوام معدودات من قيام المدرسة البرناسية التي خرجت على دعوة الرومانتيكيين المتطرفة للشعر الغنائي من حيث النظم ، الشخصي العاطفي من حيث الموضوع ، وذهبت في معارضتها لها إلى الطرف النقيض ، داعية الشاعر أن يدع التحدث عن نفسه ، إلى الاهتمام بالوصف الجميل الموضوعي للجمال في الأشياء ، وهو ما سموه «مذهب الفن للفن» ... وسط هؤلاء وهؤلاء ظهر شاعر جديد هو «بودلير» وصفه «فيكتور هيجو» بقوله : «لقد أدخلت انتفاضة جديدة على الشعر الفرنسي الحديث » والواقع أن هذا الشاعر فيه من «الرومانتيكيين» حزنهم الدفين ، وروحهم المتشائمة ، ونزعتهم الفردية المتكبرة ، ثم فيه كذلك من «البرناسيين» العناية بالجمال التشكيلي في كل ما يصفونه جميلاً كان أو فظيعًا ، وفوق هذا وذاك ، فإنه زاد على هذه المذاهب اتجاهًا جديدًا للشعر يطالبه فيه أن ينظر إلى الأشياء على أنها رموز ظاهرة لمعان باطنة ، يتعين على الشاعر أن يكتشف وجودها ويستحضرها في خاطره ، ومنه إلى خواطر القراء .

والذي يقرأ ديوان هذا الشاعر الذي ظهر ١٨٥٧ باسم «أزهار الشر» ، ويقرأ كذلك أكثر ما يستطيع قراءته لمن كتبوا عن حياته ، يرى مبلغ تأثره الشديد العميق بالبحر ، ذلك أن زوج أمه القائم على تربيته وهو فتى ، قام بذهنه لكي يصرفه عن الشعر الذي ولع به منذ صغره ، أن يشغله بالأسفار لعله يصبح تاجرًا . فعهد به إلى قبطان يعرفه ، كان على وشك الإقلاع بمركبه الذي سماه «بحار الجنوب» .

وقد أقلع المركب فعلاً في ٩ يونيو ١٨٤١ وعليه الفتى «بودلير» من ميناء «بوردو» الفرنسي، ومخر في المحيط الأطلسي حول أفريقيا حتى المحيط الهندي. وكان من الشواطئ التي أرسى المركب بها، جزيرة مدغشقر وجزائر مورس وبوربون والشاطئ الغربي للهند. واستغرقت هذه الرحلة نحو عشرة أشهر ظل فيها الفتى «بودلير» منطويًا على نفسه مستوحدًا يراعي موج البحار، مستغرقًا في الكآبة والوجوم، وقد اشتد به للعودة إلى باريس الشوق والحنين. وهذا هو يعود إلى باريس في أوائل أبريل ١٨٤٢ من هذه الأسفار، وهو على حاله من الإصرار على ألا يحترف يومًا حرفة التجارة. وأن تكون حرفة الأدب ونظم الأشعار وحدها هي حرفة حياته التي لن يزاول غيرها، مهما لقي في سبيلها من شقاء.

بيد أن هذا لا يعني أن «بودلير» لم يستفد شيئًا من الرحلة، بل هو قد عاد يحمل منها الحب العظيم للبحر، ذلك الحب الذي يظهر - سيان في ظهوره المباشر، أو غير المباشر - متقد الحرارة مشبوب الألوان في شعره، كما لم يظهر قط في أشعار غيره في أي عصر.

وسوف نكتفي هنا لضيق المقام بمقطوعه واحدة من أشعاره التي يظهر فيها بجلاء ووضوح جانب من المذهب الرمزي، وموضوعها مأساة طائر عجيب من بحار الجنوب:

كان الملاحون كثيرًا ما يلهون

فيقنصون طيور البحر العظام

وهي ملازمة لهم كرفيق الطريق

في صحبة السفينة المنسابة فوق لجج الخضم السحيق

فما هو إلا أن هوى بعضها على أرض المركب.

حتى رأينا هذا الملك من ملوك .الأجواء في حال شوهاء .

وأجنحته البيض الطوال مسلوبة الكبرياء يجرها إلى جانبيه كالمجاذيف

ذلكم فارس الهواء ، ما أسمج ما صار إليه ، وما أهونه !

ذلك الذي كان مرموق الأبهة ، ما أقبحه وأدعاه للتفكه .

والقوم من حوله بعضهم يمس بقصبة التبغ منقاره مضايقًا .

والبعض يتعارج محاكيًا هذا الجريح الكسيح وقد كان محلقًا .

كذلك الشاعر ، أشبه الأحياء بأمير الأجواء .

يقتحم العواصف ولا يبالي الرماة وهو في أوج السماء .

ولكنه على الأرض غريب طريد ، ويتعرض لاستهزاء وهوان .

يمشي متعثر الخطو ، يعوقه عن المشي ، جناحاه الجباران .

وعندنا ، أن هذا التشبيه في ختام القصيدة ، هو أصدق تشبيه قيل في تصوير شخصية الشاعر العبقري العملاق ، يمنعه أن يسعى ليظفر بحظ من رغيد العيش ، كسائر الناس على وجه هذه الأرض ، أنه كما قال «بودلير» الشاعر الرمزي : «يمشي متعثر الخطو ، يعوقه عن المشي ، جناحاه الجباران» [1].

---

١) المرجع السابق.

كليوباترا ... أميرة البحر والحب !

إذا كانت ملكة مصر كليوباترا قد حازت شهرة واسعة بقصة حبها الخالدة مع أنطونيو التي انتهت نهاية مأساوية ، فقد أوحت قصتها وإمارتها للبحر في الإسكندرية الكثير من القصص والحكايات والملاحم للأدباء والشعراء في مختلف العصور .

مما يلفت النظر قلة القصائد الشعرية التي تتحدث عن «كليوباترا» عند الشعراء المصريين. ويمكن إرجاع ذلك لعدة أسباب ، أهمها أن حركة البعث الشعري في العصر الحديث اقترنت بحركة الإحياء العربي - والشعر الغنائي يمثل منه قدرًا كبيرًا - ولا شك أن مرحلة الإحياء تركت ملامحها العامة على شعر المجددين ، إذ كان شعر التراث يمثل ركيزة لا يستهان بها في ثقافتهم الشعرية ، فاستمدوا منه مثلهم ، وطافت حول عوالمه أحلامهم . فصارت «ليلى » وعبلة «مثالاً للحب الطاهر ، كما صارت «الخنساء» مثالاً للوفاء ، و «أسماء» مثالاً للأمومة الصامدة .. إلخ[1] .

وعلى الرغم من أن حياة «كليوباترا» في ترفها وأبهتها ، وقصة غرامها في تقلبها ونهايتها الفاجعة جديرة بأن تغري أقلام الشعراء ، وبخاصة في المرحلة الرومانسية من تاريخ شعرنا المعاصر ، فإن الجانب الذاتي في القصة كان جديرًا أيضًا بأن يكون عاملاً منفردًا يغري بالانصراف عنها . فالموضوع برمته ليس صفحة مشرقة في تاريخ مصر ، وتسليط الضوء عليه لا يخدم كبرياءها وتطلعها - على الأقل أمام النظر السطحي ، إذ نرى أن صراع مصر وروما جزء لا يستهان به من تجربتنا التاريخية ، وأنه بالرغم من نهايته المحزنة يدل على أن مصر - في

(١) د . محمد حسن عبد الله ، كليوباترا في الأدب والتاريخ ، هيئة الكتاب القاهرة ١٩٩٨ .

المواقف التاريخية الحاسمة ـ لا تتخلى عن دورها في مناضلة المعتدين مهما كانت قوتهم .

وأول من تعرض لشخصية «كليوباترا» في الشعر الحديث هو الشاعر «أحمد شوقي» في مقطع من قصيدته الكبرى الخالدة «كبار الحوادث في وادي النيل» ، تلك القصيدة التي ألقاها أمام مؤتمر المستشرقين في «جنيف» سنة ١٨٩٤ ، وكما هو واضح من عنوان القصيدة ، فإنها عرض حي للتاريخ المصري منذ احتضان هذا الوادي للحضارة الإنسانية وهي تدب على شاطئه العريق ، حتى العصر الحاضر الناهض ، وما تعرضت له مصر بين البداية القديمة والحاضر الزاهر من أيام مجد وأيام هوان !!

وفيما يخص «كليوباترا» يقول «شوقي» بعد أن يتحدث عن امبراطورية الاسكندر وارث البطالمة له:

فقضى الله أن تضيع هذا الملـ ... ـك أنثى صعب عليها الوفاء
تخذتها روما إلى الشر تمهيـ ... ـدًا وتمهيده بأنثى بلاء
فتناهي الفساد في هذه الأر ... ض وجاز الأبالس الأغواء
ضيعت قيصر البرية أنثى ... يا لربي مما تجر النساء
فتنت منه كهف روما المرجي ... والحسام الذي به الاتقاء
قاهر الخصم والجحافل مهما ... جد هول الوغي وجد اللقاء
فأتاها من ليس تملكه أنـ ... ـثى ولا تسترقه هيفاء
بطل الدولتين ، حامي حمى رو ... ما الذي لا تقوده الأهواء
أخذ الملك وهي في قبضة الأفـ ... ـعى عن الملك والهوى عمياء
سلبتها الحياة فأعجب لرقطا ... ء أراحت منها الورى رقطاء
لم تصب بالخداع نجحا ولكن ... خدعوها بقولهم حسناء

قتلـــت نفـــسها وظنـــت فـــداء	صـــغرت نفـــسها وقـــل الفـــداء
ســـل كلـــوبترة المكايـــد هـــلا	صـدها عـن ولاء رومـا الـدهاء ؟
فبرومـــا تأيـــدت ، وبرومـــا	هـــي تـــشقى ، وهكـــذا الأعـــداء
ولرومـــا الملـــك الـــذي طالمـــا وا	فـــاه في الـــسر نـــصحها والـــولاء

ومن الواضح أن «شوقي» في هذه الأبيات يقف موقفًا معاكسًا تمامًا لموقفه الآخر الذي وقفه في مسرحيته التي كتبها بعد هذه القصيدة بأكثر من ثلث قرن . فيمكن أن يقال أن موقفه الوطني لم يتغير ، ولكن تفسيره لبعض مراحل التاريخ المصري وبعض شخصياته هو الذي تغير ، وقد تحامل هنا على «كليوباترا» تحاملاً شديدًا إذ يحملها منذ البداية تبعة تضييع الملك ، وتضييع «قيصر» الذي عجزت جحافل الخصوم عن الصمود له ، وهي أفعى رقطاء عمياء ، عاشت بالخداع ، ولكنها كانت هي المخدوعة وانتحرت تظن نفسها بطلة فداء ، ولكنها أهون من أن تنال هذه المنزلة العالية ، ذلك أنها مهما فعلت ، فلن تزيد عن «عميلة» للرومان في مصر ، تأيد ملكها بهم ، حتى إذ استنفدوا غرضهم منها عصفوا بها .

ويمكن أن نقول أن هذا التحامل عليها نتاج النظرة الطويلة المستوعبة للتاريخ المصري فمع امتداد الزمن وتوالي الكوارث على مصر عقب تصفية امبراطورية الفراعنة لا يتسع القلب لغفران أو تسامح يأوى إليه الغزاة الذين أساءوا إلى مصر ، وأن انطوت نواياهم على بعض الإحسان على أننا يمكن أن نضيف عاملين هامين : أولهما أن «شوقي» كان شابًا ، ومع الشباب الحماسة والطموح والاندفاع في إصدار الأحكام والتعميم ، وثانيهما : أنه كان حديث عهد بفرنسا ولابد أن يكون قد قرأ هنالك بعضًا من تلك المسرحيات التي تناولت حياة «كليوباترا» بالغمز واللمز في حياتها الشخصية والسياسية على السواء ، ولابد أن يكون ذلك كله قد ترك آثارًا واضحة فيه . وهو ما سيتمكن

من التخلص منه بأصالة، حين يعود إلى الموضوع نفسه في مسرحيته الشعرية الشهيرة.

- وحين يلتفت الشاعر «على محمود طه» إلى شخصية هذه الملكة، ويكتب عنها قصيدته الشهيرة «ليالي كليوباترا» فإنه يكون أول من أطلق العنان لخياله ليصور عالم الترف والعواطف وثورة الغرائز، وهذا هو المتوقع من شاعر أبيقوري كصاحبنا، عاش عمره القصير في سياحة اكتشاف دائمة، تنتهب اللذائذ من كل أرض، وفي شتى مذاقاتها. وقد اختار «محمد عبد الوهاب» مقاطع من هذه القصيدة، فأداه لحنًا وغناء بصوته الرخيم وبموسيقاه التي جمعت بين الأداء الإيقاعي الشرقي، والتعبير المواكب لعالم الداخل وتصوير الانفعالات، كما يتمثل في الألحان على التوزيع الغربي عادة، وبذلك يمكن أن يقال أنه أحسن في أداء اللحن مما ضمن له الانتشار الواسع السريع ويلاحظ على المقاطع التي اختارها «عبد الوهاب» أنها تجنبت تكرار بعض المعاني في القصيدة فكأن الاختيار نوع من النقد الفني، وأيضًا فقد فضل الأبيات أو المقاطع التي تبرز السمات المصرية الخالصة، وتغنى للجمال الشرقي.

وقد استلهم شاعر الجندول علي محمود طه (١٩٠١-١٩٤٩) من ليالي كليوباترا هذه القصيدة

كليوباترا !! أي حُلمٍ من لياليك الحسان
طاف بالموج فغنى، وتغنى الشاطئان
وهفا كل فؤاد، وشدا كل لسان
هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان
بُعثتْ في زورق مُستلهمٍ من كل فن

مــرح المجــداف يختــال بحــوراء تغنــي
يــا حبيبــي ، هــذه ليلــة حبــي
آه لــو شــاركتني أفــراح قلبــي
***
نبــأةٌ كالكــأس دارت بــين عــشاق ســكارى
ســبقْت كــل جنــاح في ســماء النيــل طــارا
تحمــل الفتنــة والفرحــة والوجــد المثــارا
حلــوة صــافية اللحــن كــأحلام العــذارى
حُلــمْ عــذراء دعاهــا حبُّهــا ذات مــساء
فتغَنَّــت بــشراع مــن خيــال الــشعراء
يــا حبيبــي ، هــذه ليلــة حبــي
آه لــو شــاركتني أفــراح قلبــي
وتجــلى الــزوق الــصاعد نــشوان يميــد
يتهــداه عــلى المــوج نــواتي عبــد
المجــاديف بأيــديهم هتــاف ونــشيد
ومــصلون لهــم في النهــر محــراب عتيــد
ســحرتهم روعــة الليــل فهــم خلــق جديــد
كلهــم رب يغنــى وإلــه يــستعيد
يــا حبيبــي ، هــذه ليلــة حبــي
آه لــو شــاركتني أفــراح قلبــي
***

اصـــدحي أيتهـــا الأرواح بـــاللحن البـــديع

امرحـي ، يـا راقـصات الـضوء بـالموج الخليـع

قــبلي ، تحــت شراعــي ، حلــم الفــن الرفيـع

زورقًــا بــين ضــفاف النيــل في ليــل الربيــع

رنَّحتــه موجــةٌ تلعــبُ في ضــوء النجــوم

وتنــادى بــشعاع راقــص فــوق الغيــوم

يـــا حبيبـــي ، هـــذه ليلـــة حبـــي

آه لـــو شـــاركتني أفـــراح قلبـــي

***

ليلنـــا خمـــر وأشـــواق تغنـــي حولنـــا

وشراعٌ ســـابحٌ في النـــور يرعـــى ظلنـــا

كـــان في الليـــل ســـكارى وأفـــاقوا قبلنـــا

ليـــتهم قـــد عرفـــوا الحـــب فبـــاتوا مثلنـــا

كلـــما غـــرد كـــأس شربـــوا الخمـــرة لحنـــا

يـــا حبيبـــي ، كـــل مـــا في الكـــون روح يتغنـــى

هـــات كـــأسي إنهـــا ليلـــة حبـــي

آه لـــو شـــاركتني أفـــراح قلبـــي

***

يـــا ضـــفاف النيـــل بـــالله ويـــا خـــضر الـــروابي

هـــل رأيـــتن عـــلى النهـــر فتـــى غـــض الإهـــاب

أســـمر الجبهـــة كـــالخمرة في النـــور المـــذاب

سابحًا في زورق من صنع أحلام الشباب
إن يكون مر وحيا من بعيد أو قريب
فصفيه ، وأعيدي وصفه ، فهو حبيبي
يا حبيبي ، هذه ليلة حبي
آه لو شاركتني أفراح قلبي

***

أنت يا من عدت بالذكرى وأحلام الليالي
يا ابنة النهر الذي غناه أرباب الخيال
وتمنت فيه لو تسبح ربات الجمال
موجه الشادي عشيق النور ، معبود الظلال
لم يزل يروي ، وتصغى للروايات الدهور
والضفاف الخضر سكرى ، والسنًا كأس تدور
حلم لم ترووه ليلة حب
فاذكريه ، واسمعي أفراح قلبي

❊ ❊ ❊

اختار «على محمود طه» مشهدًا يروقه كثيرًا ، ويتواكب وخياله الطلق ، ولعل هذا سر التفاته إلى «كليوباترا» وهو بذلك يختلف تمامًا عن اتجاه «شوقي» في المقطع الذي اقتبسناه من قصيدته «كبار الحوادث في وادي النيل» وظهرت فيه نزعته الفكرية وتحليله التاريخي واضحين ، فشوقي ينظر إلى ملكة مصر في حدود أنها أداة روما في حكم مصر ، بها انتصرت وحكمت ، وبالخداع سيطرت حينا ، ولكن الاعتماد على القوة الدخيلة ـ لا قوة الأمة ـ والانتصار بالخديعة، وتدبير

المكايد ليس مما يثبت أركان الملك دائمًا ، وإن سانده بعض الوقت ، ولهذا لقيت مصيرها ، وأكلها حماتها القدماء ، وهو يقسو عليها مهونًا من قيمة تضحيتها بنفسها ، أما «على محمود طه» فإنه يترك هذا كله ، ويسبح خلف زورقها النشوان يتمايل على صفحة النيل وقد طار بالعواطف المتأججة يتراقص على شدو المغنين وترتيل المصلين في محراب الحسن .

وربما يبدو لنا غريبًا أن الشاعر لم يجر على مألوف عادته حين يصف تجربة نسائية ، فإنه ـ مستجيبًا لطبعه ـ يحرص على التفنن في الوصف الحسي لمفاتن المرأة وألوان حسنها الجسدي ولا شك أن «كليوباترا» ـ وما قيل حول حسنها ـ كانت تتيح له أن يستغرق في هذا الجانب ما شاء له الهوى . ولكن يبدو أن «سحر» التاريخ قد مسه ، فتحول «البعد الزماني » إلى «سمو مكاني» أو «نقاء روحي» ، فعلى الرغم من أنها فاتنة الدنيا وحسناء الزمان ـ وهذه صفات عامة لا تدل على «جميلة» بعينها ، فإننا نجد : القلوب التي تهفو ، والمصلين في محراب الحسن ، والأرواح المرتلة، والموج الصادح ، والنور الراقص ، والزورق الذي يترنح فوق موج يلعب في ضوء النجوم!! وينتهي الموقف بالعاشقين إلى اعتبار كل ما في الليل «روحًا يتغنى» !! هنا لا نجد الحسية خالصة، وإنما تزاحمها «صوفية عاشقة» ، تنظر إلى الحسن نظرتها إلى معنى رفيع يداعب الخواطر كالحلم المجنح، والزورق النشوان الغاص بعالم المشاعر الوالهة هو التجسيد لهذا المعنى .

وقد حمل «على محمود طه» إلى الشعر العربي في الثلاثينيات وما بعدها عبق الشعر الأوربي في اختيار اللحظة المتميزة ، وتركيب الصورة ، وخدمة اللغة بوضع مفرداتها في علاقات جديدة غنية الإيحاء ، حتى لكأنها لم تجر على الألسنة من قبل .

فالزورق مستلهم من كل فن .. ومجدافه مرح !! وهو في انطلاقه كحلم العذراء .. ولكنها ليست أية عذراء ـ .نها عذراء في حالة نفسية خاصة ، إنها

تجسيم لمشاعر الراقصين في الزورق نفسه: حلم عذراء دعاها حبها ذات مساء، فتغنت بشراع من خيال الشعراء !!

ونستطيع أن نزعم في آخر هذه اللمحة أن القصيدة قسمة بين التاريخ والحاضر. هي ليلة من ليالي كليوباترا ـ كما شاء لها الشاعر ـ ولكنها كليوباترا أخرى معاصرة للشاعر «بعثت» في زورق !! وحين يختار لها حبيبًا فإنه يختاره «أسمر الجبهة كالخمرة في النور المذاب» .. إنه الشاعر نفسه، تتداخل في مشاعره الرؤى والأحلام .. فقد عاش في عصر كليوباترا .. أو «بعثها» في عصره، ليضمها إلى باقة تجاربه العاطفية الغنية بالبهجة والتفاؤل والمتعة من كل لون !!

وتأتي التجربة الثالثة في مجال الشعر الغنائي من الشاعر «عبد الرحمن صدقي» (١٨٩٧ – ١٩٧٣) ولا نريد أن نتعجل فنقول أنه يقف بين «شوقي» و«على محمود طه» في الفكرة، والصياغة، وقدرة الخيال على الانطلاق[١].

ملكة الفتنة: كليوباترا

سليلة أقيال البطالسة الغر ... أقاموا على عرش الفراعنة الحر
لها من بنات الجن روح عتية ... وحسن تصبي بالغواية والطهر
جننا بذكراها فكيف تطلعت ... عيون لمن تسبى الأواخر بالذكر

فياليت رجعي للقديم من الدهر

إذا ازدحمت بالساحرين المعابد ... وقد عطرتها بالبخور المواقد
وقاموا يزجون الظلام ترنمًا ... لتسعف في السحر المبين النشائد
فإن فنون الساحرين جميعها ... حواهن لحظ من لحاظك واحد

فياليت رجعي للقديم من الدهر

إذا أضرموا النيران فوق المذابح ... فمن أجل قربان إلى الرب صالح

---

(١) المرجع السابق.

كــذلك شــبت في خــدودك حمــرة   تلـيح بمـوت العاشـقين الطـوامح
وهــل كنــت للأقــوام إلا آلهــة   يـضحى إليهـا كـل أروع واضـح

فيا ليت رجعي للقديم من الدهر

إذا سـجعت فـوق الـسفين الـسوامر   وقـد ضـحكت في كفهـن المزاهـر
وجاوبهــا بالــشدونيل مبــارك   روت غلهـا منـه العـصور الغـوابر
فـضحكك عنـد الـسامعين ألـذها   ولـو أنـه بالـسامع الـصب سـاخر

فيا ليت رجعي للقديم من الدهر

إذا أرهــق الركبــان قطـع المخــارم   وأرمـضهم في الفقـر لفـح الـسمائم
وحــم الــردى لــولا عيــون رويــة   ترقـرق مـا بـين الـصخور الـصلادم
فــأنقع منهــا رشــفة كوثريــة   هي الخلد من هذى الشفاه البواسم

فيا ليت رجعي للقديم من الدهر

فنلمحهــا مــا بـين أروقـة القـصر   جلتهـا لنـا الأعيـاد في حلـة النـصر
تمــيس ، ولكــن في وقــار وفي كــبر   وقار النخيـل المشرفات على النهـر
يرنحهــا نفــح النــسيم مــع الفجــر

فيا ليت رجعي للقديم من الدهر

في هذه القصيدة للشاعر «عبد الرحمن صدقي» لا نجد التحليل التاريخي كما لمسناه عند «شوقي»، ولا الخيال المجنح المترف ، والنغم الراقص ، والحلول أو الاندماج والتوحد بين الشاعر ووضوعه كما وجدنا عند «على محمود طه» وربما يصح - كما أشرنا ، وبشيء من التجوز - أن نقول أن هذه القصيدة مزيج من النظرتين السابقتين ، وإن كانت أكثر قربًا من اتجاه «شوقي» .

الشاعر هنا لا يعيش تجربة «كليوباترا» أو يحاول أن يلمس «روح» عصرها

أو شخصيتها المتميزة كما حاول أن يفعل «علي محمود طه» ، وإنما يتحدث عنها وهو على وعي كامل بالبعد الزمني السحيق الذي يفصل بين عصره وعصرها ـ وهو أول اعتبار كان من الأوفق إسقاطه من إحساس الشاعر ، بل لعل ذلك ضرورة أساسية في تجربة شعرية مصدرها التاريخ ، الشاعر هنا «يصف» لنا من موقف المشاهد .. فلا يغيب عنه أنه يتأمل أو يحاول تأمل «صورة» .. كانت .. وزالت، ولم يعد لإحيائها من سبيل ، لذلك لا يلبث أن يردد عقب كل مقطع : «فياليت رجعي للقديم من الدهر» ، و «ليت» كما يقول القدماء ـ معناها التمني فيما لا أمل في تحقيقه .. أي أن معناها التحسر !! ويلح على الشاعر إحساسه بأنه يتحدث عن ماض أكثر من مرة ، فيقول : جئنا بذكراها فكيف تطلعت .. إلخ ، ويقول : فياليت رجعي .. فنلمحها ما بين أروقة القصر !! فهو لم يغادر موقف «المشاهد» ، ولذلك جاءت القصيدة فاترة .

وقد تأكد هذا الفتور بموقفه النفسي غير المحدد من «كليوباترا» ، فهو لا يعرف على التحديد هل هو معجب بها كملكة جميلة فرضت ذكرها على الزمان أو ناقم عليها كامرأة غريبة حكمت مصر ولم تكن سيرتها فوق الشبهات !! وهذا الاضطراب يتضح في البيت الأول فهي : سليلة البطالسة الغر ، وهذا يعني أن الشاعر يمجدها وأسرتها أيضًا ، ولكنه لا يلبث أن يشير إلى كونهم مغتصبين للعرش : أقاموا على عرش الفراعنة الحر !! وهذا يعني أنهم ليسوا فراعنة ، وأن العرش الحر لم يعد باعتلائهم له حرًا !! وبهذا يتعارض الوصفان إذ لا يمكن أن يكون العرش الفرعوني حرًا وعليه غاصب يوصف بأنه أغر !! ثم لا يلبث التناقض أن يتضح أكثر حين يصف «كليوباترا» بالغواية والطهر معًا ، وإن كان هذا التناقض مما تطيقه «الشخصية الأدبية» لهذه الملكة التي رسمت لها شخصيات متناقضة جدًا في شتى الآداب . ولكن الشاعر يقترب من التعاطف مع الملكة حين يتحدث عنها وقد جلتها الأعياد في حلة النصر ، تتهادى في كبرياء الجمال النبيل، ووقار الملكات العظيمات . وهو وقار مصري عريق ، وطاهر

ومحبوب ، لا تختلط بع الغطرسة أو الجفاء.. إنه وقار النخيل على شاطئ نيلنا الخالد وقد داعبته نسائم الفجر !!

والأوصاف التي حاول أن يعبر بها عن جمال «كليوباترا» أوصاف شائعة وعامة : فلواحظها فيها سحر ، وخدودها في حمرة اللهب وشفافيته ، وصوتها الضاحك أحلى في السمع من النغم، وريقها أحلى من ماء العيون النادرة ، ولكن الشاعر استطاع أن «يضيف» جديدًا إلى هذه المعاني المشهورة في وصف النساء الجميلات ، وهذا الجديد يتمثل في صياغة الصورة ، وهي صورة مركبة، لا تخلو من حركة ، وإن بدت الحركة فاترة أو مألوفة . فلحظ «كليوباترا» قد حوى من السحر فنونًا يجتمع من أجلها السحرة حتى تزدحم بهم المعابد ، واللهب في خديها لهب مقدس، كلهب المذابح ، وهو أيضًا لهب مهلك يطيح بالطامحين من العشاق ، كأنها آلهة ، وعشاقها الضحايا أو القرابين أما صوتها فإنه أعذب وقعًا من كل ما صنعت يد الإنسان من أدوات النغم، ومن كل ما أبدعت الطبيعة من أصوات ، وريقها أطيب مذاقًا من عين ماء ظهرت فجأة بين الصخور فأنقذت الركب الضال في الصحراء يتهدده الهلاك على أنه يمنحها الخلد لأنه من الكوثر، كما أن ضحها له عمق خاص ، لأنه يلذ لعشاقها ، مع سخريته منهم في الوقت نفسه[1].

---

١) المرجع السابق.

عبد العليم القباني
شاعر البحر الظامئ!

عاش الشاعر السكندري عبد العليم القباني (١٩١٨-٢٠٠١م) مغردًا فوق أفنان الحب والجمال ، لكنه تغريد العاشق المحروم الذي يقف على شاطئ الحب يتغنى بأقماره ولآلئه وجواهره وصدفاته الحلوة، دون أن يجرؤ على خوض غماره، أو السباحة خشية موجاته الهادئة أو العاتية.

وهكذا عاش عبد العليم القباني في ظلال الإسكندرية عروس البحر المتوسط، عاشقًا من بعيد للبحر، ظامئًا لحورياته، مغردًا لأمواجه، محرومًا من مده وجزره.

لم يكن فارس البحر الصاخب كما كان الشاعر الملاح علي محمود طه، الذي امتطى زورقه الهائم في بحار الحب والجمال، وتاه في بحر الهوى.

ضل في الليل سراه ومضى   لا يرى في أفق منه شعاعا

كان خوف القباني وتردده من السباحة في بحار الحب والجمال لإحساسه بافتقاده لمؤهلات وأدوات السباحة التي توافرت للملاح التائه علي محمود طه، من وسامة ووفر مادي، وتلك الموسيقى الابتداعية والروح الوثابة، والقلب الجياش بالعاطفة المشبوبة ، والمنصب الرفيع ، تلك الظروف المواتية التي أتاحت للملاح العاشق أن يجوب مغاني أوروبا وربوعها للمتعة والانطلاق، واستلهام أشعاره الغنائية المرحة المبتهجة ، لكن القباني بظروفه المادية الصعبة ونشأته القاسية التي جعلته ينحت طريقه في الصخر، وعمله كترزي بلدي، ثم كموظف بسيط بجامعة الإسكندرية، فضلا عن مسؤولياته الأسرية الثقيلة حين تزوج مبكرًا ، وأنجب أربعة أبناء: عادل ، محمد، فاضل ، سهير ، ثم إحساسه بافتقاد الوسامة والرشاقة التي تستهوي الحسان.

كل هذه الظروف الصعبة كبلت جناحيه عن الطيران في عوالم الفضاء

الرحبة، وقيدته عن الإبحار في غمار الحب والجمال ، وجعلته فارسًا للشعر بلا جواد من مال أو وظيفة أو إمكانات ، فاكتفى بأن يقف على الشاطئ ينظر ويتأمل ويعشق متحسرًا، ويروي ظمؤه بالخيال الوثاب ، وذلك الشعر الوجداني العذب الذي صنع به عوالم خيالية من الحب والجمال ومباهج الروح!

كل هذه الظروف الصعبة التي واجهت عبد العليم القباني ، ثم وفاة ابنه «محمد» وابنته الوحيدة «سهير» في زهوة شبابيهما، وتجاربه المخفقة في الحب، وحرمانه ، وظمؤه الحارق لمباهج الحياة ومتعها ولذائذها بما فيها متعة الحب والوصال ، حولته إلى قيثارة حزينة تعزف لنا أرق أنغام الحب والأسى والشجن والحرمان.

ميلاد شاعر:

ولد الشاعر عبد العليم القباني بمدينة مطوبس محافظة كفر الشيخ في الثاني من أغسطس سنة ١٩١٨م ، ثم انتقل إلى مدينة الإسكندرية التي تبعد عن مطوبس ٧٤ ك ، ليعمل مع والده ترزيًا بلديًا سنة ١٩٢٣م بدكانه بشارع باب سدرة بكرموز أحد أحياء الإسكندرية الشعبية، ثم ألحقه والده بأحد الكتاتيب ليحفظ القرآن، ثم أدخله مدرسة أونية ، فظل بها حتى السنة الثالثة الدراسية، ثم فضل والده عدم استكمال دراسته ، ليساعده في عمله كترزي بلدي.

ولما كان والده يقوم بعمل ملابس الأزهريين، فقد عرف الصبي طريقه إلى تقويم ملكته الشعرية التي بدأت معه وهو في العاشرة ، وكان نهما في قراءاته، يقرأ كل ما تصل إليه يده ، واستعان بزبائن الدكان من الأزهريين الذين أهدوه الكثير من كتب الأدب ، وقد استكمل هوايته وهو في العاشرة ، وبدأ ينظم الشعر منذ سن باكرة ، وفكر في نشره ، فراسل بعض الصحف والمجلات بالإسكندرية ثم بالقاهرة ، فنشر في السياسة الأسبوعية سنة ١٩٣٦م ومجلة الثقافة سنة ١٩٤٠م، ثم بدأ يراسل الصحف والمجلات بانتظام، ولما توفى والده سنة ١٩٤٢م ألقى عليه عبء العمل بدكان الخياطة وحده ، ثم تزوج سنة ١٩٤٣م ، وأنجب ثلاثة أولاد وبنتا ، مات منهم شاب وشابة في ريعان شبابهما، فكان لهذه الفاجعة تأثير عميق في نفسيته وفي شعره ، وبدأت الأوساط الأدبية

تتعرف على هذا الشاعر الرومانسي الذي اكتملت أدواته الفنية باكرًا، ففاز بجائزة الشعر الأولى في مسابقة وزارة المعارف سنة ١٩٤٨م ، فاتسعت شهرته، وشجعه الأديب الكبير محمد فريد أبو حديد على مواصلة مسيرته الأدبية ، ثم التحق بعد ذلك موظفًا بمتحف كلية الآداب جامعة الإسكندرية سنة ١٩٥٧م، وكان يداوم باستمرار على حضور مناقشات الرسائل الجامعية التي أفادته كثيرًا في دراساته الأدبية والتاريخية.

وقد أصدر الشاعر الكبير عددًا من الدواوين الشعرية منها : أشعار قومية (١٩٩٦م) ، بقايا سراب (١٩٧٠م) ، ملحمة الثورة العرابية (١٩٨٢م) ، لله والرسول (١٩٨٢م) ، أغنيات مهاجرة (١٩٨٥م) ، حدث في قصر السلطان (١٩٨٨م) ، قوس قزح (١٩٨٧م) ، قصائد من حديقة الحيوان (١٩٨٧م) ، انطلاق (١٩٨٩م) ، ثورة الرماد (١٩٨٩م) ، العزف على أوتار لم تتمزق بعد (١٩٩٠م) .

وبجانب شعره الوجداني الأصيل الذي يتناول موضوعات عاطفية وقومية وتاريخية ، فإن له عددًا من الدراسات الأدبية والتاريخية القيمة منها: شعراء الإسكندرية في العصور الإسلامية (١٩٦٤م) ، مع الشعراء أصحاب الحرف (١٩٦٧م) ، بيرم التونسي (١٩٦٩م) ، إيليا أبو ماضي حياته وشعره بالإسكندرية (١٩٧٤م) ، طه حسين في الضحى من شبابه (١٩٧٦م) ، رواد الشعر السكندري في العصر الحديث (١٩٧٢م) ، فخري أبو السعود (١٩٧٣م)، نشأة الصحافة بالإسكندرية (١٩٧٣م) ، موقف شوقي والشعراء المصريين من الخلافة العثمانية ، كما أن له عددًا كبيرًا من الدواوين المخطوطة والدراسات التي لم تطبع بعد ، وكتب سيرته الذاتية بصحيفة «أخبار الأدب» ولكنها مازالت مخطوطة لم تجمع في كتاب.

شاعرية القباني:

تميز شعره بالموسيقى الآسرة ، وصوره الشعرية الحية النابضة بالصدق والحرارة.

عاش القباني محبًا للحياة عاشقًا للحب والجمال رغم معاناته المادية

والإنسانية، فعاش يتحدى ظروفه ، وجسد في شعره ملامحه الروحية والوجدانية والإنسانية ، وتنوعت ألوان شعره بين عاطفي ووجداني وديني وقومي وفكاهي ساخر ، وقد أبدع بصفة خاصة في فن الحوار القصصي الشعري مما أهله لكتابة أكثر من ملحمة شعرية منها: «ملحمة الثورة العرابية» ، وملحمة «أبو الهول المصري في مواجهة النسر الفرنسي».

كان عبد العليم القباني بحق أحد أبرز شعراء الوجدان الغنائي الذي جدد في شكل القصيدة ومضمونها مع الحفاظ على أصول الشعر وأصالته.

شاعر البحر الظامئ:

إذا استعرضنا شعر عبد العليم القباني العاطفي وجدنا مفتاحه الحرمان والظمأ ، فقد عانى الرجل في حياته ، وصعد السلم من أوله ، ونحت بأظافره في الصخر حتى وصل إلى مكانته الأدبية السامقة ، ووسط هذه المعاناة القاسية لم تمكنه ظروفه من أن يعيش قصة الحب التي يحلم بها كشاعر رومانسي محلق، فوجد في البحر الذي عشقه حبيبًا يبثه همومه وأحزان قلبه، عله يجد حبيبه المنشود، ولكنه دائما لا يجد أمامه في 'الأفق البعيد إلا السراب، فيطلق آهات قلبه الحزين.

شعري ، وما شعري سوى إحساسي
أودى بنضرته الزمان القاسي
ومشت على أزهاره وشموعه
ريح تعربد في مصير الناس

ثم يجد شبابه قد ولى في الحرمان والسراب الخادع.

طويت شبابي واحتسبت مراحه
وواريته خلف السراب المخادع
وضيعت عمري في الأباطيل حالما
وليس الذي يهوى الخيال بقانع

ويدفعه حرمانه أن يبحث عن العاطفة حتى في فتاة استأذنت في أن تشرب من كوب ماء أمامه وهو جالس بإحدى مقاهي الإسكندرية فيقول:

قالت: أتسمح ؟ قلت: لم لا أسمح
والسحر في عينيك.. طفل يمرح
قالت: أنا ظمأى، قلت: عجيبة
أن تظمئي ، وسلاف ثغرك مطمح
قالت: أطلت القول، قلت: لعلني
ألقى بعينيك الجواب فأجنح

ولما لم يجد الشاعر عروس أحلامه في الواقع، وجد السلوى في الخيال، فصور عالمًا خياليًا من السحر والجمال ، مع ملهمته في ليلة من ليالي القاهرة الساحرة.

أي نهر حالم الموجات ضاح؟
وشراع سابح طلق الجناح
وضفاف مشرقات كالصباح
زاهيات ترتدي أزهى وشاح
يا حبيبي إنه النيل وهذي القاهرة
مقلة نامت على حلم وأخرى ساهرة

واحة الظمآن:

وتمضي السنون بالقباني وهو ينحت الصخر حتى يشق طريقه في الحياة، ويقيم أود أسرته ، ويواجه سهام الحياة وأشواكها ، ولم تفارقه ابتسامته الطفولية الصافية، وعندما يسأل عن خلاصة تجاربه بعد هذه الرحلة الشائكة المضنية في دروب الحياة يقول:

يقولون: عمرك أفنيته.. فماذا تعلمت في المزدحم؟

فقلت لهم والدجى في دمي وإن كنت لما أزل أبتسم
تعلمت أن أكتفي بالسراب وأن أكتم الآه رغم الألم

وعندما يبلغ السبعين من عمره يشعر أن قواه قد خارت وأن قدرته على المجابهة ومجالدة الحياة قد ضعفت ، فيطلق هذه الآهة الحزينة:

إن الزمـــــان وقــــــد رأى ســــــيارتي
تعـــــدو كعــــــدو الأرعــــن المجنــــون
نــــزع التجاعيــــد التــــي ظهــــرت عـــلى
عجلاتهـــــــا وأضــــــافها لجبينــــــي

ويتيه بقدرته على مجالدة الحياة:

ســـــــبعون عامـــــــا وحــــــــدي
ولم أزل أتحــــــــــــــــــــــــدى
ولــــــو تـــــــصدى لغــــــيري
مــــــا صــــــدني مــــــا تـــــصدى

أحس القباني برهافة إحساسه، وبفورة قلبه العاشق المحروم أن شبابه قد ضاع في الحرمان وضياع الأماني، وأن خياله الوثاب لم يرو ظمأ قلبه للحب والجمال ومباهج الحياة، فأطلق هذه النفثة الباكية:

طويــــت شــــبابي واحتــــسبت مراحــــه
وواريتـــــه خلـــف الـــسراب المخـــادع
وضـــيعت عمـــري في الأباطيـــل حالمـــا
ولــــيس الــــذي يهــــوى الخيـــال بقـــانع
فلـــما تلاشـــى الحلـــم وانجـــاب ســـحره
وأحســـست مـــن وقـــع الـــسهام بـــواقعي

تلفـــت حـــولي أرتجـــي الـــري ظامئـــا
وقـــد فرغـــت كـــأسي وجفـــت منـــابعي
فلـــم أر إلا حـــسرة إثـــر حـــسرة
ولم أر إلا فاجعـــا إثـــر فـــاجع
وأن الفـــضاء الرحـــب والأرض والـــسما
تـــضيق بـــما ضـــمت عليـــه أضـــالعي

وتبلغ ذروة يأسه وحزنه وإحباطه مداها ، فيطلق هذه الصرخة:

سأصـــم ســـمعي عـــن هتافـــات الربـــى
وأصـــدُّ حتـــى عـــن عبـــير الآس
وإذا ترقرقـــت الجـــداول خلـــف وانتـــشى
زهـــر الخميـــل فـــررتُ خلـــف نعـــاسي
حـــسبي وحـــسبك يـــا زمـــان فـــإنني
أطفـــأت عـــن فـــتن الهـــوى نـــبراسي
وطويـــتُ شـــعري يـــا زمـــان فـــربما
يرضـــيك أني مغلـــق الإحـــساس

في سنواته العشر الأخيرة منذ مطالع التسعينيات يبدو أنه قد وجد واحة طالما بحث عنها طويلا ، وجد الابنة الملهمة الحنون التي تعوضه عن وفاة ابنته الوحيدة الحبيبة إلى قلبه «سهير» في شرخ شبابها ، وجد في مشاعرها المشبوبة الحانية ، وقلبها الكبير وأفقها الواسع ، سندا وظلا وواحة يتفيأ بها هجير الحياة وقسوتها ، فابتهجت روحه، ورغم ثقل السنين أعادت له بسمة الحياة والتفاؤل، فقال مبتهجًا سعيدًا:

إن تلـــك الـــسبعين عامًـــا أخـــذت منـــي قوايـــه
وهـــوت بي مـــن ســـماواتي إلى أرض النهايـــه

فـــإذا الواقـــع صــبح لم تزيفـــه العمايـــه
وإذا الـــشك يقـــين وإذا الرشـــد غوايـــه
فأنـــا مازلـــت أحيـــا في ضـــياء مـــن صبايه
مـــا تلفـــت ورائـــي بـــل أرى الآتي بدايـــه
بـــذرة الحـــب بقلبـــي أنبتـــت زهـــر رضـــاية

ويخاطب ملهمته الموحية التي جاءت له ظلا وفيئا في هجير الحياة فأنقذته من قسوة الصمت والشجن:

يـــا حلـــوة العينـــين يـــا أنـــت
أنقـــذتني مـــن قـــسوة الـــصمت
يـــا مـــا قـــضيت العمـــر مختنقـــا
حتـــى بـــدوت فكنـــت لي رئتـــي

ويحب الدنيا ويشعر أن الحياة أصبحت أحلى بعد أن ظهرت في أفق حياته هذه البسمة الحانية التي كانت بمثابة الواحة الخضراء في هجير الحياة:

أنـــت يـــا أشـــهى أغاريـــدي إلىَّ
يـــا رجـــاء مـــزق اليـــأس العتـــي
لـــيس مـــا قـــدمت شـــيئا هينـــا
أنـــت هونـــت عـــليَّ كـــل شـــى
عنـــدما أقبلـــت شـــيعت الـــدجى
واســـتبنت النـــور في الليـــل الـــشقي
عنـــدما أقبلـــت قبلـــت الـــضحى
في مثـــال للجـــمال العبقـــري
عنـــدما أقبلـــت أغـــراني الـــصبا

بعـــــــد أن ولى بــــــأن عـــــــاد إليّ

وتستبد بالشاعر المحروم أحلام القلب المحلق الظامئ للحنان والحب الأبوي فيقول:

لـــــو أنـــــصف الـــــدهر يـــــا حيـــــاتي

بنيـــــت فـــــوق النجـــــوم قـــــصرا

وأراك عنـــــــد الـــــــصبح فيـــــــه

شمـــــسا وعنـــــد المـــــساء بـــــدرا

وأشـــــهد الأفـــــق حـــــين يبـــــدو

عـــــلى جنـــــاح الأصـــــيل تـــــبرا

ويجد فيها حنان الأخت وشقاوة البنت:

يـــــا حلـــــوة العينـــــين يـــــا أنـــــت

أنـــــت التـــــي أســـــعدت لي بختـــــي

أحببـــــت فيـــــك محبـــــة الأخـــــت

وعـــــشقت فيـــــك شـــــقاوة البنـــــت

ويتسم شعره في سنواته العشر الأخيرة بحرارة المشاعر ودفء الأحاسيس، فتخضر كلماته وتزهر قصائده بأصدق المشاعر وأعمقها ، ويعكس في مجموعة من المثاني والرباعيات هذا الأمل الذي أضاء ليله المعتم ونور طريق حياته القاتم الكئيب:

قالـــــت: ســـــعدت وقـــــد رأيتـــــك في

هـــــذا الـــــرواء.. وعمـــــت البـــــشرى

يـــــا حلـــــوة العينـــــين لـــــست أنـــــا

مـــــن تنظـــــرين. وإنـــــما ذكـــــرى

ويصبح الهاتف وسيلة التواصل مع تلك الملهمة الموحية، فيصف كيف يتلقى مكالمتها المنقذة وبجواره شريكة حياته:

ولقـــــد لمحتـــــك والمـــــسرة بيننـــــا
تـــــدنى إلى شـــــفتي مـــــا أتـــــوهم
فـــــوددت لـــــو أني ظللـــــت مقـــــبلا
ثغـــــر المـــــسرة أو يفيـــــق النـــــوم

وأجد في أحاديثه معي وقصائد، في سنوات الأخيرة نبضات الحرارة ولمحة الأمل التي غابت عنه طويلا:

مع شعراء الثغر:

كانت فترة عملي كمحرر في مجلة الهلال منذ عام ١٩٧٢م وخلال فترة رئاسة تحرير الشاعر الأديب صالح جودت للمجلة حتى وفاته في ٢٣ يونيه ١٩٧٦م فترة ثرية بالمعرفة والعلاقات الأدبية والإنسانية، تعرفت خلالها إلى عدد كبير من الأدباء والشعراء وأعلام الفكر والفن في مصر والعالم العربي منهم نخبة من أدباء وشعراء الإسكندرية ، منهم: عبد العليم القباني، ومحمود العتريس ، وأحمد السمرة ، وعبد المنعم الأنصاري ، وفؤاد طمان وجابر بسيوني ود. عبد الله سرور وسامح درويش وأيمن صادق وشكري جاد وعزيزة كاتو وأمل سعد وسالم حقى وغيرهم .

وكان لعبد العليم القباني مكانة خاصة فى نفسى؛ لأنني اقتربت منه، وتعاطفت معه كشاعر وجداني أصيل ، لم يأخذ حقه أديبًا وكان إنسانًا بسيطًا نقي القلب ، لا يحمل كرها لأحد رغم ظروفه المادية الصعبة .

وقد أفسح له الشاعر صالح جودت (١٩٠٨- ١٩٧٦م) صفحات الهلال لينشر فيها قصائده ودراساته الأدبية خلال فترة رئاسته للمجلة (١٩٧٢ - ١٩٧٦م) ، وكنت عندما أذهب للإسكندرية أزوره في منزله بالحضرة القبلية بشارع ابن ملاعب ، وكانت له حجرة مستقلة في آخر طابق بمنزله يتخذها مكتبة خاصة به ، يقرأ ويكتب فيها ، سميتها مداعبا « بالصومعة» ، وفي عصر

كل يوم كنا نسير في شوارع الإسكندرية وهو يحمل حقيبته الجلدية الضخمة المليئة بالكتب والأوراق ، وكان يحلو له أن يريني الدكان الذي كان يعمل فيه ترزيا والمكتبة الشعبية التى تبيع الكتب القديمة في باب سدرة ، ونذهب سويا إلى الترزي المثقف عاشق الشعر علي العمري في دكانه بوسط المدينة .

ثم شاءت الظروف أن أسافر إلى سلطنة عمان في مطلع عام ١٩٨٢م . وتواصلت رسائلنا ، ثم عدت إلى القاهرة ولعملي بمجلة الهلال فى يونيه ١٩٩٤م فكنت أزوره فى صومعته فى زياراتي الكثيرة للإسكندرية ، حيث كنت أتردد على صومعتى بلوران كثيرا في فصل الصيف .

وكان الرجل يؤثرنى بأسرار قلبه وهواجس نفسه وبكثير من قصائده المخطوطة .

ولاحظت أن صحته بدأت تضمحل منذ منتصف التسعينيات ، وكان يغالب متاعب الصحة والحياة حتى تعرض لأزمة صحية حادة نقل على إثرها للمستشفى حيث فارق الحياة فى الخامس عشر من يناير ٢٠٠١م بعد رحلة حافلة قدم فيها للشعر العربى والدراسات الأدبية كنوزًا غالية .. ورغم أن عبد العليم القباني عانى في الحياة كثيرًا إلا أن الحياة أعطته قبل رحيله بعض قطرات من مباهج الحب الذي أسعد روحه وقلبه قبل أن يسدل الستار .

وفي سنواته الثلاث الاخيرة كان لا يمر أسبوع دون أن أحضر للإسكندرية وألتقى به ومثلما كان يصارحنى بمشاعره وعواطفه وأحاسيسه كنت أيضا أصارحه بخفقات قلبى لمن أحب ، وكم أطلعنى على قصائده المخطوطة التى يسجل فيها خفقات قلبه وهمسات روحه من وحى عاطفته الجديدة .

وزرته فى مطلع يناير ٢٠٠١م ، ووجدت صحته على غير ما يرام ، وعدت للقاهرة فى الخامس من يناير ، ووعدته بالحضور قبل منتصف الشهر.

ولكن ظروف عملي عطلت سفري ، فاتصلت به في العاشر من يناير فوجدت فى صوته وهنا وضعفا ، وأخبرته بتأجيل حضورى للإسكندرية فقال بصوت واهن : كنت أريدك للأهمية .

ولم أدرك يومها أنه كان يريد أن يستودعنى بعض أوراقه وقصائده ، وقال لي على غير عادته فى الهاتف : اسمع هذه الأبيات التى قلتها فى ملهمتى الحانية :

يـا مـن يقربـك أجتـاز الـدنا مرحـا
حتـى إذا غبـت ، تنسـانى ابتـساماتى
غـام الطريـق ، وحـراس الـضياء غفـوا
فهـل مننـت ، بـأن أشـعلت مـشكاتى

ولم أدرك ساعتها أنـه يـودع الـدنيا بقلـب أثقلتـه الهمـوم ، وأن الـدنيا حـين ابتسمت له لم تمهله طويلا ليسعد ، بل فارقها وهو يبتسم لها رغم جراح قلبه .

هكذا عاش عبد العليم القباني عاشقًا للإسكندرية مغردًا على شواطئها الفيح، يعزف أجمل أغاريده لحوريات البحر، وأسراب الجمال على شاطئ الحب والجمال!

عشاق مرسى مطروح
أغنيات على شاطئ الفيروز

ارتبط الشعراء بالبحر.. بكل ما يحويه من أسرار وسحر ورمز للمجهول وآفاق ممتدة وأعماق بعيدة مجهولة توحى بالغموض والفضول والتساؤلات ، كما ارتبط البحر عند العديد من الشعراء بالوصال مع الحبيب على شواطئه الفيح أو فوق أمواجه الحالمة : وفى مصر حظى بحر الإسكندرية بنصيب الأسد فى إلهام الشعراء ؛ لأن البحر يرتبط بالمكان .. ولعل قصيدة شاعر الحب صالح جودت فى الإسكندرية خير مثال على مدى ارتباط الشاعر العاشق بالمكان وسحره:

إسكندرية فيك الرى والظمأ
بأى قصة حب فيك أبتدئ
سماء غيرك تزهى إن حوت قمرًا
وأنت أرضك بالأقمار تمتلئ

لكن هناك شواطئ أخرى لا تقل سحرًا وشاعرية وجمالًا عن شاطئ الإسكندرية منها شاطئ مرسى مطروح أو شاطئ الفيروز كما أطلق عليه الشعراء والأدباء والمؤرخون وعشاق هذه المدينة الهادئة النائمة على ذراع البحر اللازوردى الساحر.

ومطروح ميناء صغير ممتد حوالي سبعة كيلو مترات ، يعد من أجمل شواطئ العالم برماله الناعمة البيضاء ومياهه الفيروزية الساحرة ، تحميه سلسلة من الصخور الطبيعية في وسطها منفذ يسمح بمرور السفن الخفيفة ، ويرجع تاريخ هذا الشاطئ الجميل إلى عصر الإسكندر المقدوني ، وكان يسمى وقتئذ «براتينيوم» ، وكانوا يطلقون عليه أيضًا «أمونيا» ، ويقال: إن ا لإسكندر توقف في هذا المكان أثناء رحلته التاريخية لتقديم فروض الولاء للإله «آمون» بواحة سيوة حتى يصبح ابنا له ، وحتى يكون حكمه امتدادًا تاريخيًا لحكم

الفراعنة ، كما توجد بقايا لمعبد من عصر رمسيس الثاني ، وبقايا مرسى للأسطول المصري الذى شيد في عهد البطالمة .

مطروح تلك البقعة الساحرة التي تجمع بين تلك الزرقة الفيروزية للبحر والرمال الذهبية والتي شهدت شواطئها قصة الحب الخالدة بين أنطونيو وكليوباترا في قصرها الذى لقيت فيه مصرعها انتحارًا بالأفعى حتى لا تقع رهينة في يد الاعداء.. مازالت رمال شواطئها تحمل اسمها ، وبعضا من ذكريات استحمامها في «حمام كليوباترا» على شاطئها ، وذكريات وحكايات الحب والعشق والهوى بين أشهر عاشقين في التاريخ أنطونيو وكليوباترا تروى شواطئها قصة الحب والموت .. والنصر والهزيمة .. والخنوع والكرامة .

وبرغم سحر مطروح وموقعها العبقرى الفريد وخصوصية رمالها ومياهها فقد اكتشفت قلة الشعراء الذين استلهموا شواطئ مطروح وما يرتبط بها من تاريخ وذكريات وأحداث تاريخية إلا قليلا منهم د. حسن فتح الباب، وإسماعيل عقاب ، ومحمود العتريس

مطروح في وجداني :

كانت مرسى مطروح حلمًا في خيالي منذ مطلع شبابى ، خاصة بعد أن شاهدت فيلم « شاطئ الغرام» بطولة ليلى مراد وحسين صدقى ، والتى تغنت فيها المطربة الرائعة ليلى مراد بعدة أغنيات من كلمات الشاعر صالح جودت بالعامية منها: «رايداك والنبى رايداك » و«الميه والهوا » ، وكانت كلماتها «يا ساكنى مطروح النية فى بحركم» وكم كان الشاعر صالح جودت (١٩٠٨-١٩٧٦) يردد فى كلماته ورسائله الخاصة لزوجته أثناء سفرياته إلى أوروبا: «إن شواطئ مطروح من أجمل شواطئ العالم ، وهى أجمل من شواطئ أوروبا ».

كم حلمت برمال مطروح البيضاء الناعمة ومياهها الفيروزية الساحرة وبشواطئ «حمام كليوباترا» وشاطئ الأبيض وشاطئ عجيبة وشاطئ الغرام، ورأس الحكمة وشاطئ الفيروز حتى زرت مطروح لأول مرة عام ٢٠٠٨ ، فلم أجد فرقًا كبيرًا بين الخيال والواقع ، بل وجدت الواقع أبدع خاصة بعد زياراتى المتكررة لشاطئ عجيبة الذى يقع على بعد ٢٨كم غرب مرسى مطروح ، ويمتاز

بالكهوف الطبيعية والمناظر الخلابة، لكن شاطئ الفيروز «شاطئ روميل» استهواني بصفة خاصة، ووجدت فيه الجو الشاعرى الذى أحلم به، وكم جلست فى صومعتى بشاطئ الفيروز الساحر أقرأ وأكتب وأتأمل عبق التاريخ البعيد، وسحر الطبيعة الرائع، الهواء العليل، والمياه اللازوردية الفاتنة، وأتخيل قصة الغرام الخالدة بين كليوباترا وأنطونيو على شواطئ مطروح الفيح، وأستعيد كلمات شاعر الجندول على محمود طه التى تغنى بها الموسيقار محمد عبدالوهاب :

كليوباترا .. أى حلم من لياليك الحسان
طاف بالموج فتغنى وتغنى الشاطئان
وهفا كل فؤاد وشدا كل لسان
هذه فاتنة الدنيا وحسناء الزمان

وعندما أزور حمام كليوباترا وصخرة ليلى مراد «شاطئ الغرام»، وشاطئ «روميل» الذي يواجه شاطئ الفيروز وصخرة عجيبة وشاطئها الساحر الممتد الرائع أستعيد فى لحظات كل معالم التاريخ العريق وأطيافه الخالدة التى تتداعى أمامى بجلالها وسحرها.

شاعر شاطئ الفيروز!

وكلما زرت مطروح بحثت عن شعرائها وتراثها الثقافى والأدبى والفلكلورى لإنجاز دراسة شاملة خاصة أن هناك العديد من الشعراء الذين وقعوا فى أسر حسنها فأصبحوا عشاقًا لمطروح و من بينهم صالح جودت ومحمود العتريس وإسماعيل عقاب الذى اختار مطروح موطنًا وسكنا له، وحولها إلى معبد حالم يرتل فيه أناشيد حبه ووجده للشاطئ الحالم الساحر!

ومن أشهر عشاق مطروح الشاعر السكندرى المطروحى محمود العتريس «١٩١٩- ٢٠٠٨» الذى ولد بحي كوم الشقافة بالإسكندرية فى ٥ ديسمبر ١٩١٩، وقضى فترة طفولته على أرض مطروح لظروف عمل والده في التجارة حيث كان للعائلة بيت في منطقة علم الروم بها حتى سن العاشرة، وفيها أنهى فترة تعليمه الأولى، وحفظ نصف القرآن، ثم انتقل إلى الإسكندرية سنة

١٩٣٢، فأنهى تعليمه الابتدائى، ثم التحق بالتعليم التجارى، وحصل على دبلوم التجارة سنة ١٩٤٢، ليعمل محاسبًا حرًا منذ تخرجه، وعاش على شاطئ بحرى بالإسكندرية طيلة حياته، لكنه لم ينس مطروح موطن أجداده، وظل قلبه معلقًا بها، يزورها في سبتمبر من كل عام ليستعيد ذكريات الطفولة ويتنسم نسائم الحب والرحابة والسحر أمام شواطئها الفيح، وفى كل دواوينه الشعرية: بقايا شراع «١٩٥٢»، باب المدينة «١٩٧٣»، أمطار الليل «١٩٩٢»، لمحات من وحى مرسى مطروح، لكن ذلك لم يرضه حتى أفرد لمحبوبته مطروح عنوانًا لديوانه «أصداف من شاطئ الفيروز» الصادر بالإسكندرية عام ٢٠٠٠ وأهداه إلى مهد الطفولة وموقع الصبا وصبابة العمر.. بلدتى الحبيبة مرسى مطروح، أعلن بوضوح أن موطنه ومحبوبته الأكثر قربا لقلبه هى مرسى مطروح التى نازعته فى حبها مدينة الحب والشعر الإسكندرية!

وخص مطروح فى ديوانه بقصيدته «شاطئ الفيروز» التى يحيى فيها هذا البلد الطيب الذى يحمل له الشوق والحب، والتى كانت له بمثابة الأم والأب والعشق والهوى فى المشرق والمغرب! يناجى محمود العتريس شاطئ الحب والجمال فى مطروح .. شاطئ الفيروز، ويدعونا ألا نجادله في سر حبه لهذا الشاطئ الساحر الحبيب:

لا تسألونه عن حكاياته
هذا الأديم السندسي الربى
وشاطئ الفيروز لما حنت
أمواجه والرمل لما صبا
وسيدى «العوام» قطب الهوى
من عزة رب الهدى واجتبى
«مطروح» كم أنجبت من روعة
بوركت يا أروع من أنجبا

زار محمود العتريس مطروح فى خريف العمر ليستعيد ذكريات طفولته بلهوها البرىء على شواطئها الفيح التى كانت أحلى فترات عمره:

جئــــت وكـــم جئــــت يـــا ليتنـــي
أحـــضرت مـــن عمـــرى ماغيبـــا
لكنهـــا الايــــام تطـــوى المنـــى
وتأكــــل اليـــابس والمرطبـــا
ولى شـــباب العمـــر يـــا بلـــدتي
وأوشــــك الجـــدول أن ينـــضبا
لم تبـــق إلا ذكريــــات الفتـــى
يجترهـــا الـــشيخ شـــذى طيبـــا
يعــــانق الــــدار بأنفاســــه
والــــدرب والـــشاطئ والملعبــــا

ثم يتجه محمود العتريس إلى مطروح موطن طفولته ومهوى قلبه ، ومعبد حبه ليناجيها بقلب العاشق المفتون البعيد عنها لكنها ساكنة حبة قلبه ، فيهمس لها بلغة العاشق المحب المشتاق :

«مطــــرح » عفـــوًا إننـــى عاشـــق
ولـــيس للعاشــــق أن يطنبـــا
حـــسبى مـــن الأيـــام يـــوم بـــه
أهـــبط واديـــك وأعلـــو الربـــى
وأســـبح الأمـــواج مـــسترجعًا
مـــا ســـوّد الـــدهر ومـــا خـــضبا
وأحمـــد الأرض التـــى طالمـــا
أمـــدت إلى أفـــق الـــسنا كوكبـــا

إنه رغم حبه للإسكندرية التى عاش على شاطئها الساحر بقية عمره ، وكانت لديه خميلة العطر والظلال وشاطئ السحر والخيال وقلعة المجد والنضال وأنشودة الحب والجمال ، والتى كانت له فيها ذكريات وذكريات جميلة حياها بقوله:

لا تـــسألي كيـــف ذكريـــاتي

فأنـــــت حبـــــي وأمنيـــــاتي
ورب يـــــوم لنـــــا يـــــواتي
يعيـــــد مـــــا راح مـــــن شـــتاتي
يـــــوشي أفراحـــــه الغـــــوالي

يظل يحمل فى قلبه حبه وشوقه لموطن طفولته ومهوى يعشقه .. لمطروح تلك البقعة الساحرة والتى حرص على أن يزورها فى كل فرصة تتاح له رغم طول المسافة ومشقة السفر حوالى ثلاثمائة كيلو متر بينها وبين الإسكندرية :

جئـــــت أحيـــــى البلـــــد الطيبـــــا
وأحمـــــل الـــــشوق لـــــه موكبـــــا
وأمـــــدح الأرض التـــــى طالمـــــا
أهـــــدت إلى أفـــــق الـــــسنا كوكبـــــا
وكيـــــف لا أمـــــدح مـــــلء المـــــدى
مهـــــد الطفـــــولات وروض النـــــدى
وكيـــــف لا يحفـــــل شـــــعرى بمـــــن
كانـــــت لى الأم وكـــــان الأبـــــا
يـــــا بلـــــدًا يـــــذهب فى عـــــشقه
عمـــــرًا ولا أخـــــشى لـــــه مـــــذهبًا
والله ، لـــــولا قـــــسمة قـــــدرت
لكنـــــت لى المـــــشرق والمغربـــــا

بين الإسكندرية ومطروح:

وإذا كانت مرسى مطروح عند محمود العتريس هى موطنه ومهد طفولته ، ومهوى قلبه ، فإن الإسكندرية التى عاش فيها بقية عمره كانت حبه وفتنته أيضًا ؛ لأنها مدينة الحضارات والفنون والآداب الزاهرة :

العلـــــم والفنـــــون
وقبلـــــة القلـــــب والعيـــــون
تقـــــدمى موكـــــب الفتـــــون

وكيـــــف شــــــاءالخلود كـــــونى
للمجـــــــد للحـــــب للجـــــال

وهو يرى الإسكندرية درة الثغور ومهد الحضارة :

يـــــا درة البحـــــــر والثغـــــــور
يـــــا بنــــت «اســــكندر» الكبـــير
مغنـــــاك مـــــن ســـالف العـــصور
يـــــزدان بالــــــشمس والبـــــدور
ويــــــنفح الـــــدهر بـــــــاللآلى

كانت مطروح فى قلب العتريس ووجدانه ، والإسكندرية فى عقله وفكره وحياته كمهد للفنون والحضارة وموطنا لسكناه ، هكذا أصبح الثغران «مطروح والإسكندرية» فى قلب وعقل العتريس وحياته لا ينفصلان بل يكملان بعضهما لايستطيع أن يستغنى عن كليهما ، بل يتمازجان كمرج البحر فى قلبه المحب العاشق !

شاعرالحب:

كانت حياة محمود العتريس أغنية موصولة بالحب والهوى والعشق ، لكنه كان العاشق الذى يكتم هواه عن العيون ويحبس خفقات قلبه أحيانًا عمن يحب، فظنه البعض شاعرًا عقلانيا لا يأبه للحب ولا يعبأ بتياراته اللافحة !

لكنه عاش عيشة المحب المحروم الذى يعانى فى صمت ويخفى دموعه عن الآخرين ، وظلت معظم تجاربه العاطفية معلقة بين الماء وبين النار ، وكأنه يقف أمام الأعراف :

ومــــــاذا بعـــــد يــــا بعـــــد
لقـــــد طــــال بنـــــا العهـــــد
ومازلنـــــا مــــــع الأيـــــــام
نعـــــدو حيـــــث لا نعـــــدو
بـــــــأحلام مـــــــــصفدة

يـــــئن لأسرهــــا القيـــــد
نـــروح كــــما يـــروح الــــوهم
أو نغـــــدو كـــــما يغـــــدو
فــــــلا يجمعنـــــا قــــرب
ولا يفـــــصلنا بعـــــــد
وقفنـــــا وقفـــــة الأعـــراف
لا نـــــــار ولا خلـــــــد

وهو يطيع نداء العيون حين تناديه للحب والنجوى:

عينـــاك عينـــاك كانتـــا قـــدرا
أتـــى بوشـــى الربيـــع مـــؤتزرا
بـــرغم أمـــرى اطعـــت أمرهمـــا
مـــن ذا الـــذى لا يـــصانع القـــدرا

وعندما يعبر خطى الأربعين من عمره تزداد لوعة حبه وخفقات قلبه الوامق ، فيخاطب ملهمته بها استجد من أمر قلبه :

أجـــل يـــا فتـــاتى عبرنـــا الـــشباب
وخـــضنا العبـــاب مـــع الخـــائفين
عـــلى زورق مـــن سراب المنـــى
تباطـــأ فى شـــاطئ الأربعـــين
ولا تـــزل للـــصبا موجـــة
تداعبـــه بـــين حـــين وحـــين
وبعـــد، فللحـــب أسراره
تعربـــد فى ردهـــات الـــسنين
وإن كـــان أروع مـــا فى الهـــوى
لقـــاء عـــلى شرفـــة الأربعـــين !

بقايا شراع!

تعرفت على الشاعر محمود العتريس فى مطلع سبعينيات القرن العشرين حين كان يحضر من الإسكندرية كل بضعة أسابيع ليزور مجلة الهلال لينشر فيها قصائده فى فترة رئاسة الشاعر الكبير صالح جودت للتحرير (١٩٧١-١٩٧٦)، وقد تعرفت خلال هذه الفترة على نخبة كبيرة من الأدباء العرب منهم شعراء الإسكندرية عبد العليم القبانى، أحمد السمرة ، عبدالمنعم الأنصارى، سالم حقى، صبرى أبوعلم ، فؤاد طمان ، أيمن صادق ، د. شكرى جاد، جابر بسيونى، د. عبدالله سرور، نقولا يوسف ، د. سامح درويش ، وغيرهم ، وكنت كلما زرت الإسكندرية قابلت الشاعر محمود العتريس بمكتبه الذى كان يعمل به كمحاسب بمنطقة المنشية ، ومنذ مطلع عام ٢٠٠٠ كنت ألتقى به بمقهى الوادى بمحطة الرمل مساء ، وكان يحضر فى تاكسى خاص من منزله بحى بحرى ، وكان يصر بعد انتهاء المقابلة أن يوصلنى حتى حى لوران بحى شرق حيث أسكن ، ثم يعود مع التاكسى إلى منزله فى بحرى، ولاحظت أن عبء السنين ومسؤوليات الحياة قد أرهقته وأثقلت كاهله ، فتمزقت بعض أوتار ألحانه لكنها أصبحت أكثر شجنا وشفافية ، وأخبرنى أن لديه ديوانا مخطوطًا عنوانه «العزف فى زمن العزوف » ، وتمزقت بعض خيوط شراع زورقه السابح فى بحار الحب والجمال ، لكنه ظل متفائلًا يحب الحياة ، ويعيش الحب ، ويحن إلى مرسى مطروح ، فتناثرت ألحانه شظايا متناثرة !

شعاع أطل من المشرق
على لجة الخافق الأزرق
يداعب فى خشية المشفق
بقايا شراع على زورقى

***

بقايا شراع عراه الضنى
وأوغل فيه الأسى موهنا
تكاد تموت غصون المنى

عـــلى خـــده الـــشاحب المرهـــق

وكان يحدثنى حديث القلب المثقل بالهموم والأحزان عن إحساسه بالوحدة والوحشة بعد رحيل رفيقة عمره السيدة فاطمة محمد البيلي في ديسمبر ١٩٩٣ عن الحياة ، وسفر ابنته الأثيرة «دولت» للعمل بالسعودية ، وكان يعزيه وجود ابنته «صفاء» معه التى كانت ترعاه فى سنواته الأخيرة ، وانعكست كل هذه المشاعر فى شعره ، فكان يقرأ لى بعضها ، وأشعر أن فيها نغمة أسى وشجن بصوت واهن حزين يبكى الحب الضائع ، ومرور السنين التى سرقت عمره ، ولم تعطه إلا القليل من السعادة والبهجة !

ومـــا خلـــف العمـــر بعـــد النـــوى
ســـوى واهـــن فى ضـــلوعى ثـــوى
تؤرقـــــه لفحـــــات الجـــــوى
وســـحر شـــعاع الـــصبا المحـــدق

***

وســـحر شـــعاع الـــصبا المحتفـــى
تخطـــــى ســـــياج الاسي المرجـــــف
وأقبـــــل يبـــــث في أحـــــرفي
وينفـــث مـــن حـــسنه الـــشيق

ويشعر أنه قد قضى حياته يخوض صعابها ، ويعانى من تجارب الحب المخفقة التى لم يجن منها سوى الأسى والدمع والذكرى وكأنه كان يجرى وراء سراب خادع :

وســـوف أظـــل أعـــبر ذلـــك الـــدربا
أخـــــوض الـــــروح والـــــصعبا
وأشـــــقى الـــــروح والقلبـــــا
ولا أجنـــــي ســـــوى الحـــــسرات
وذنبـــي.. أننـــي لم أغتـــنم ذنبـــا!

وألتقى به على فترات كلما زرت الإسكندرية يقرأ لى أحدث قصائده فى أمسيات الصيف الهادئة على مقهى الوادى بمحطة الرمل ، يروى لى فيها بعض ذكرياته الحلوة والمرة وأشعر أن إحساسه بالوحدة يزداد فينعكس على نفسيته فأصبحت مشاعر الأسى والإحباط والاغتراب الروحى تعايشه وتؤرقه وتضنيه.

وأتلقى نبأ رحيله فى الخامس من فبراير ٢٠٠٨ بالإسكندرية بأسى وحزن على شاعر عاش للحب ، وظل يحن حتى أخر نسمة فى حياته لشاطئ الحب والنجوى.. شاطئ الفيرو ز! طيف الطفولة البريئة .. ورمز الحب الصافى الحالم !

وإذا كان محمود العتريس قد ظل عاشقًا لمطروح حتى آخر نسمة في حياته، فإن هذه الزهرة الجميلة التي تنام على شاطئ البحر اللازوردي الساحر، مازالت مصدر وحي وإلهام للعديد من عشاقها ، ومازلت أحن لزيارتها كلما هل الصيف، وأجلس في صومعتي عند شاطئ الفيروز أتأمل شاطئ روميل بكل ما يحمله من عبق التاريخ ، وأستعيد أحداث التاريخ وحكايات عشاقها على مدى الأيام.

من قصائد البحر
في الشعر العربي المعاصر
خليل مطران

خليل مطران:

المساء

قال الناظم وهو عليل في مكس الإسكندرية:

داءٌ أَلَمَّ فَخِلْتُ فِيهِ شَفَائِي ... مِنْ صَبْوَتِي فَتَضَاعَفَتْ بُرَحَائِي
يَا لَلضَّعِيفَيْنِ اسْتَبَدَّا بِي وَمَا ... فِي الظُّلْمِ مِثْلُ تَحَكُّمِ الضُّعَفَاءِ
قَلْبٌ أَذَابَتْهُ الصَّبَابَةُ وَالْجَوَى ... وَغِلالَةٌ رَثَّتْ مِنَ الأَدْوَاءِ
وَالرُّوحُ بيْنَهُمَا نَسِيمُ تَنَهُّدِ ... فِي حَالَيِ التَّصْوِيبِ وَ الصُّعَدَاءِ
وَالعَقْلُ كَالمِصْبَاحِ يَغْشَى نُورَهُ ... كَدَرِي وَيُضْعِفُهُ نُضُوبُ دِمَائِي
هَذَا الَّذِي أَبْقَيْتِهِ يَا مُنْيَتِي ... مِنْ أَضْلُعِي وَحَشَاشَتِي وَذَكَائِي
عُمْرَيْنِ فِيكِ أَضَعْتُ لَوْ أَنْصَفْتِنِي ... لَمْ يَجْدُرَا بِتَأَسُّفِي وَبُكَائِي
عُمْرَ الْفَتَى الْفَانِي وَعُمْرَ مُخَلَّدِ ... بِبيَانِهِ لَوْلاَكِ فِي الأَحْيَاءِ
فَغَدَوْتَ لَمْ أَنْعَمْ كَذِي جَهْلٍ وَلَمْ ... أَغْنَمْ كَذِي عَقْلٍ ضَمَانَ بَقَاءِ
يَا كَوْكَباً مَنْ يَهْتَدِي بِضِيائِهِ ... يَهْدِيهِ طَالِعُ ضِلَّةٍ وَرِيَاءِ
يا مَوْرِداً يَسْقِي الوُرُودَ سَرَابُهُ ... ظَمَأً إِلَى أَنْ يَهْلِكُوا بِظَمَاءِ
يَا زَهْرَةً تُحْيِي رَوَاعِيَ حُسْنِهَا ... وَتُمِيتُ نَاشِقَهَا بِلاَ إِرْعَاءِ
هَذا عِتَابُكِ غَيْرَ أَنِّيَ مُخْطِيءٌ ... أَيُرَامُ سَعْدٌ فِي هَوَى حَسْنَاءِ
حَاشَاكِ بَلْ كُتِبَ الشَّقَاءُ عَلَى الْوَرَى ... وَالْحُبُّ لَمْ يَبْرَحْ أَحَبَّ شَقَاءِ
نِعْمَ الضَّلاَلَةُ حَيْثُ تُؤْنِسُ مُقْلَتِي ... أَنْوَارُ تِلْكَ الطَّلْعَةِ الزَّهْرَاءِ
نِعْمَ الشَّفَاءُ إِذَا رَوِيتُ بِرشْفَةٍ ... مَكْذُوبَةٍ مِنْ وَهْمِ ذَاكَ المَاءِ

* خليل مطران (١٨٧٢ – ١٩٤٩) : ولد في بعلبك بلبنان ، ودرس بها العربية ، وانتقل إلى مصر سنة ١٨٩٣، حيث أقام فيها ، واشتغل بالصحافة محررًا بالأهرام حتى ١٨٩٩ ، وأصدر المجلة المصرية (١٩٠٠ – ١٩٠٢) ثم عين مديرًا للفرقة القومية للتمثيل ، فترجم مسرحيات شكسبير ، أقيم له مهرجان أدبي لتكريمه في القاهرة في ٢٩ مارس ١٩٤٧، وصدر ديوانه عن دار الهلال بالقاهرة ١٩٤٨م.

نِعْـمَ الْـحَيَاةُ إذا قـضَيْتُ بِنَـشْقَةٍ ... مِـنْ طِيـبِ تِلْـكَ الرَّوْضَـةِ الغَنَّـاءِ
إنِّـي أَقَمْــتُ عَـلى التَّعِلَّـةِ بِـالْمُنَى ... فِـي غُرْبَـةٍ قَـالوا تَكُـونُ دَوَائِـي
إنْ يَشْفِ هَـذَا الجِسْمَ طِيبُ هَوَائِهَا ... أَيُلَطِّــف الـنِّيرَانَ طِيـبُ هَـوَاءِ
أَوْ يُمْـسِكِ الحَوْبَـاءَ حُسْنُ مُقَامِهَـا ... هَــلْ مَـسْكَةٌ فِي البُعْـدِ لِلْحَوْبَـاءِ
عَبَـثٌ طَـوَافِي فِي الْـبِلاَدِ وَعِلَّـةٌ ... فِـي عِلَّـةٍ مَنْـفَايَ لِاسْتـشْفَاءِ
مُتَفَـــرِّدٌ بِــصَبَابَتِي مُتَفَـــرِّد ... بِكَآبَتِـــي مُتَــــفَرِّدٌ بِعَنَـــائِي

***

شاكٍ إلى البحر اضطراب خـواطِري ... فيجيبنـــي برياحِـــهِ الهوجـــاءِ
ثـاوٍ عـلى صـخر أصـم وليـت لي ... قلبًـا كهـذي الـصخرةِ الـصماءِ
يتنابهـا مـوجٌ كمـوج مكـارهي ... ويفتهـــا كالـــسقم في أعـــضائي
والبحـرُ خفـاقُ الجوانـب ضـائقٌ ... كمـدًا كـصدري سـاعة الإمـساك
تغـشى البريـة كـدرةٌ وكأنهـا ... صـعدت إلى عينَـيَّ مـن أحـشائي
والأفـقُ معتكُـر قـريحُ جُفنـه ... يُغِـضِي عـلى الغمـراتِ والأقـذاء

***

يـا للغـروب ومـا بـه مـن عِـبرَةٍ ... للمـــستهام ! وعـــبرة للرائـــي !
أو لـيس نزعًـا للنهـارِ وصرعـةً ... للـشمسِ بـين مـآتمِ الأضـواء ؟
أَوَلَيْــسَ طَمْــساً لِلْيَقِــينِ وَمَبْعَثــاً ... لِلــشَّكِّ بَــيْنَ غَلاَئِــلِ الظَّلْــمَاءِ
أَوَلَيْــسَ مَحْــواً لِلْوُجُــودِ إلى مَــدىً ... وَإبَـــادَةً لِمَعَالِـــم الأَشْـــيَاءِ
حَتَّــى يَــكُونَ النُّــورُ تَجْدِيــداً لَهَــا ... وَيَكُــونَ شِــبْهَ الْبَعْــثِ عَــوْدُ ذُكَــاءِ

***

ولقــد ذكرتُــك والنهــارُ مــودعٌ ... والقلــبُ بــين مهابــةٍ ورجــاء
وخـواطري تبـدو تجـاه نـواظري ... كلمـي كداميـه الـسحاب إزائـي
والدمعُ من جفني يسيلُ مشعشعًا ... بـسنا الـشعاعِ الغـاربِ المترائـى
والـشمسُ في شـفقٍ يـسيلُ نـضُارهُ ... فـوق العقيـق عـلى ذرى سـوداء

مــرَّت خــلال غمامتــين تحــدرًا ... وتَقَطَّــرت كالدمعــة الحمــراء
فكــأن آخــر دمعــةٍ للكــون قــد ... نُزحَــتْ بــآخِرِ أدمُعــي لرثــائي
وكــأنّني آنــستُ يَــومي زائــلًا ... فرأيــتُ في المِــرآةِ كيــف مــسائي

(ديوان الخليل طبعة دار الهلال ١٩٤٨ – القاهرة)

إبراهيم ناجي:

١-على البحر

(من شعر الصِّبا قالها الناظم في الثالثة عشرة من عمره)

هل أنتِ سامعةٌ أنيني   يا غايةَ القلب الحزينِ
يا قِبلة الحب الخفيِّ   وكعبةَ الأَمل الدفينِ
أني ذكرتُكِ باكيًا   والأُفق مغُبرّ الجبينِ
والشمس تبدو وَهْيَ   تغربُ شبهَ دامعة العيونِ
أمسيت أرقبها على   صخرٍ وموج البحر دوني
والبحر مجنون العباب   يهيج ثائره جنوني
ورضاكِ أنتِ وِقايتي   فإذا غضبتِ فَمَن يقيني؟

***

* إبراهيم ناجي (١٨٩٨ - ١٩٥٣) ولد بالقاهرة، وبعد تخرجه في كلية الطب سنة ١٩٣٢ جمع بين ممارسة الطب والأدب، واشتهر بشعره الرومانسي، من دواوينه: وراء الغمام (١٩٣٤)، وليالي القاهرة (١٩٤٤)، والطائر الجريح (١٩٥٣)، ترجم أزهار الشر لبودلير، صدرت أعماله الشعرية والنثرية بتحقيق الشاعر حسن توفيق سنة ١٩٩٦م.

٢-كلانا

إلى س..

جئت أشكو لك روحي وجواها ... وردتْ ظمأى وعادت بصداها
آه من عينكِ! ماذا صنعتْ ... بغريبٍ مستجيرٍ بحماهَا؟!
تبعثُه تقتفي أحلامهُ ... كلما أغفى أطلّت فرآها
يا سقى الله «لليلى» أيكة ... وجزاها الخير عنا ورعاها
وغذاها من أمانينا ومن ... حيننا الشهد المصطفى وسقاها
قربي عينك مني قربي! ... ظلليني واغمريني بصفاها
وأريني هدأة البحر إذا ان ... بسط البحرُ جلالًا وتناهَى
وأريني لجة السحر التي ... ضلّ في أعماقها الفكرُ وتاها
ألمح اللؤلؤ في أغوارها ... وأرى الطيبةَ تطفو في سناها
وأراها تخبأ الخلد لمن ... باعَ دنياه وبالروح اشتراهَا

٣-السراب على البحر

لا القوم راحوا بأخبارٍ ولا جاءوا ... ولا لقلبك عن ليلاك أنباءُ
جفا الربيع ليالينا وغادرها ... وأقفر الروض لا ظل ولا ماءُ
يا شافيَ الداء قد أودي بيَ الداء ... أمَا لِذا الظمأ القتال إرواءُ
ولا لطائر قلب إن يقرَّ ولا ... لمركب فزع في الشط إرساءُ !
عندي سماءُ شتاءٍ غير ممطرة ... سوداء في جنبات النفس جرداءُ
خرساء آونة هوجاء آونة ... وليس تخدع ظني وَهْيَ خرساءُ
وكيف تخدعني البيداء غافية ... وللسوافي على البيداء إغفاءُ
أأنت ناديتِ أم صوت يُخيل لي ... فلي إليكِ بأذْنِ الوهم إصغاءُ
لبيك لو عندي روحي ما تطير به ... وكيف ينهض بالمجروح إعياءُ

***

تفرق الناس حول الشط واجتمعوا ... لهم به صخب عالٍ وضوضاء
وآخرون كسالي في أماكنهم ... كأنهم في رمال الشط أنضاءُ
هم الورى قبل إفساد الزمانِ لهم ... وقبل أن تتحدى الحبَّ بغضاءُ
ضاقت نفوسٌ بأحقاد ولو سلمتْ ... فإنها كسماء البحر روحاءُ ..
تألقت شمس ذاك اليوم واضطرمتْ ... كأنها شعلٌ في الأفْقِ حمراءُ
مالي بهم ، أنت لي الدنيا بأجمعها ... وما وعت ولقلبي منك إغناءُ
لو أنه أبدٌ ما زاد عن سِنة ... ومدةُ الحلم بالجفنين إغفاءُ
أرنو إليك وبي خوف يساورني ... وأنثني ولطرفي عنك إغضاءُ
إذا نطقتُ فما بالقول منتفع ... وإذا سكتُّ فإن الصمتَ إفشاءُ
وأيما لفظة فالريح ناقلة ... والشط حاكٍ لها والأفق أصداءُ
ياليل ! من علم الأطيار قصتنا ... وكيف تدري الصَّبَا أنا أحِباءُ

لما أفقنا رأينا الشمس مائلة   إلى المغيب وما للبين إرجاءُ
شابت ذوائب ، وانحلت غدائرها   شهباء في ساعة التوديع صفراءُ
مشى لها شفق دام فخضبها   كأنه في ذيول الشَّعْرِ حناءُ

* * *

يا من تنفس حر الوجد في عنقي   كما تَنفسُ في الأقداح صهباءُ
ومن تنفستُ حر الوجد في فمه   فما ارتويتُ وهذا الري إظماءُ
ما أنت عن خاطري بالبعد مبتعد   ولن تواريكَ عن عينيّ ظلماءُ ..

٤- يا نسيم البحر

يا نسيم البحر ريانَ بطيب   ما الذي تحمل من عطر الحبيب ؟
صافحتني من نواحيك يدٌ   تمسح الدمعة عن جفن الغريب
وتلقّاني رشاشٌ كالبكا   وهديرٌ مثل موصول النحيب

٥-يا بحر

يـوم أبحـرتُ فـوق متنـك تهـوي بَي أمواجــك الغــضاب وتعلــو
راعنـي حولُـك الرهيـب فخـارت عزمـــاتي ولم يعـــد ليَ حـــول

❊ ❊ ❊

وترنحـــتُ بـــين جنبيـــك تلهـــو بي فتطغَـــى آنًـــا وتهـــدأ آنـــا
كانــت القطــرة الــضئيلة مــن لــُـ ـجك أمـضي منـي وأخطـر شـانا

❊ ❊ ❊

وأنـا اليـوم أجتليـك مـن الـشاطئ تُزجـــي الأمـــواج مثـــل الجبـــال
فـــإذا بي أثـــور مثلـــك يـــا بحـــر وتنـــزو الأمـــواج في أوصـــالي

❊ ❊ ❊

هو روحي الـذي يحاكيك في البأس ولكــن يــؤوده عـــبء جـــسمي
فـإذا مـا اجـتلاك والجـسم غفـلاُ توخَـــاك في مـــضاء وعـــزمِ

❊ ❊ ❊

هـو روحـي الـذي يحاكيـك يـا بحـ روبخـشي قلبـي الجـزوع أذَا كـان
ضعضع الجسمُ عزم روحي المُعَنَّى يـا أخـا الـروح بُـث فيـه قواكـا

٦-صخرة الملتقي

سألتكِ يا صخرةَ الملتقي — متى يجمع الدهرُ ما فرَّقَا
فيا كعبةً شهدتْ هائمين — أفاءا إلى حسنها المنتقَي
إذا الدهرُ لَجَّ بأقداره — أخذنا على ظهرِهَا الموثقَا
أرقُّ الهوى عندها مجهدًا — وأنَّ النسيمُ بها مرهقَا

* * *

رمى البحرُ نحوكِ أمواجَه — فعانْدتِ تيارةَ الأزرقَا
وصدت نواحيكِ هدارةً — كما أغضبتْ أسدًا موثقَا
قرأنا عليكِ كتابَ الحياة — وفض الهوى سرَّهَا المغلقَا
نرى الشمسَ ذائبةً في المحيط — وفض الهوى سرَّهَا المغلقَا
إذا نشر الغربُ أثوابَه — فأطلقَ في النفس ما أطلقَا
نقول هل الشمسُ قد خضبته — وخلّتْ به دمَهَا المهرقا
أم الغربُ كالقلب دامي الجراح — له طلبةٌ عزَّأن تُلحقا
فيامهجمةً خلف هذا الغمام — بكتْ نضرةً وصبًا رَّيقَا
ويا صورةٌ في نواحي السحاب — رأينا بها همَّنَا المغرقَا
لنا الله من صورةٍ في الضميرِ — يراها الفتى كلّما أطرقَا
يرى صورةَ الجرح طيَّ الفؤاد — دِ ما زال ملتهبًا محرقًا
فيأبى الوفاءُ عليه اندمالا — ويأبى التذكّر أنّ يشفقَا

* * *

ويا صخرةَ العهدِ جاشَ العباب — ولاقاك محتدمًا محنقَا
وجاورك القَفْر يعي الظنونَ — إذا الفكر في كنهِه حقّقَا

أرى في العبـــابِ كفـــاحَ الحيـــاة ... وتيارهـــا الجـــارفَ الأحمقَـــا
وألمـــح فيهـــا عـــراكَ الرجـــال ... إذا لاحَـــقَ الـــزورقُ الزورقَـــا
وكيـف عـلى رُحْـبُ هـذا المجـال ... تنزلُهـــا منـــزلًا ضَّـــيقًا !
وقفـتُ عـلى الـيمِّ أسـألُ نفـسي ... بعيـــدَ الهـــواجسِ مـــستغرقًا
ومَّـــلَ في القفـــر لغـــزَ الحـــمام ... لم نكتـــشفْ سره الأعمقَـــا
أرى في ابيـضاضِ الرمـالِ المشيب ... والكفـــنَ الـــشاحبَ المقلقَـــا
أرى في الـسرابِ غـرورَ النفـوسِ ... والأمـــلَ الخائـــبَ المخفقَـــا
وقـد جعـل الله ذا الـصخرَ بـين ... الحيـــاةِ وبـــين الـــبلى موبقَـــا
ومثّـــلَ فيـــه عتـــوَّ الـــدهورِ ... لـــن تـــستباح ولـــن تخلقَـــا
تريـــد الحيـــاةُ لقـــاءَ الممـــاتِ ... ولا يـــأذن الله بـــالملتقى
ويـا صـخرةَ العهـد أبْـتُ إليـكِ ... وقـــد مَـــزَّقَ الـــشملُ مـــا مزقَـــا
أريـكِ مـشيبَ في حبـالِ الهـوى ... وودَّ عـــلى الله أن يعتقَـــا
فلـما قـضى الحـظّ فـكَّ الإسـارِ ... حـــنَّ إلى أسره مطلقَـــا
لمـــن زيَّـــنَ الله هـــدى الـــسماءَ ... أو جمَّـــلَ الكـــونَ أو نـــسقًا ؟
لمـــن يطلـــعُ الفجـــرُ في أفقهـــا ... فيبـــدو بهـــا ضـــاحيًا مونقَـــا ؟
لمـن مـسَّ هـذا النـسيمُ الغـمامَ ... فرقـــرقَ منـــه الـــذي رقرقَـــا ؟
إذا ذكرتْـــــهُ الحمائـــــمُ أزَّ ... وأنْ ضـــاحكتْه الـــربي صـــفّقَا
أللطـائرِ المفـردِ الـروحِ يمـضي ... يـــرودُ المـــواردَ عـــن مـــستقَي ؟
وربِّـــكَ لـــيس لهـــذا ولكـــنْ ... لـــروحينِ في أفـــق حلّقَـــا !

«المنصورة» ١٩٢٧

٧- خواطر الغروب

قلتُ للبحر إذ وقفتُ مساءَ كم أطلتُ الوقوفَ والإصغاءَ
وجعلتُ النسيمَ زادًا لروحي وشربتُ الظلالَ والأضواءَ
وكأنَّ الأضواءَ مختلفاتٍ جعلتُ منكَ روضةً غنَّاءَ
مرَّبِي عطرُهَا فأسكرَ نفسي وسرى في جوانحي كيفَ شاءَ
فاطَّرحتُ الهمومَ والأعباءَ ونسيتُ العذابَ والبرحاءَ
وكأني أرى بعين خيالِي ساحرَ المقلتينُ يغضى حياءَ
وكأن الوجودَ لم يحوِ إلاَّ حسنَه والطبيعةَ الحسناءَ
نشوة لم تطلْ صحا القلب منها مثلَ ما كانَ أو أشدَّ عناءَ
إنما يفهم الشبيهُ شبيهًا أيها البحر نحنُ لسنَا سواءَ
أنت باقٍ ونحن حَرْب الليالي مزقتنا وصيرتنا هبَاءَ
أنت عاتٍ ونحنُ كالزبَدِ الذا هبِ يعلو حينا ويمضي جفاءَ
وعجيبُ إليكَ يمَّمتُ وجهي ردًّا ولا تجيبُ نداءَ
كل يوم تساؤلٌ .. ليتَ شعري مَنْ ينبيَّ فيحسنُ الأنباءَ
ما تقولُ الأمواجُ ! ما آلِم الشمـ ـسَ فولَّتْ حزينةً صفراءَ
تركتنا وخَلَّفَتْ ليلَ شكٍّ أبديًّ والظلمةَ الخرساءَ
يا لهذا الجلالِ والأبدِ المجـ ـهولِ يزدادُ حيرةً وخفاءَ
روعتني ضآلةُ الناسِ فيه فبكيتُ الحياةَ والأحياءَ
وبكيتُ الغرورَ والأملَ الوا سعَ والسخطَ والرضي والرياءَ
ما تُرجِّيه ريشةٌ في مهب الريح تَلْقى الإعصارَ والأنواءَ
ما يرجيه ذلك القبسُ الخَا بي وشيكًا كأنه ما أضاءَ

والخَيالُ الذي تراءى ووَنَّى — غيرَ وانٍ كأنه ما تراءى
نحن ألعوبةُ القضاءِ ومن يملك — أمرًا ومن يردُّ القضاءَ
ولعلَّ القضاءَ يسخر مني — حين أبكي وما عرفتُ البكاءَ
فليدعني القضاءُ أبكي لأشفى — لم تَدَعْ ذلةُ الهوى كبرياءَ
لاح خلفَ الدموعِ وجهُ حبيب — لا أرى غيرَه لقلبي عزاءَ
قلتُ للقلبِ جاءَ ربك فأنهل — كم ظمئنا فما وجدنَا الماءَ
لم تُثبْنَا الحياةُ إلا بهذا — حسبنا وجههُ الجميل جزاءَ

«المنصورة» ١٩٣٠

٨- الشاطئ الخالي

يـــا ليـــالي غرامِهـــا يـــا ليـــالي جنبينـــي ذكـــراكِ إني ســـالي
وهبينـــي التفـــتُ خلفـــيِ إلى عهـــدكِ إني لطـــامعٌ في محـــالِ
لا أمـــامي غـــدٌ ولا عـــن يمينـــي أمـــلٌ ضـــاحكٌ ولا عـــن شـــمالي
يـــا هواهـــا بـــالله بعـــد انحـــدار الـــشمسِ ، مـــاذا تعلّقـــي بـــالظلال
قطـــع النـــسرُ شـــوطه بـــين همـــين : ترضـــيكِ وانتهـــاب المعـــالي
شـــهد الله مـــا أســـفَّ جناحـــاه ولا حلّقَـــا عـــلى أو حـــالِ
وهبـــي المجـــد دارُه القمـــمُ الـــشماء فالمجـــدُ مـــوحشٌ في الأعـــالي
خطـــرتْ تحتهـــا بأعراســـها الـــدنيا ومـــرتْ مواكبًـــا لا تبـــالي
مـــا مقـــامي بهـــا شـــقيًا غريبًـــا .. بعـــدتْ شـــقتي وطـــال اغـــترابي
يـــا هبـــاءَ الهبـــاء يـــا زبـــدَ البحـــر وذارتِ مـــستطارِ الرمـــالِ
إن بعـــضَ الهـــدوء ضربٌ مـــن الرعـــبِ وبعـــضَ الثـــواءِ كالترحـــالِ
أيـــن مرســـايَ والـــسفينةُ ظلـــتْ في صراعٍ وشـــاطئ قبـــلُ خـــالي

٩-صخرة المكس [1]

تعال نزفَّ للثغر السلامَا ... ألست ترى على الثغر ابتساما
ألم تشعرُ يَدَيُ عزيز ... مَسَخْنَ لك المواجعَ والسقاما
كأن خُطى العبابِ خطى حبيب ... كأن الموجَ أفئدةٌ ترامى
سلامًا يا عروس الماء إني ... أحبُّك لا أملَّ بك المقاما
أسيرُ إلى لقائكِ نِضوَ شوقٍ ... وأرجع عن ربوعكِ مستهاما
أراكِ فتنتشي روحي وقلبي ... كأني قد سُقيتُ بك المدَاما
وإن طُوىَ البساطُ فنصبَ عيني ... عليك خيالُ أحبابي القدامى
وإن طاح الزمانُ بكأس حبي ... فلا الساقي نسيتُ ولا الندامى
فؤادي قم بنا نذكرُ شجانا ... لصخر في جوار المكس قاما
تعالَ ولا تقل هذا جمادٌ ... وكيف تروم بالصخر اعتصاما؟
فكم في الحيِّ من قلب أصمٍّ ... تنكَّر أو تجَاهَلَ أو تعامى
وكم صخرٍ أحسَّ بما عنانا ... وما عَرّفَ الحديثَ ولا الكلاما
وكم في الناسِ من رجلٍ قويٍّ ... شديد البأس يقتحمُ اقتحاما
تَعرَّضَ للحوادثِ لا يبالى ... تَلقَّاها نصالاً أم سهاما!
فإن عرضتُ له الذكرُ الخوالي ... رأيتَ الكونَ في عينيه غاما
عرته الرجفةُ الكبرى وراحتْ ... جيوشُ الصبرِ تنهزمُ انهزاما
بربكِ أيها الأنوارُ ماذا ... صنعتِ بساهرٍ ألفِ الظلاما
بربك أيها الأمواجُ ظلّتْ ... على الشطئانِ ترتطمُ ارتطاما
أتيتُكِ أبتغي منك التأسِّي ... وأنشدُ في نواحيك السلاما
أراكِ فتحتِ لي شجنًا جديدًا ... وكنت أرومُ للماضي التئاما
وهيتُ وخانني جَلَدِي وإلاَ ... فهذى الدمعةُ الحرَّى علاما

[1] ديوان إبراهيم ناجي / قصيدة صخرة المكسي.

أيــا بلــد التــأسي كيــف أنــسى ... زمـــاني فيـــك كهـــلا أو غلامـــا
ويـــومَ أتيـــتُ مكتئبًـــا علـــيلًا ... أحـــسُّ البَـــيْنَ يـــدنو والحِمامـــا
أجرجـــرُ فيـــكِ أقـــدامًا ثقـــالًا ... وأجمـــعُ مِـــنْ عزيمتـــي الحطامـــا
وعـــلاتي وأدوائـــي كبـــارٌ ... شربـــنَ دمـــي وأبلـــينَ العظامـــا
أراكِ فـــلا أبـــالي بالمنايـــا ... وأحمـــدُ عنـــد شـــاطئِك الختامـــا
وكـــم طـــافَ الرفـــاقُ وغـــادروني ... كَعُـــوَّادٍ قـــضَّيْتُ عامـــا
تمربـــى الحيـــاةُ ولـــستُ أدري ... أيـــومٌ مـــرَّام قـــضَّيْتُ عامـــا
عرفتـــك والـــشتاء يمـــدُّ ظـــلّا ... ويـنـــشرُ في جوانبـــكِ الغمامـــا
عرفتـــكِ والمـــصيفُ عليـــكِ زاهٍ ... وقـــرنُ الـــشمسِ يـــضطرمُ اضـــطراما
عرفتـــكِ والعواصـــفُ فيـــك غـــضبَى ... نـــشرنَ عـــلى محيـــاكِ القتامـــا
عرفتـــكِ والفلائـــكُ فيـــك بـــيضٌ ... مجنحـــةٌ يحـــاكينَ الحَمامـــا
عرفتـــكِ هادئًـــا والفجـــرُ غـــافٍ ... كـــأنَ البحـــر وسَّـــده فنامـــا
عرفتـــكِ كالـــصديقِ بكـــلِّ حـــالٍ ... وكنـــتِ شراب روحـــي والطعامـــا
وملحـــكِ في دمـــي وشـــذاكِ بـــاقٍ ... وهـــذا الـــصوتُ أســـمعهُ دوامـــا
تعـــالَىْ صـــخرةَ المـــاضي أجيبـــي ... وقوفـــكِ وانتظـــارُكِ إلامـــا
لقيـــتِ مـــن العبـــابِ كـــما لقينَـــا ... مـــن الأيّـــام قرعًـــا واصـــطداما
كأنـــكِ للـــورى هـــدفٌ وهـــذى ... جمـــوعٌ تبتغـــي أمـــرًا جـــساما
إذا مـــا أخفقـــوا رجعـــوا فُـــرَادَى ... وإن همُّـــوا وجـــدتهُمُ زحامـــا
فـــؤادي إنْ تغـــيرتِ الليـــالي ... فمثلـــك مَـــنْ رَعَـــى فيهـــا الـــذماما
بلغنَـــا كعبـــةَ الآمـــالِ فاخـــشع ... ودعْنـــا في مناسِـــكهَا قيامـــا
خُـــذِ الـــسلوانَ مـــن حجـــرٍ صـــوتٍ ... فـــما أحـــراكَ بـــالحجرَ اســـتلاما
بربـــكَ أيـــن أحـــلامٌ غَـــوالٍ ... وعمـــرٌ قـــد قطعنـــاه نيامـــا
ونـــسُقاه أمـــانيَ أو خيـــالًا ... ونطعمُـــه قـــصيدًا أو غرامـــا
وعهـــدٌ كـــانَ فيـــك ربيـــع وردٍ ... كهـــذا اليـــومِ حُـــسْنًا وانـــسجاما !

أحمد خميس:

١-الشاطئ الظامئ

أَوَ تذْكُرينْ ... ؟

أَوَ تــذْكرينَ الــشّاطئَ الــوَرْديَّ .. والعُــشبَ النَّــدِي
وَحــديثَ وشْوشَــةٍ تــروحُ عــلى الرِّمــالِ .. وتَغْتَــدي
لّمــا تَعاهَــدْنا .. وقــدْ نامــتْ يَــداكِ عــلى يَــدي
أقْــسَمْتِ لي .. والــشَّمسُ تَغفــو فــوقَ صــدْرِ المُخْمَــلِ
وَتَلْمِلــمُ اليــاقوتَ في جِيــدِ المُغيــبِ الــشَّاردِ
أقْــسَمْتِ لي .. إنّ الهَــوَى سَــيَدُوم لي .. أقْــسَمْتِ لِي
فَــضَممْتُ أسرابَ الأمــاني كُلّهــا في ســاعِدي
وَسَــكِرْتُ في هــذا البَريــقِ الــشّاحِبِ
يَنْــسابُ في صَــمْتٍ .. كَهَمْــسِ الرَّاهِــبِ

أَوَ تَذْكُرينْ ..؟

***

أســطورَةُ الحُــبِّ التــي كانــت ربَيعًــا .. وجَنَــى
لمْ يَرْوِهــا شَــوْقٌ عــنِ الأحبــابِ يومًــا .. قَبْلنــا
لا .. لمْ تُــرددْ مِثلَهــا الأمــواجُ .. حتّــى بْعــدَنا
كانــتْ غِنــاءً .. بــينَ ألْحــانِ الطيّــورِ العائِــدَه
كانــتْ نِــداءً تَرْتَــوي منــه القلــوُب الظّامِيَــه
أقْــسَمْتِ أن تَحيــا ضــياءً للأمــاني الوَاعِــدَه
وحِكايــةً .. يزْهــو العَــصيفُ إذا حكَاهــا ثانِيــه
وَرَفَعْتِنــي مِلكًــا عــلى هَــامِ الــسَّما

---

* أحمد خميس (١٩٢٥ – ٢٠٠٨) ولد بالقاهرة، وتخرج في مدرسة الفنون والصنائع، عمل مذيعًا بمصر وألمانيا، وممثلًا سينمائيًا، وأصدر ديوانه «الروابي الخضر» (١٩٩٥م).

مَلِكًا يعابث في يَدَيْهِ الأنجُما
أَوَ تَذْكُرِينْ ... ؟

* * *

أَقْبَلْتِ في تَرَفِ الجَمَالِ .. وفي تَجَنِّي سِحْرِهِ
وجَمَعْتِ لي كَرَمَ الرَّبيعِ .. وكُنْتَ أكْرَمَ زَهْرِهِ
وفَرَشْتِ دَرْبي بالعَبيرِ .. وكنتِ أَشْهَى عِطْرِه
صُوَر .. يُهَدْهِدُها الخَيالُ لِترسُمَ الحُلْمَ الجَميلْ
حُلْمًا تُبارِكُهُ الدُّفوفُ .. وَتَجْتلِي فيهِ الشَّموعْ
حُلْمَ العروسِ تَتِيهُ في وَشْيِ الصَّبايا .. أَوْ تَمِيلْ
في كَلِّ رُكْنٍ فتنة تَخْتالُ .. أو عِطرٌ يَضوعْ
وأنا وأنتِ .. فراشتانِ تعاهدا
تَمضي بنا أَقْدارُنا خَلْفَ المَدَى
أَوَ تَذْكُرِينْ ... ؟

* * *

راحَت ليالي الصَّيفِ يا حَسْناءُ .. وانْفَضَّ السَّمَرْ
ومواكبُ العُشَّاقِ .. لا ترجو وداعًا أو سَفَره
هذا عَصِيُّ الدَّمعِ يُخْفيهِ .. وهذا ما صَبَرَه
والشَّاطئُ المهجورُ .. تَبْكيه العيونُ الرَّاحِلَه
لِتَمُدَّ أَذْرُعَها سَحاباتُ الخَريفِ الآتِيَة
وأنا .. وسُهْدي .. واللَّيالي العاوِياتُ الذّابِلَة
لم يَرْتَحِلْ عنَّا الوَفَاءُ .. ولا البَقايا الباقِيَة
لنظَلّ نرعى ذِكْرياتِ المَوْعِدِ
في لَيْلَةٍ .. نامتْ يداكِ على يَدي
أَوَ تَذْكُرِينْ ... ؟

٢- يا بنات (الإسكندرية)

يـــــا بنـــــاتِ (إســـــكندرية) .. حَبّـــــة القلْـــــب الوَضّـــــية
كلّــــــما عــــــاوَدَني الــــــشّوق لأيّـــــامي الخَلِيّـــــة
هتّـــــفَ القلـــــب وغَنّـــــى .. للعيـــــونِ العَـــــسَليّة
وجبـــــينٍ .. رَقَـــــصَ النّـــــورُ عليـــــهِ
ســـــافرتْ ألوانُـــــه في خُـــــصلتيه
ذكريـــــات .. لم تـــــزلْ نـــــشوى .. صَـــــبيّه
آهِ لـــــو عـــــادت لياليهـــــا الهَنّيـــــه
يـــــا بنـــــاتِ (إســـــكندريّة)

❊ ❊ ❊

شـــاطئ (اســـتانلي) .. رعـــاكَ الحـــبُّ .. مـــا طـــالَ العُمُـــرْ
كـــمْ عـــلى صـــدرِك ضـــمّ المـــوج أحـــلامَ القمـــر
وصَـــحَتْ فـــوق لياليـــك الليّـــالي .. والـــسَّمر
وأنـــا طفـــل عـــلى دَرْبِ الهـــوى
أبـــيضُ الخَطـــوةِ .. وَضّـــاح الـــرّوا
ذكريـــات .. لم تـــزَلْ نـــشوى .. صـــبيّه
آه لـــو عـــادت لياليهـــا الهنيّـــة
يـــا بنـــات (إســـكندريّة)

❊ ❊ ❊

موكـــب الأقـــمارِ .. يختـــالَ عـــلى الـــشّطّ الحريـــر
يلـــثمَ الرّمـــلَ خطاويـــهِ .. فيهتـــزّ العبـــير
ولهاثـــات الأمـــاني .. حيـــثما ســـارَ .. تـــسيرْ

مهرجـــــــــــــان الحَـــــــــــسْن في موكبــــــــــــهِ
يتغنَّـــــــــى شـــــــاطئَ (اســــــــتانلي) بـــــــــهِ
ذكريــــــــــاتَ .. لم تــــــــزلْ نـــــــــشوى .. صـــــــــبيّه
آه لـــــــــــو عــــــــــادت لياليهــــــــــا الهنيّـــــــــــه
يـــــــــا بنــــــــــــات (إســــــــــــكندريّة)

* * *

عُـــــدتَ يـــــا شـــــاطئ .. تنهـــــلّ بـــــصمتي .. وحـــــدتي
عـــــدت والأشـــــواق في جنبـــــيَّ .. ترعـــــى خَطـــــوتي
لِلّتـــــــي أورَقَ في رَوضي صِـــــــباها .. والّتـــــــي
لم تَـــــدَع في كـــــأس عمـــــري غـــــيرَ قَطـــــرةَ
وشـــــهيدَ الحـــــبِّ لا يمِلـــــك أمـــــره
ذكريــــــــــات .. لم تــــــــزل نـــــــــشوى .. صـــــــــبيّه
آه لـــــــــــو عــــــــــادت لياليهــــــــــا الهنيّـــــــــــه
يـــــــــا بنــــــــــــات (إســــــــــــكندريّة)

٣- الغردقة

عُذْ للأمانيِّ العِذابِ المورِقة

فالحُلمُ يهوي في الهوى أن تسرِقه

ويقول .. أهلًا بالقلوبِ العاشقة

في رقصةِ الأقمارِ عند (الغردقة)

❊❊❊

الماءُ نافوراتُ دُرٍ .. كالخيالِ الرّائقِ

نشوى .. تُعابِثُها النسائمُ .. كي تعودَ .. وتلتقي

كأنها حباتُ ماسٍ .. في الوشاحِ الأزرقِ

يشدو بها التّيارُ

في زورقِ الأقدارْ

ليقولَ .. أهلَا بالقلوبِ العاشقة

في رقصةِ الأقمارِ عند (الغردقة)

يا موعدًا غنّي له عطرُ الحبيبِ العاشقِ

مُسْترِوحًا في زورقي دفءَ اللقاءِ الشيّقِ

ترنيمةُ السّحرِ الذي أنغامُه لَمْ تُخْلَقِ

مسحورة الأوتارْ

في موكبِ الأنْوار

ليقولَ .. أهلَا بالقلوبِ العاشقة

في رقصةِ الأقمارِ عند (الغردقة)

❊❊❊

يا زهرةً نامتْ على أحْلى جبينٍ مشرقِ

تنهـــلّ مـــن نبـــعِ الـــضِّياءِ .. ومـــن صـــباحِ المِفَـــرْقِ
لتكـــونَ مُتَّكـــأ الحنـــانِ .. الـــشّاعريِّ .. المُعـــدِقِ
والـــــــــــــــــشّاطئُ الثّرثـــــــــــــــــارْ
لا يكـــــــــــــــــــــــــــتمُ الأسرارْ
ليقـــــــولَ .. أهـــــــلًا بـــــــالقلوبِ العاشـــــــقة
في رقـــــــصةِ الأقـــــــمارِ عنـــــــد (الغردقـــــــة)

جليلة رضا:

١- إسكندرية في الشتاء

إسكندرية ما أصابك ؟ إنها نفس الحكاية
هي قصة امرأة بدت في حسنها الصيفيِّ آية
لم يبق للعشاق بعد شتائها أمل وغاية
أو تلك خاتمة الحسان الغيد ؟ يا بؤس النهاية

* * *

دارت بك الدنيا ويا ويل الجمال من الزمانِ
حملتك من دفء العذوبة للبرودة والهوان
فبكيت شاحبة الجبين ، بكيت ضائعة الأماني
وملأت بالمستنقعات السود أحشاء المكان

* * *

أيها العبيد ؟ عبيد حسنك ، أين عشاق الجمال ؟
أي الألى من آخر الدنيا أتوا رغم المحال
أغريتهم وسلبت وقتهمُ وما ضنوا بمال
ورميتهم في البحر عابثة فعاثوا بالرمال

* * *

الضِّفة الشقراء كم قصص بها كانت تدور
أين انطوت ضحكاتها النشوى كألحان الطيور

---

* جليلة رضا (١٩١٥- ٢٠٠٣) ، ولدت بالإسكندرية ، واكتشف شاعريتها الشاعر ناجي، أصدرت عدة دواوين: اللحن الباكي، الأجنحة البيضاء ، أنا والليل ، لمن أغاني ، وأصدرت سيرتها الذاتية وصفحات من حياتي (١٩٩٦).

أيـن الهـوى والغمـز والقـبلات مـن خلـف الـصخور
وصـدى الأكاذيـب الحبيبـة والأمـاني والغـرور

* * *

ذهبـت ولم تـترك هنـا فـوق الرمـال سـوى الـضياع
وملامـح الهجـران حينًـا والقطيعـة والـوداع
وسـوى زئـير البحـر يخـبط ضـاربًا صـدر البقـاع
ودمـوع شـاعرة لهـا قلـب أثـيري الـشعاع

* * *

الـسيل يغمـرني وحبـات الثلـوج تـدق رأسي
والـريح مـن حـولي تـصفر في أسـىً دام ويـأس
والـبرد ينـشب نابـه ويـدب في أغـوار نفـسي
والبحـر ! يـا للبحـر عربيـد تجـرع ألـف كـأس !

* * *

هـذا هـو الـصياد يرقـب ثـورة البحـر الإلـهْ
قـد شـد زورقـه وأرخـى الحبـل واسـترخت خطـاه
وطـوى الـشباك ومـا طـوى الـصبر الحلـيم عـلى أسـاه
يـا أيهـا البحـر العنيـد امنحـه أرزاق الحيـاة ...

* * *

إسـكندرية ! يـا عـروس البحـر حـسنك لا يغيـب
إعـصارك المجنـون يـصرع كـل إحـساس مريـب
وشـتاؤك الـواهي تـدب بـه الحيـاة مـع الغـروب
والليـل فيـك الليـل فيـك نـداؤه مغـر حبيـب !

* * *

فـوراء جـدران البيـوت يمـوج سـحر مفتـنن

وهنـــــاك مـــــــدفأة ومـــــــصباح وركــــــن مـــــؤتمن
وهنـــــاك تجلـــس «جــــدة» الأطفـــال تـــستوحى الــــزمن
تحكــــي حكايـــــة «ابنــــه الــــسلطان والــــشاطر حـــسن»

***

حتــــى إذا مـــر الـــشتاء نفـــضت عنـــك أســـى الجمـــود
ورجعــــت ـــــ يــــا حــــظ الطبيعـــة ـــــ للأمـــاني والعهـــود
وبـــدأت ـــــ يــــا حــسن النهايــة ـــــ فجـــر عمـــرك كالوليـــد
ليـــت الأنـــام لهـــم ربيـــع كـــل عـــام مـــن جديـــد !

٢-نهاية صَيف
«ماذا جنيت لكي أحس كأن لي قلبا غريبًا !»

أواه كـــم تتكـــشف الـــدنيا لعينـــي والوجـــود
وأنـــا هنـــا بالـــشط أرقـــب ذلـــك البحـــر المديـــد !

***

يـــا بحـــر ! يـــا بحـــر اســـتكن فقـــد أتيتـــك خـــائرة
لـــيلى عـــلى كفـــيّ محمـــولٌ ونفـــسي حـــائرة
لكننـــي أتتبـــع الأمـــواج في لهـــفٍ حـــزين
أبـــدا تمـــرّ ولاينـــي ألمـــي يمـــرّ مـــع الـــسنين
فـــأحسّ أن هنـــاك شـــيئًا قـــد توغّـــل في فـــؤادي
وصـــدى كغـــصّات النحيـــب يـــرنّ في أفـــق انفـــرادي !
هـــذا الـــصدى الملمـــوس لـــذّاعٌ كأنفـــاس اللهيـــب
متجـــاوب الأنغـــام والأنـــات في روحـــي الكئيـــب

***

وتظلنـــي ســـحبٌ مـــن الأفكـــار داجيـــة الغيـــوم
تمـــتص مـــن دمـــيَ المرنّـــق بالمـــصائب والهمـــوم
لكننـــي أمـــضى موزعـــة الأمـــاني والـــشجون
وأعـــود للـــسير الطويـــل لكـــي أرفّـــه عـــن عيـــوني

***

لا شيء غـــير صـــبية رقـــدت عـــلى قـــيظ الرمـــال
كـــالوردة ال»فيحـــاء عالقـــة عـــلى صـــدر الرجـــال

وصـــياح طفـــل ضـــاحك يلهـــو مـــع المـــوج العنيـــد
مرحًـــا كأطيـــار الـــربي . عبقًـــا كأنفـــاس الـــورود
لا شيء غـــير الـــصمت . غـــير القفـــر في ظـــل الخريـــف
والأفـــق والـــشط المديـــد وذلـــك البحـــر المخيـــف
والـــريح تلـــتهم الطريـــق وتنثنـــي نحـــو الفـــضاء
والتـــلّ يحـــدث بي وينـــشر ظلـــه فـــوق العـــراء
فـــأحيط بالعـــدم الخفـــي . بكـــل ألـــوان الفنـــاء
بالـــشك . بالبغـــضاء . باليـــأس المخـــيم والـــشقاء
وأروح أعـــصره فراغًـــا قـــاتلًا جهـــمًا عنيـــد
متفجـــرًا مـــن بـــين قبـــضتي الـــضعيفة في شرود
ويعـــود يقفـــز مـــن جديـــد في دجـــى صـــمتي ويـــأسي
ذاك الـــسؤال الحـــائر المنـــساب في أغـــوار نفـــسي

* * *

«مـــاذا جنيـــتُ لكـــي أحـــسّ كـــأن لي قلبًـــا غريـــب ؟
قلبًـــا تنازعـــه الريـــاح كـــذلك المـــوج القريـــب
أواه لـــو أحيـــا كـــما تحيـــا جميـــع الكائنـــات !
وأســـير في ركـــب الـــورى وأغيـــب وأغيـــب عـــن ذكـــرى حيـــاتي
لم لا أعـــيش كطـــائر هـــيمان في حـــضن الطبيعـــة
نغمـــي تـــردده النـــسائم ســـاعة الفجـــر الوديعـــة
لم لا أعـــيش كـــما يعـــيش القـــط موفـــور الوداعـــة ؟
كالطـــلّ في صـــدر الـــربي . كالنمـــل في ظـــل القناعـــة
لم لا أكـــون كمطفلـــةٍ تلهـــو عـــلى شـــط الميـــاه
أهـــزا بقـــسوة هـــذه الـــدنيا وآلام الحيـــاة
وإلى متـــى ظهـــري تحطمـــه أعاصـــير الريـــاح

ويزيــــل عــــن وجهــــي ظـــلامُ الليـــل أنـــامَ الـــصباح
ولمَ الحقيقـــــة لا تـــــسدّ عـــــلىّ أبـــواب الخيـــــال
فــــأكفّ عـــن جريـــي وراء الـــضوء في جـــوف الليـــالي
وأفـــك أغـــلال الأســـى وأضـــمدّ الجـــرح العميـــق
وأزيـــح مـــا يبحثـــو هنـــا في هـــوّة القلـــب الـــسحيق ؟

***

أنــــا لا أحــــسّ بآدميـــة هـــذه الـــنفس الغريبـــة !
أنــــا لا أرى الـــدنيا ســـوى صـــورٍ وأشـــباحٍ رهيبـــة
أواه لــــو أحيـــا كـــما تحيـــا جميـــع الكائنـــات
وأســـير في ركـــب الـــورى وأغيـــب عـــن ذكـــرى حيـــاتي .. !

فتحي سعيد:

١-ذكريات الشاطئ

أيها الشاطئ كم جئنا هنا ... نستقي الأحلام من كف المنى
كم مضى الزورق مختالًا بنا ... ضاحك المجداف جَذلان الخطى
كم شكونا من غرامٍ ولظى ... وأتيناكَ فأطفْينا اللظى
وعلى الموج ترامى موكب ... من سني البدر وهالات الدجى
ترقص الأنوار نشوى حولنا ... حائمات كفراشات الرؤى
كم على الشاطئ أطفينا الأوارا
وأتيناهُ إذا النور توارى
نفرغ الكأس ونرتدَّ سكارى ... ومن الأعماق نهريقُ الجوى ...!

***

أين يا شاطئ أيام اللقاء ... وزمانُ الحب في ظل الهناءْ ؟
أين يا شاطئ راحت .. هل مضتْ ... وطواها البينُ في قبر الفناءْ ؟
كم لهونا في خميلاتِ الهوى ... ونهلنا من أمانيهِ الوضاءْ
وسكبنا ما نعاني من جوى ... وشدونا بأغاريدِ الوفاءْ
ذوْب قلبْينا سكبناه هنا ... لوعةً سكري .. وحبًا أرعنا
وعذارى الحب ترعى ظلنا ... والربيعُ الطلقُ شدوٌ وغناء ...

***

سله يا شاطئ .. إن جنَّ الدجى ... وصحا الباكي .. وهام المستهامْ

---

* فتحي سعيد (١٩٣١-١٩٨٩) : ولد بدمنهور بمحافظة البحيرة ، بعد تخرجه من معهد الخدمة الاجتماعية(١٩٥٩م) عمل مدرسًا ، ثم محررً صحفيًا بعدة صحف ومجلات ، من دواوينه: فصل في النهاية ، أوراق الفجر ، مصر لم تنم ، دفتر الألوان .

وأنـــاخ الليـــل عنـــدي ركبـــه ... حالـك النجمـةِ موصـول الظـلامْ
ونغنـــي هـــذه الـــدنيا هـــراء ... والهوى .. والحبُّ تقـديسٌ وديـنْ ..

* * *

أيهـا الـشاطئُ قـد ثـارت شـجوني ... حيـنما طافـت بنفـسي الـذكرياتْ
وصـــحا شـــوقي وأذْكـــاهُ أنينـــي ... فتـــذكرتُ الليـــالي الـــسالفاتْ
حـين عـشنا بـين أحـضان الفتـونِ ... وعيـــون الـــدهر عنـــا غـــافلاتْ
نتهـــادى بـــين شـــوق وحنـــين ... والليـــالي بهوانـــا راقـــصاتْ
آه لـــو ترجـــع أيـــام الحبيـــبْ ... وتلاقينـــا عـــلى ســـفح المغيـــبْ
فنـــروّى في فؤادينـــا اللهيـــبْ ... نُـسكر الـروحَ .. بخمـرِ القـبلاتْ

٢- قلب وحيد

البحر يصفعُ جهة الليل العريض
بقذائفِ الموج العنيد
والليلُ يُوغل في الظلام بلا امتداد
في خطوة عرجاءُ رنحها المسير
فلا تسير!
وكأنه ضيرٌ مهيضُ
تغفو على أجناحه شتى القيود
والفجرُ مشلولُ الحراك على الطريق
مثلي أسير
في سجن أوهامي العتيدِ ولا أفيقْ
والشاطئُ المهجور جمّدهُ الشتاء
يا للشتاء!
في موكب البرد الرهيب
ضَرَب الخيامْ
ومشى على هام الجبال
وصقيعهُ مثل الِحرابْ
في عَرباتِ كالخيال
والبيد تنعقُ في الخرابْ
خرساءُ في صمتٍ كئيبْ
والنجمة الحسناءُ ترقص في السوادِ فلا حراكْ

ولا هناك

قـــبسُ يـــضيءُ ولـــو ضـــئيل

وكأنـــــه ركـــب الحـــداد!

والبـــدر ذيـــاك الجميـــل

ما للجميل؟

خلــــف الــــسحابُ

غرقـــان في طـــي الغيـــوم

والـــبرق يرعـــد في عـــواء

ويهـــز أســـتار الـــسديم

في قهقهات قاصفات

فيـــشق أركـــان الـــسماء

وتمـــوتُ رجرجـــة النجـــوم

في ومـــــضة متتابعـــــات

والريـــاح مثـــل الغـــول تلطـــم في عويـــل

وصراخهـــا غمـــر الـــشعاب

وسرى عـــلى الجبـــل الكبـــير

في لونـــه مثـــل الـــضباب

وعواوهـــا المجنـــون كـــاللحن المريـــر

والكـــون في صـــمت ذليـــل

وهنـــاك في القفـــر البعيـــد عـــلى بعيـــد

خلـــف الحيـــاة بـــلا حيـــاه

قلب وحيد

ضـــــلت خطـــــاه

خفقاتـــه الجـــرداء يخنقهـــا الـــسهاد

صـــــفراء في لـــــون الأنــــين
ومع السهاد
في رعـــشة تغفـــو يـــداه وعـــلى الجبـــين
يقظـــان بالقيثـــار يـــستجدي الـــسماء
ويـــذيب في أوتـــاره لهـــب الـــدموع
والحـــس والـــروح الـــشرود
ويـــضيء في محرابـــه كـــل الـــشموع
والفكـــــر يـــــصنعه وقـــــود
فيـــذوب مـــن هـــول الـــصقيع
ويطـــل مـــن خلـــف الـــسنين
جـــــمّ الـــــشجونْ
حـــيران يملـــؤه الفـــراغ لا انتهـــاء
لهفـــان ينـــشد دفـــئ الـــصدر الحنـــون
لا دفء يمنحـــــــه امـــــــتلاء
ويعـــود للقيثـــار يـــستجدي الـــسماء
قيثـــاره خـــشب الـــضلوع
أوتارهـــا خفـــق الولـــوع
في أنـــــة بكـــــاء
والبحـــر يـــصفع جبهـــة الليـــل العـــريض
بقـــذائف المـــوج العنيـــد
والفجـــر مـــشلول الحـــراك عـــلى الطريـــق
وكأنـــــه طـــــير مهـــــيض
مثل أسير..
في ســـجن أوهـــامي الكبـــير

ولا أفيق

ولا هناك

قـــــبسٌ يـــــضيء ولـــــو ضــــئيل

وهنـــــاك في القفـــر البعيـــد عـــلى بعيـــد

خلف حياة

قلب وحيد

ضلت خطاهُ

ولا رفيقْ

٣- رباعيات السلوم

يـــا صـــديقي.. لا تـــسلني كيـــف أحيـــا يـــا صـــديق
أنـــا أمـــشي لـــوراء .. لا أمـــام.. في طريقـــي
كبـــل القيـــد حيـــاتي وخبـــا فيهـــا بريقـــي
لا تـــسلني كيـــف أحيـــا؟ لـــست أحيـــا يـــا رفيـــق

أنـــت تـــدري كنـــه ذاتي وشـــبابي أنـــت تـــدري
إن ذاتي طـــــي سر غـــــاب في أعـــــماق سر
وشـــبابي مثـــل زهـــر لم يفـــح يـــوم بعطـــر
وأنـــا أحيـــا ولكـــن كيـــف أحيـــا لـــست أدري

كنـــتُ في الآفـــاق طـــيرا مـــشرق النـــور جنـــاحي
طـــائرا فـــوق البـــوادي ســـاريا عـــبر البطـــاح
صـــاعدا بـــين الـــروابي هابطـــا عنـــد الأقـــاحي
يمـــلأ الأكـــوان شـــعري وغنـــائي ومراحـــي

فجـــأة شـــلت جنـــاحي عاصـــفات مـــن ريـــاح
وغـــدا النـــور ضـــباب تيـــه قـــد ضـــل صـــباحي
وإذا الواقـــع قيـــد غـــل مـــن طـــول سراحـــي
فهـــوى الطـــير صريعـــا يتنـــزى مـــن جـــراح

كـــم ليـــال بـــتُ فيهـــا لا نـــديمُ غـــير كـــأس
كاتمـــا أشـــجان قلبـــي طاويًـــا أسرار أمـــس
غارقـــا في ذكريـــاتي نـــضو أوهـــام وبـــأسي
وحـــوالي صـــحابي في ابتـــسامات انـــس
فـــإذا مـــا فـــاض حـــسي وكثـــيرا فـــاض حـــسي

---

* رباعيات السلوم، فتحي سعيد ، المجلس الأعلى للفنون والآداب ، القاهرة ١٩٨٠، أمضى الشاعر فترة في مدينة السلوم في عام ١٩٦٠ بالتدريس.

بحـــتُ بالـــشكوى إلـــيهم عـــلّ في الـــشكوى تـــاسٍ
غــــير إني لا ألاقـــــي بيــــــنهم أصــــداء نفـــــسي
هكــــذا يـــا قلـــب تحيـــا مـــن تعاســـات لـــنحس
عجبـــا كـــانوا كثـــيرا مـــا لهـــم صـــاروا قلـــيلا؟
كلـــــما يـــــشتد قيظـــــي لا أرى ضـــــلا ظلـــــيلا
لا أرى قلبـــا جمـــيلا يـــسكب الحـــب الجمـــيلا
لا.. ولا أســـــمع إلا دمـــــدماتٍ وعـــــويلا!
أنـــت تلهـــو يـــا صـــديقي وأنـــا وحـــدي أقـــاسي
هـــــذه الأقـــــدار حـــــولي تتلهـــــى بـــــافتراسي
أعلنـــت حـــربي.. وصـــبت مـــرًّ كفيهـــا بكـــأسي
فـــشربتُ الكـــأس رغمـــي وتجرعـــت المـــآسي
كلـــما طـــال نـــضالي كلـــما ألقـــى عـــذابي
وإذا هـــان ســـهادي طلـــع الـــصبح ضـــباب!
وإذا مـــا لاح نبـــعٌ لم أجـــد إلا سرابـــا!
تعبـــتْ روحـــي وهـــذا الـــصبر بعـــد الـــصبر ذاب
أو تـــــراني في ابتـــــسام لا يغرنـــــك ابتـــــسامي
أو تـــرى ثغـــري ضـــحوكًا فهنـــا جُرحـــي دامـــي
أنـــا إن أحيـــا طروبًـــا فلكـــي أخفـــى ســـقامي
يـــرقص الطـــير ذبيحًـــا تحـــت ســـكين الحـــمام
بـــسمتي لا أحـــس فيهـــا لا ولا هـــذا الحَبـــور
إنهـــا رســـم تـــراءى إنهـــا إفـــك وزور
هـــا هنـــا قـــد مزقتنـــي خافيـــاتٌ مـــن شـــعور
مـــلء أعماقـــي تـــوارتْ وأنـــا فيهـــا أدورْ
كـــل مـــن في الكـــون حـــولي ســـعداء بالأمـــاني
طُلقـــاءُ لم يعـــانو وأنـــا وحـــدي أعـــاني

قــــد ســـقيتُ النّــــاس حبـــي مـــن ينــابيع حنـــاني
هــــا أنــــا أطلـــب ريــــا أتــــرى نبــــعُ ســــقاي؟
أحيــــاةُ النـــــاس ســــعدٌ وحيـــــاتي مــــن عـــــدم؟
هــــل تـــرى الله براهـــا مـــن نعـــيم.. وهـــي لِمْ؟
قــــدرا كــــان شـــــقائي ووجــــودي مـــــن ألمْ
في كتــــابي كــــان هــــذا حيــــنما خـــطّ القلـــمْ!
لهـــم اللحــــن جميــــلٌ ولي اللحـــــن أنـــينْ
لهــم القلــــب طــــروب وأنـــا قلبـــي حـــزينْ
لهــم الـــدهر ســــخاءُ ولمـــا دهـــري ضـــنينْ؟
كــل شيء ضـــاع منــــي.. آه يــــا تلــــك الـــسنين
كلــــما أرســــلت عينــــي لا أرى غــــير عبيــــدْ
ألَهـــوا المــــال.. وعاشـــــوا في هـــواهُ في قيــــودْ
ســــلعٌ في الــــسوق راجـــت مـــن هبــوط لــصعوده
أينعــــوا في الــــشوك زهـــرا ومــــشوا في الطـــين دُود
مـــن أمـــين لعهــــودٍ مـــن مُقـــيم لوفـــاءْ؟
مـــن رحـــيم القلـــب واسي هـــؤلاء البؤســـاء!
مـــن عطـــوفٍ ذي حنـــانٍ بنفـــوس الأشـــقياء
مـــن عـــلى الأرض رقيـــب خـــافَ مـــن رب الـــسماء
كـــل مـــن فيهـــا أنـــاس مـــن عُفونـــات وطـــينْ
عبـــدوا المـــال وعاشــــوا بالمعـــاني مُـــشركينْ
ونـــسوا الحـــب وبـــاتوا في عماهــمْ مُــدْلجينْ
ليـــتهم يـــا قلـــب يومـــا أدركـــوا الـــسر الـــدفينْ
لـــت تـــرى فـــيهم جمــالا أو قلوبـــا حانيـــه
لا تـــرى فـــيهم صـــفاء أو معـــان ســـاميه
لا تــــرى إلا ســــوادًا ونفوسًـــا داجيـــه!

وقلـــــوب أترعتهـــــا جرعـــــاتُ الـــــساقيه!
جرعـــاتٌ مـــن حيـــاةٍ كـــل مـــا فيهـــا هـــراءْ
نفـــــضاتٌ تعترينـــــا ثـــــم نمـــــضي لفنـــــاءْ
هـــذه الأحيـــاء فيهـــا مثـــلُ ريـــشٍ في هـــواء
آه لـــــو يعلـــــمُ قـــــومي أن في الحـــــبِ البقـــــاءْ!
إن يلُـــحْ فـــيهم جمـــالٌ فهـــو رســـمٌ وقنـــاعْ
أو تـــرى فـــيهم صـــفاء فهـــو زيـــف وخـــداعْ
لا. وإن تُبـــصر ســـلاما فهـــو حـــربٌ وصراعْ
ويـــحَ قـــومي .. هـــذه الـــدنيا ريـــاحٌ وشراعْ!
مـــا عـــلى النـــاس جميعًـــا أن يعيـــشوا في ســـلامْ
في معـــاني الحـــب يحيـــونَ وفي ظـــلِ الوئـــامْ
لا ينـــال الحقـــد منـــا لا يوارينـــا الخـــصام
إنـــما الإنـــسان للإنـــسان درع وحـــسامْ
آه لـــو يعلـــم قـــومي أن في الحـــب الحيـــاه
إنـــما يـــربط بينـــي وأخـــي لـــيس ســـواه
إنـــه في الأرض نـــور طهـــر الـــدنيا ســـناه
وبـــه أعـــرف نفـــسي وأرى كُنـــه الإلـــه
مـــن تـــرى أســـهد أمـــي وأنـــا طفـــل رضـــيع؟
والـــذي فجـــر قلـــب الـــشاعر بـــالمعنى الرفيـــع؟
وغنـــاء الـــصادح بالألحـــان في عُـــرس الربيـــع؟
إنـــه الحـــبُ ولـــولاه لعـــشنا في صـــقيع!
كـــان لي حبـــا جمـــيلًا علـــم الـــنفس الجـــمالا
ذات يـــوم زال عنـــي لـــست أدري كيـــف زالا!
أيقينـــا عـــشت فيـــه أم تـــرى كـــان خيـــالا؟
كـــل مـــا أدريـــه أني فيـــه مارســـتُ الكـــمالا!

عجبـــا قـــد مـــر أمـــس طاويًـــا مأســـاة حبـــي
مـــا لقلبـــي اليـــوم يهفـــو للهـــوى يـــا ويـــح قلبـــي
مـــن جديـــد لاح حـــب فـــرش النـــور بـــدربي
لا تلـــنْ يـــا قلـــب حـــسبي في الهـــوى مـــا كـــان حـــسبي!
أطريـــق فيـــه شـــوك وطريـــق النـــاس زهـــرُ؟
وبكـــأسي الـــوهم يجـــرى وكـــؤوس النـــاس خمـــرُ!؟
وأنـــا الظمـــآن لكـــن دون ورد النبـــع قفـــرُ
آه .. يـــا ليـــل حيـــاتي لم يلـــح خلفـــك فجـــرُ!
أو بـــين الـــدهر ثـــأرٌ والأمـــاني أي ثـــار؟
كلـــما طـــار جنـــاجي تـــاه في الأفـــق الهـــزار
وإذا ســـار شراعـــي ضـــل مـــن طـــول المـــدار
كبّـــل القيـــد وجـــودي وخبـــا ضـــوء النهـــار
ســـئمت نفـــسي حيـــاة مـــن عـــواء وصـــخبْ
بـــدمي رويـــت غـــصني فجنـــى كفـــى الحطـــب!
بـــالمنى أشـــعلتُ عمـــري فـــشوى عُمـــري اللهـــبْ
فلـــما أشـــقى بـــدهري تبـــت الـــدنيا وتـــبْ!
كلـــما جمعـــت نفـــسي في طريـــق نحـــو غايـــة
أبـــصر الرحلـــة طالـــت وهـــي لمـــا في البدايـــة
أي لغـــز قـــد تـــوارى وغمـــوض في النهايـــة!؟
آه يـــا لغـــز حيـــاتي بـــين تكـــرار الروايـــة!
عـــدتُ للوحـــدة لمـــا ضـــل خطـــوي في حيـــاتي
عـــدمٌ فيهـــا وجـــودي وســـدودٌ طرقـــاتي
أي شيء لي فيهـــا بعـــد فقـــد الأمنيـــاتِ؟
بـــين مـــاضٍ قـــد تـــولى وفجـــاءت بـــآت
عـــدتُ للوحـــدة وحـــدي جئـــتُ للـــصمتِ الفـــسيح

علـــهُ في التيـــه قلبـــي مـــن عنـــاء يـــستريح
مـــن حيـــاة لـــيس فيهـــا غـــير أشـــواك وريـــح
وغـــرام في بقايـــا القلـــب جـــرح وجـــريح!
ربـــما الوحـــدة تـــشفى مـــا بقلبـــي مـــن شـــجن
وحيـــاة القفـــر تجلـــو مـــا أعـــاني مـــن محـــن
ربـــما أنـــسى غرامـــا مـــلء جنبـــي دفـــنْ
ربـــما يـــسلم دهـــري مـــن متاهـــات الـــزمنْ!
هـــا هـــي الـــصحراء لاحـــت في ثـــرى الـــشط البعيـــد
وعـــلى البحـــر تمطـــى وغفـــا الـــرأسي العتيـــد
وهـــدير المـــوج يحكـــي قـــصة «القلـــب الوحيـــد»
مـــن جديـــد عـــدتُ عـــليَّ فيـــك أحظـــى بجديـــد!
ليتنـــي مثلـــك أحيـــا أنـــت يـــا راعـــي الغـــنم
في فمـــي نـــاي يغنـــي وبـــأعماق نغـــم
كـــل مـــا حـــولي صـــحاري وسرابٌ وعـــدم
غـــير أغنـــاني وكـــوخي وكتـــابٌ وقلـــمْ!
حبـــذا كوخـــك داري وسريـــري مـــن حـــصير
هـــو بالراحـــة أحـــلى مـــن ريـــاش وحريـــر
حبـــذا كـــسرة خبـــزٍ أو رغيـــف مـــن شـــعير!
هـــي أشـــهى عنـــد نفـــسي في هنـــائي مـــن فطـــير!
ليـــت هـــذي البيـــد ملكـــي وأنـــا فيهـــا أطـــير
تاركًـــا خلفـــي ظنـــوني ناســـيا غـــب المـــصير
لا بـــأعماقي شـــجونٌ تـــسهد القلـــب الكـــسير
لا ضـــياعٌ لا همـــوم لا إســـارُ أو أســـيرْ
ليـــت لي هـــذي المراعـــي ناصـــبا فيهـــا الخبـــا
هـــانئ البـــاب خليًـــا لا أرى دهـــري كبـــا

لا أرى فجـــري تلاشــــى وبآمـــالي خبـــا
لا ولا أبصر حولي كل يوم عجبًا! صخرة فيها خبائي بين أغنام
عنــــد بحـــر ورمـــال.. ونـــسمات عليلــــه
عـــبر بيـــد لـــيس فيهـــا غـــير أيـــام ثقيلـــه
ذاك أحـــلى عنـــد قلبـــي مـــن قيـــودي في خميلـــه!
هــــذه الـــــصحراء دار للحيـــاررى أي دار
عـــدت يـــا قلـــب إليهـــا وطـــوى البـــين المـــزار
إن يطـــل ليلـــك فيهـــا ربـــما لاح النهـــار
هــــذه الـــــصحراء دار للحيـــارى أي دار!
عـــالم لا شيء فيـــه غـــير صـــمت ورمـــال
لا يغـــل العمـــر فيـــه قيـــد أشـــجان الليـــال
كـــل مـــا فيـــه تعـــرى وطـــول لغـــز الـــسؤال
لا تـــرى شـــيئا تخفـــى في بـــواد أو جبـــال!
مـــن تـــراني؟ وكيـــاني ! ووجـــودي مـــن أكـــون؟
قـــدرة تلهـــث بالـــضعف وتكبـــو بـــالظنون
نظـــرة يرعـــشها النـــور وتعيهـــا الـــدجون
فكـــرة بلهـــاء قـــد كانـــت! ولكـــن مـــن تكـــون!؟
أتـــراني ذلـــك الـــساكن أعـــراش القمـــر!
أم تـــراني ذلـــك العاقـــل وقـــاهُ الحـــذر؟
أم لعـــلي ذلـــك المجنـــون مـــن دون البـــشر؟
أنـــا لـــيس لي مـــا شـــئت بـــل مـــا شـــاء هـــذا القـــدر!؟
أيـــن نبعـــي .. وبكـــأسي هـــذه القطـــرة جفـــت؟
أيـــن روحـــي؟ ولطـــين الأرض أقـــدامي شُـــدت؟
أيـــن أعماقـــي؟ ومـــا يومـــا عـــن النـــاس تخفـــت؟
أيـــن أيـــامي؟ وأيـــامي مـــن الحـــب تعـــرتْ!

أيـــن حبـــي ونـــداماي وأشـــجان هواهـــا؟
ودُنـــا الأحـــلام التـــي كانـــت ولا أدري مـــداها؟
ذكريـــات كلهـــا راحـــت ومـــازال صـــداها!
أيـــن أمـــضي ومتـــى يـــا رب ينجـــاب دجاهـــا!؟
أتـــراني بعـــد هـــذا هـــائما في الأفـــق ذره!
أم تـــراني غائـــب الأيـــام مخمـــورا بفكـــره
فكـــره عـــن ذلـــك الـــشيء الـــذي أجهـــل سره!
أتـــراني مـــن تـــراني؟ ليتنـــي أعلـــم مـــره!
أيهـــا الأحمـــق مـــا أحـــراك أن نـــدري الـــصواب
فلـــسفات العمـــر أشـــقتك وأبـــراج الـــسحاب
نكبـــت قلبـــي وأودت بأمـــاني الـــشباب
هـــا هـــو الواقـــع يـــدعوك قلـــب .. هـــل تهـــاب!؟
مـــا الـــذي يـــضنيك في الـــدنيا ومـــا سر العـــذاب؟
أو كنـــه الـــذات مـــا يـــضنيك أم وهـــم الـــسراب
هـــي روح برعمـــت في النـــور عاشـــت في انـــسياب
شـــدها لـــلأرض جـــسم عاقـــه قيـــد الـــتراب!!
مـــا الـــذي تجنيـــه إن أدركـــت يومـــا مـــن أنـــا؟
أو إن أدركـــت مـــا تبغيـــه تمـــضي مؤمنـــا؟
مـــا الـــذي تجنيـــه مـــا دمـــت تـــرى الله هنـــا.ط
فلأكـــن مـــا شـــئت يـــا قلـــب ولكـــن مـــن أنـــا!؟
أيهـــا الـــدهر ترفـــق كـــن نـــصيري لا عـــليَّ
نلـــت مـــا تبغيـــه منـــي وطويـــت العمـــر طـــي
إن تكـــن تبغـــي مزيـــدًا لم يعـــد في القلـــب شي!
هـــاك عينـــاي فحـــدق هـــل تـــرى ي العـــين ضي!
مُزقـــت أوتـــار عـــودي ومـــشى فيهـــا العطـــب

وسرى لحنـــي نـــشيجا ومـــع الـــريح ذهـــب
كـــان في الليـــل ســـميري كلـــما شـــئت طـــرب
كلـــما ناديـــت عـــودي لم أجـــد إلا الخـــشبْ!!
فمتـــى يـــا رب تحلـــو هـــذه الـــدنيا الكئيبـــة؟
وأراهـــا مـــن يقـــين لا خيـــالات الحبيبـــه؟
أتـــرى يـــا قلـــب هـــذي كلهـــا أوهـــام شـــاعره!؟
عـــاش في الـــدنيا طليقـــا هـــائم الأيـــام طـــائر
ثـــم جـــاء الأرض يومـــا فـــإذا بـــالحظ عـــاثر
وإذا الواقـــع مـــر وإذا الـــشاعر حـــائر!
في يقينـــي ضـــج شـــكي وتمـــاذى كـــالحريق
وبـــصدري صـــخب الهـــف بـــشوي في عروقـــي
وبقلبـــي تـــشرأب الحـــيرة في صـــمت ســـحيق
وأنـــا في كـــل هـــذا وبهـــذا كـــالغريق!
إن يكـــن يـــا رب ذنبـــي أننـــي جئـــت الوجـــود
لم يكـــن هـــذا صـــنيعي كيـــف أرضى بـــالقيود!؟
أي ذنـــب لي هـــذا وأنـــا فيـــه المقـــود؟
منـــك قـــد جئـــت ويومـــا مـــثلما جئـــت أعـــود!
عـــش مـــع الـــدنيا خيـــالا وانطلـــق عـــبر الأبـــد
هـــي مـــن أعماقـــك تنـــشال ومـــن كـــل أحـــد
وغتـــنم مـــن صـــفوك مـــا شـــئت ولـــو طـــال الأمـــد
فحيـــاة النـــاس كنـــز كلـــما عاشـــو نفـــد
لا تفكـــر في الـــذي راح ولا فـــيمن هلـــك
إن مـــا فـــات فقـــد مـــات ومـــا يـــأتي فلـــك
فلـــك الأيـــام دوار قـــدر حيـــث الفلـــك
فلكـــم يفـــتر ثغـــر الـــصبح وينجـــاب الحلـــك

ومـــضى عـــام عـــلى الـــسلوم يـــا قلـــب وولى
بالياليهـــا التـــي كانـــت بـــرغم القـــيظ ظـــلا
يـــا أحبـــائي وقـــد كـــانوا جميعـــا لي خـــلا
يـــا لحـــسنائي ذات الوشـــم إذ تنـــساب دلا!
غـــادة شـــهباء تهفـــو مـــن بنـــات العـــرب
ضـــفرت مـــن شـــعرها فرعـــا كـــذيل الثعلـــب
ورمـــت مـــن صـــدرها نهـــدا كـــرأس الأرنـــب
فـــوق غـــصن رائـــح غـــداء مثـــل اللولـــب!
يـــا لهـــا لمـــا التقينـــا في ظـــلال المغـــرب
تـــسحب الخطـــو دلالا كالمهـــا في الملعـــب
وهـــي لا تخـــشى حوالينـــا عيـــون الريـــب
جـــرأة انكرتهـــا قالـــت: إذا شـــئت إضرب!
موكـــبٌ فـــات مـــن العمـــر وأفـــراح صـــباه
نـــاعس الخطـــر قـــد عـــشتُ بمحـــراب هـــواه
يـــاري الأيـــام ســـواحا بـــلا هـــدى خطـــاه
تائهـــا كالـــسائر النـــشوان لا يلقـــى عـــصاه!
لي في الليـــل تـــسابيحي وأسرارُ دُجـــاه
ومـــع الفجـــر ترانيمـــي ونجـــوى وصـــلاه
ثـــم كـــان البـــدءُ إذ مارســـت أثقـــال الحيـــاة
يـــا لمـــا فـــات مـــن العمـــر وبـــالي مـــن صـــداء

صالح جودت:

١-شاطئ الحب

إســــــكندريةُ ، فيـــــــك الـــــــري والظمـــــــأ
بـــــأي قـــــصة حــــب فيـــــك أبتـــــدئ ؟
أقـــــصة الحـــــب طفـــــلا ، في ملاعبـــــه
لا هـــــمّ أترابـــــه الـــــدنيا ولا عبـــــأوا
أيـــــام كنـــــا نـــــرى الحرمـــــان معـــــصية
ونأخـــــذ اللهـــــو كـــــلّا لـــــيس يـُجتـــــزأ
ونجعـــــل الرمـــــل قـــــصرًا ، ثـــــم نهدمـــــه
ونركـــــب المـــــوج عرشًـــــا ، ثـــــم ننكفـــــئ

*****

ولّـــــت طفولتنـــــا كـــــالحلم مـــــسرعة
ودب في إثرهـــــا المـــــستقبل اللكـــــئ
جـــــاء الـــــشباب ، وكنـــــا ملاوتـــــه
نلهـــــو فنغلـــــو ، ونستـــــشري فنجـــــترئ
أمـــــا الـــــشبابْ ، فقـــــد فُـــــضت موائـــــده
ومـــــا تخلّـــــفَ إلا الجـــــوع والظمـــــأ

*****

* صالح جودت (١٩٠٨ - ١٩٧٦) : زامل إبراهيم ناجي وعلي محمود طه والهمشري في مدينة المنصورة (١٩٢٧-١٩٣١) ، وانضم لجماعة أبوللو ، صدر ديوانه الأول ١٩٣٤، تخرج من كلية التجارة ، وعمل كاتبا صحفيا بدار الهلال، من دواوينه: ليالي الهرم، أغنيات على النيل، ألحان مصرية.

تحيـــــة يـــــا «أبـــــا العبـــــاس» مـــــن نَفـــــسَ[1]
عـــــلى شـــــفاعتك الحـــــسناء يتكـــــئ
وأنـــــت مـــــن تجتبـــــي للـــــروح غايتهـــــا
مـــــن الـــــصفاء ويُجـــــلىَ عنـــــدك الـــــصدأ
إن كـــــان ذنبـــــيَ أني ضـــــعتُ في نهمـــــي
إلى الجـــــمال ، وعينـــــي لـــــيس تمتلـــــئ
أو أننـــــي في اشـــــتهاء الحـــــسن ، مـــــا برحـــــتْ
نفـــــسي تمـــــور ، وقلبـــــي لـــــيس ينطفـــــئ
أو عـــــليّ أننـــــي في الحـــــب عاصـــــفة
مـــــن الجمـــــوح ، فأرشـــــدني لمـــــن هـــــدأوا
أســـــائل الزاهـــــدين الحـــــسن ، أي ضـــــنى
يـــــسترحمون عليـــــه منـــــذ أن برئـــــوا
وأنـــــت حـــــارس هـــــذا الحـــــسن ، تنشـــــره
عـــــلى الـــــضفاف ، وتدنيـــــه لمـــــن هنئـــــوا
أمـــــضّني الـــــذنب ، لكـــــن لم أزل كلفًـــــا
بـــــه ، فجئـــــت إلى مثـــــواك ألتجـــــئ
إســـــكندرية ، عفـــــوًا عـــــن خطيئتنـــــا
ويجمـــــل العفـــــو إمـــــا يكـــــبر الخطـــــأ
كـــــم مهرجـــــان أقمنـــــاه عـــــلى «بَـــــرَدَى»
قـــــد كنـــــتِ أوّلى بـــــه لـــــو أنـــــصف المـــــلأ
منـــــازل الـــــوحي في مغنـــــاك مـــــا برحـــــت
والملهمـــــون عـــــلى شـــــطيك مـــــا فتئـــــوا
يـــــا ربـــــة الـــــشعر ، يـــــا بلقـــــيس دولتـــــه

---

1) «أبو العباس المرسي» ولي الله صاحب المسجد المأثور بالإسكندرية .

جـــــودي علينـــــا ، فإنـــــا كلنـــــا ســـــبأ
بنـــــاك للـــــصيف ذو القـــــرنين مروحـــــة
تـــــشفى بهـــــا المهـــــج الحـــــرى وتبـــــترئ
ســـــماء غـــــيرك تزهـــــي إن حـــــوت قمـــــرًا
وأنـــــت أرضـــــك بـــــالأقمار تمتلـــــئ
إني رأيـــــت طلـــــوع البـــــدر مـــــن «بحـــــري»
فقلـــــت هـــــب لي أمانًـــــا أيهـــــا الرشـــــأ[1]

(١) بحري : حي بالإسكندرية مشهور بفتنة أبنائه .

٢-ليالي الإسكندرية

أنـــت للـــدنيا ســـلام وتحيـــة
أنـــت فـــردوس القلـــوب العربيـــة
يـــا ليـــالي الـــصيف في الإســـكندرية

* * *

موكـــب الحـــسن عـــلى الكـــورنيش إذ يخطـــر لـــيلا
يمـــلأ الجـــو تـــرانيمًا وأنغامًـــا ومـــيلا
كلهـــم في ذكريـــات مـــن هـــوى قـــيس ولـــيلى
يـــسألون الرمـــل والبحـــر هـــل الجنـــة أحـــلى
أنـــت أحـــلى مـــن ليـــالي البندقيـــة
يـــا ليـــالي الـــصيف في الإســـكندرية

* * *

أنـــا في رحلـــة عمـــري طفـــت مـــن واد لـــوادي
مـــا رنـــت عينـــي إلى أجمـــل مـــن ثغـــر بـــلادي
المنـــى في كـــل شـــط والـــسني في كـــل نـــادي
هـــا هنـــا البحـــر غـــذائي ، هـــا هنـــا الرمـــل وســـادي
هـــا هنـــا ســـحر العيـــون العربيـــة
يـــا ليـــالي الـــصيف في الإســـكندرية

مررت بالبحر [١]

(١) الهلال يناير ١٩٧٣ .

مـررتُ بـالبحر فاهتاجـت لرؤيتـه ... عـواطفي وبكـتْ عينـيِ عـلى الأثـرِ
فقلت للبحر : أرجعْ من ذهبت بـه ... وخلّفتْنِـي أليـفِ الهـمِّ والـسهرِ
فلـم يُجبنِـي بغـير المـوج ملـتطمًا ... وبالنـسيم يُـسلِّيني مـن الـضجرِ
ذكـرت يومًـا بـه ودَّعـت منتحبـا ... حـسناءَ ، طلعتهـا أبهـي مـن القمـرِ
فـودَّعتْني وقالـتْ في ملاطفـةٍ : ... إن الـسفينة قـد همَّـتْ عـلى الـسَّفرِ
أتبعتهـا نظـرِي والفلْـك سـائرة ... حتَّى توارت عـن الأحـداث والنَّظـرِ
سـارت فـسار فـؤادِي في حراسـتها ... وعدت أشكو الأسى حتَّى إلى الحجـرِ
أمـرُّ بالنـاس لا ألـوِي عـلى أحـدِ ... ولا أرى غـير أشـباح مـن الـصورِ

***

يا ناصحِي بجميل الصبر في شجني ... صبرت يا صاحِ حتَّى عزَّ مصطبرِي
إمـا رجـوع حبيـبٍ بعـد غيبتـه ... عـن الـديار وإمـا ظلمـة الحفَـرِ

ـ مشاعر سوري لبناني مصري (من أب لبناني من بعلبك وأم من حلب ، ثم نزح في أول صبا إلى مصر حيث عاش بقية حياته حتى توفي في ديسمبر ١٩٧٥٢ وهو يعمل مستشارا الدار المعارف الذي قضى زهرة عمره بين ربوعها وهذا أصدر العديد من الكتب الأدبية منها للحمته «من وحي الإسكندرية» .

أحمد زكي أبو شادي:

١- شاطئ الأحلام

(خليج استانلي ـ رمل الإسكندرية)

ردوا شعاعَ الشمسِ حيث تُطِلّ ... ودعوا الحسان مكانَها تحتل
الخالعات من الثياب أجلّها ... واللابساتِ الحُسْنَ وهو أجلّ
مِنْ كلِّ لونٍ للأزاهرِ صبغة ... فيهِ وإنْ ملكَ البيانَ الفُلّ
في مَسْرَحِ البحرُ وثَّابٌ به ... مثلَ العواطفِ يَعتلي ويَزلّ
والموج يعبثُ بالصخور كأنها ... مُهَجٌ يحاربها الهوى فتَذلّ
(فينوسُ) [٢] تمرح فيه بين مَفاتِنٍ ... ويَلي (كيوبيدَ) [٣] العزيز (أبو لُّو) [٤]
وَطَنُ الألوهةِ في الحياةِ بها وعَتْ ... فلكلِّ رمزٍ للنعيمِ مَحَلّ
لا تَسْقِيني الخمَر المعتَّقةَ المُنَى ... حين العيونُ تشوفنا وتَدِلّ

خليج استانلي :

هذه الكابينات الأنيقة كأنها حفلة الأولمبياد البحر ملعبها ، وهذه هي عرائس البحر وجنيات البحر .

حين السواعدُ في الشّهيِّ لِسُمْرَةٍ ... أشهى الكؤوسِ نذوقها ونَعِلّ
الحُسْنُ لم يُعْبَدْ طَهورًا عاريًا ... بأحبَّ مِنْ هذا الذي يَبتلّ
واللهوُ لم يُغْنَمْ بريئًا حاليًا ... بأرقَّ مِنْ صَفْوٍ عليه نُطِلّ

---

* أحمد زكي أبو شادي (١٨٩٢ – ١٩٥٥) ولد بالقاهرة وسافر سنة ١٩١٣ إلى لندن ليدرس الطب، وعاد لمصر سنة ١٩٢٢ ، أسس جماعة أبوللو (١٩٣٢ – ١٩٣٤) ، هاجر إلى أمريكا سنة ١٩٤٦ حيث توفي بها ، من دواوينه: أطياف الربيع – الشفق البكي – فوق الضباب .

(٢) إله الجمال .

(٣) إله الحب .

(٤) إله الشعر .

فرحــتْ بــه الأمُّ الطبيعــةُ مــثلما لاقَــى الوصــالَ العاشــقُ المعتــلّ
مَــرْأى حيــاةُ الـشعرِ مِــنْ أوزانــهِ ويعــود للإكثــارِ فيــه مُقِــلّ
ومُنـى مِـن الأحـلامِ تـرقصُ حولنـا ومــن الحقيقــةِ مــا حكــاه الظِــلّ
كرُمَــتْ ، فكــلّ ناهــلٌ مِــنْ طيبِهــا وقَــسَتْ فــأيُّ صَــدًى هُنــاكَ يُبَــلّ ؟!

٢ - الأمواج

(عند خليج استانلي)

دُنيـا الغَـرَامِ ومَسْرَحَ الأحْـلَامِ مُـرِّي بأطيـافِ الجمال أمـامي !
العـامُ مَـرَّ ، وهـا أنـا في عـودتي مـا زلـتُ في شَـغفي وفي أحلامـي
خُـيِّرْتِ فـاخترتِ الميـاهْ مَثابـةً للحُسْنِ واخترتِ الشبابَ الظامي
وجعلتِ مِوجَ البحر مَركبَكِ الذي يرقـى ويهـبط في حُبـور غرامـي
المـاءُ أوْلى بـالجمالِ فَطُهْـرُهُ يفـترّ بالإشـعاعِ والإلهـامِ
ألقيـت عنـدَ هـديرِهِ ونثـيرِهِ سَـقَمي فبـدَّد لـوعتي وسـقامي
وجلستُ عند الشطِّ أجمع غـاتِيًا حَظّـا تَنـزَّهَ عـن أذًى ومَـلامِ
مِنْ كلِّ جسمٍ فيه ما يهبُ الصَّبا للكـونِ مِـنْ ملكوتـهِ البسَّامِ
في ضجعةٍ قُدسـيةٍ ، وصـبابةٍ عُلويـةٍ ، وتَعثُّـرٍ وتَسَامى
صُـوَرُ التهافُتِ والتباعُـدِ والرِّضَي والهجـر في حـربٍ وفي استسلامِ
الـشمسُ تنشـر فوقَهـا قُبلاتِهـا كـالبحرِ في منثـورهِ المترامـي
والعـينُ تنهـب مـن بـديعِ روائها مـالا يمـرّ بخـاطر الرسَّـامِ
أهلًا عذارى البحر !هل غيري الذي يَـدريكِ في صُـوَرٍ وفي أنغـامٍ ؟!
خـلّى فـؤادي المُسْتَطِبَّ وخـاطري يتناوبـان بلهفـةٍ وأوامِ
يَـستوحيان مـن الظـلام مَنـاعمًا ومـن اضـطجاعكِ جنـةَ النُّـوَّامِ
أبـديتِ مـا أخفيتـهِ ، وكـأنّ مـا أبـديتِ كـالأحلامِ والأوهـامِ
فـالآنَ يَـسجدُ للجمالِ خَفِيُّـه ويَعـودُ يُفْـتَنُ ذلـك المتعَـامي
وأطيـل مِـنْ نظـري إليـكِ كـأنني أخشى الظـلامَ متى لقيـتُ ظلامـي
والحسـنُ إنْ رُزِقَ الحنـانَ فإنّـه يَرْعَـى القلـوبَ رعايـةَ الأيتـامِ !

٣-على الشاطئين

(شاطئ الجمال وشاطئ الخيال)

أزِفَ البينُ يا نجيَّةَ رُوحي و «مِثال» ويا جَنَى الجنَّتَيْنِ
جَنَّةُ الحُسْنِ تلكَ عزَّزَهَا اللهُ تَعَالتْ عن كلِّ عَيْبٍ وشَيْنِ
وسواها من رَوْعَةِ الفنّ صارتْ في غِنَى عن مديح ربٍّ وزَيْنِ !
جَنَّتَا السّحرِ أنتِ يا مَنْ إليها يتناهى فنّي ويُحْمَدُ دَيْني
خشعَ البحرُ والعواطفُ للخلـ ق ، وكلّ يراكِ في نشوتينِ
وأنا المُلْهَمُ الذي ضَمَّكِ الآنَ لِيَبْقى لديكِ مِنْ بَعْدِ بَيْنِ !
كلّ جُزءٍ منّي حياةٌ تسامتْ وتناهتْ إليك في الساعديْنِ
لم أقبّلها بغيرِ حنانٍ دافقٍ مِنْ صميمِ قلبي وعَيْني
ألفُ قلبٍ وألفُ عينٍ لمثلي في وداعٍ يَنالُ مِنْ نعمتيْنِ !

***

وتَيقّظتُ من جُنوني وأحلامي فكان الجنونُ في الشاطئيْنِ !
ولقيتُ الوداعَ في حسرةِ الهجـ ـر وناري في لجّةٍ من لُجَيْنِ !

٤- في بور سعيد

أهلًا عروسَ البحر، لم يُظْفَرْ بها ... بَحْـرٌ، ولا أرضٌ، ولا أجـواءُ
تَتَلَفَّتُ الدنيا إليك بموضعٍ ... فَـذًّ كما تَتَلَفَّتُ الجـوزاءُ
إني رسولُ الشّعرِ جئتُ ممثّلًا ... لبنيه، مُذْ غَنَّى بكِ الشعراءُ
تحيينَ أنتِ نقيَّةً وعزيزةً ... والسُّفْنُ شَتَّى في حِماكِ إماءُ
في البحرِ أم في البرِّ أم في الجوِّ قد ... راعتكِ أحلامٌ لها ورجاءُ !

* * *

الصَّيفُ جاءَ فكنتُ مِنْ أطيارِهِ ... وأتيتُ يُزجيني إليكِ حنينُ
هذي الشِّراكُ لمهجتي منصوبةٌ ... وأنا قريرٌ عندها وغبينُ
أهلاً شِراكَ الحُبِّ ! كلّ مليحةٍ ... أهفو إلى نِظراتِها وأدينُ
مَثّلْنَ فتنةَ (أفروديتَ)، وهكذا ... يُهْدِي الجمالَ عن الجمالِ أمينُ
مَنْ نالَ هذا الأسْرَ مِنْ شُهَدَائِهِ ... فلهُ الحياةُ، ومَنْ عَدَاهُ دفينُ !

* * *

يا ساعةً عند الغُرُوبِ كأنّها ... خُطِفَتْ مِنَ الأحلامِ والأجيالِ
ما بالُ هذي الشمسِ تُرسل وجدَها ... فوقَ اللهيبِ على المياهِ حيالي ؟!
ما بالُ هذا الموجِ يخفق هكذا ... خَفْقَ الحياةِ تَوَثّبَتْ لزوالِ ؟!
ما بالُ هذا الحسنِ يَبعثُ شوقَه ... فوق الرمالِ إلى نُهى ورمالِ ؟!
ما بالُ هذا الجَو أَشْبع روحَه ... بالخوفِ والآلامِ والآمالِ ؟!

* * *

السُّفْنَ تَبدو مِنْ قَنَاتِكِ مثلما ... تبدو الرجاءُ لتائهِ الصحراء
حُمِّلنَ بالأرزاقِ مثلَ مَدَائنٍ ... وبَسمْنَ بالأحلامِ والأضواء
وكأنها لُعَبُ الزَّمانِ يَسُوقُها ... ويُشَاقُ من جَوَلاتها بالماءِ ؟

شـاب الزَّمـانُ ولم يـزل بطفولـةٍ ... ويَظـلُّ طفـلَ الـوهمِ والأهـواءِ
والنـاسُ إنْ خُـدِعُوا بـه فلأنـه ... قـد يَمـزُجُ الـسَّرَّاءَ بالـضَّرَّاءِ

***

هـذا المـساءُ يُظِلّنَـا بولائِـه ... والجَـوُّ فيـهِ مـن الـولاءِ صَـلَاةُ
للفيلـسوفِ بـه تجَـالُ روائـعٍ ... فلكـلِّ شيءٍ حكمـةٌ وحيـاةُ
والناحـت الرسَّـامُ يَقْـبِسُ فنَّـهُ ... مـا تُـضْمِرُ الخَطَـرَاتُ والنظـراتُ
والـشاعرُ الموهـوبُ يـسأل غامـضًا ... فتجيبـهُ الأسرارُ والآيـاتُ
والنـاقشُ الـواعي بـروحِ مُلَحِّـنٍ ... يَرْنُـو فيـوحِي النُّـورُ والأصـواتُ !

***

هـذا كِتَـابٌ للطَّبيعـةِ مالَـهُ ... عُمْـرٌ سـوى مـا شـاءَهُ الفنّـانُ
كـلُّ امـرِئٍ يَلْقـى بـه إلهامـه ... ولكـم تَنَـوَّعَ عِنْـدَهُ الإيـمانُ
شَـتَّى العَوَاطِـفِ والـشُّعُور حِيالـه ... وكـذلك الأثـوابُ والألـوانُ
إن شـئتَ كنـتَ أمامَـه في غفلـةٍ ... لا أنـتَ موهـوبٌ ولا إنـسانُ
أو شـئتَ صـاختَ الإلـهَ محـدِثًا ... وفـرأتَ مـا أوحَـى بـه الـديَّانُ !

٥- وداع البحر

(قالها الشاعر قبيل الشروق من مرتفع فندق وندسور وهو يغادر الإسكندرية)

وداعًا أيها البحرُ الجميلُ فإن المُكثَ ليس له سبيلُ
سبقتُ الشمسَ في مَرآكَ حتى يفوتَ الشمسَ ما بثَّ العليلُ
أودِّعُ هذه الأمواجَ تحوي سطورًا كلُّها شعرٌ جميلُ
وهذا الجوَّ مربدّ ولكنْ بُطلّ وراءه الخَلْقُ النبيلُ
وهذا القوسَ من صخرٍ وسدٍّ[1] كحضنٍ للمدينةِ يستطيلُ
وما تحكي القواربُ وهي حيري لما تروى النجومُ وما تقولُ
فكم في الليل يُشغلها التناجي متى سَفرتْ ويُرقصها الهديلُ
وأسرابَ المفاتنِ للغواني وكلّ عندها مُلْكٌ جليلُ
نحيِّيها وكم فيها نحيِّي معانيَ لا تُنَالُ ولا تُنيلُ
نظلّ نحوم حول السحرِ فيها وبعضُ السحرِ ليس له مثيلُ
ونُقْهَرُ بالخيالِ وبالأماني على ظمأٍ كما يظمأ القتيلُ
وداعًا أيها البحر الموالي إذا هجر المحبَّ لكَ الخليلُ !
وداعًا ! هذه اللحظاتُ تمضي سراعًا والغناءُ بها عويلُ
وهل يقف الزمانُ لأجل حُبٍّ وإنْ صحبَ الغرامَ المستحيلُ ؟
وداعًا ! هذه اللحظاتُ تمضي سراعًا والغناءُ بها عويلُ
وهل يقف الزمانُ لأجل حُبٍّ وإنْ صحبَ الغرامَ المستحيلُ ؟
وداعًا ! إنني أمضى لِذُلّي مطيعًا ، والذليلُ هو الذليلُ
وما ذُلّي لنفسي ، إنّ ذلّي لقومي ، فالمحبّ لهم دخيلُ

---

١) شارع الكرنيش .

جفتني الأربعون[1] وقد رأتني | أجود ليـنعمَ الوطنُ البخيلُ
أجود ، وكم أجودُ بكلِّ نفسي | فتُجحَدُ لي الضحيةُ والجميلُ
ويمرحُ في الذي أسديه غرٌّ | ويطعنني المغرَّرُ والنقيلُ
بلادٌ حُبُّها بدمي أصيلٌ | وإن يُخْذَلْ بها الحرُّ الأصيلُ
وليس بحُجةٍ إنصافُ فردٍ | وفردٍ حين يُضطَهَدُ القبيلُ
أفرُّ من الجمالِ ومنه رُوحي | إلى حيث الكفاحُ هو الزميلُ
إلى حيثُ العذابُ يحزُّ قلبي | فأحتملُ العذابَ ولا أميلُ
وداعًا أيها البحرُ الموافي ! | وواهفي وقد حان الرحيلُ !

(الإسكندرية ١٩٣٢)

---

١) ما مر من عمر الشاعر .

٦- وحي البحر

عـن أيِّ مَعْنَـى مِـنْ مَبَـاهِجِ نفسهِ ... رمـزَ الآلـهُ لنـا بهـذا البحـرِ ؟
نرنــو إليــه بلهفــةٍ وبنــشوةٍ ... ظَمْأي ، كنورِ النجمِ قُربَ الفجرِ؟
أتــرى نحــنّ إلى أوائــلِ عيـشِنَا ... بـالبحرِ في أقـصى عُـصورِ الـدهرِ ؟
أم أنّــه سِــفْرُ الحيــاةِ وَمَوْجُــهُ ... إيحاؤُهــا بــالنظمِ أو بــالنثرِ ؟
كتــبَ الآلــهُ عليــهِ مِــنْ آياتــهِ ... سُـوَرًا ، ونحـن بجلِّهـا لا نـدري !

٧-بنات البحر
(من خواطر يوم مطير)

الجـــوُّ تملـــؤُه الغيـــومُ ، وإنـــما — للـــصيفِ جنـــدٌ فرّقـــوا ذرّاتِهـــا
حتـــى تعـــودَ لهـــا الـــبرودةُ مِنعـــةً — جمعَـتْ سبايا الـصيف مـن أشـتاتِهَا
فتفـــيءَ للبحـــرِ المـــشوقِ أُبـــوَّة — لرجوعهـــا فغيابُهـــا كمماتِهَـــا
فعـلامَ تـشكون الـشتاءَ ومـا جَنى ؟ — أيـــلامُ حـــين حياتُـــه بحياتِهَـــا ؟

* * *

عـوُدِي بنـات البحـر في أمواجِـهِ ! — كـم نـال ظلـمُ الـصَّيْف مـن لـذّاتِهَا !
عُـودِي ! فقـد أحيـا الـشتاءُ وُعُـودَهُ — فعُداتـهُ في الـصيفِ عـينُ عُـدَايتَها
عُـودي وسـيري في العُبـابِ جديـدةً — ثـم ارجعـي للـسُّحْبِ بـينُ بناتِهَـا
وتــدفّقي مَطَــرًا طغــى وجــداولًا — تجــري رواني الــسُّحْبِ في مِرآتِهَــا
وتمتَّعـــي بجديـــدِ عُمـــرٍ ثـــائرٍ — لــن تُغــنمَ اللــذاتُ بعــد فوَاتِهَــا
وأرْضَيْ بـــدنيا لا تـــدومُ بحالـــةٍ — فــالعيشُ في التنويــعِ مِــنْ حالاتِهَــا

٨- وحي البحيرة

(نظمها الشاعر في الصباح الباكر في عودته بالقطار من بور سعيد وقد لمح عن بعد قوارب الصيد في بحيرة المنزلة)

هـذي الأهِلّـةُ[1] مـا لهـا مـذعورةً ... فتلـوح في الأفْـقِ البعيـدِ حيـارَى ؟!
جُمِعَـتْ وعَزَّزَهـا السَّحابُ كـأنَّها ... يخشى إذا اشـتعلَ النَّهـارُ النـارَ !
وإذا الميـــاهُ مَلاعـــبٌ جِنِّيَّـــةٌ ... شَـتَّى وأعـشابُ الميـاه عَـذارى
وإذا المـشاهدُ في تَحَـوُّلِ سـكرةٍ ... منـا ، ونلمحهـا كـذاك سُكارى
كالعـالَمِ المجهـولِ نخطـفُ حلمَـهُ ... بعـضَ الحظـوظِ وعنـدها يتـوارى !

***

يَثِـبُ الخيـالُ بنـا إلى أكنافهـا ... ويثـورُ في شَـغَفٍ يظـلّ مُنـارَا
ويعـودُ مـدحورًا ، فـإنَّ رموزَهـا ... شـأَتْ الخيـالَ وفاتـتْ الأسرارا
إن يـدرها أحـدٌ فطـيرٌ شـاعرٌ ... قـد أفحـمَ الـشَّعراءَ والأطيـارا
يقتـاتُ بـالألوانِ قبـلَ غذائـهِ ... مُتَعًـا وتـشربُ روحُـه الأنـوارا
يقـضي الليـالي عابـدًا متبـتلا ... يـدعو النجـومَ ويـسأل الأسـحارا
ويَنـوح للغرقـى ، فكـم مِـن نجمـةٍ ... خُدِعَتْ وقد غرقـتْ ، ويطلـبُ ثـارا
علقـتْ بـه الثـاراتُ حتـى أنـه ... ليعـيشُ في عُمـرٍ يـراه مُعـارا
وكـذاك قلبـي طـارَ حـولَ خيالهـا ... قلقًـا يُـراوِدُ حُـسْنَها الـسَّحَّارا
يجـري القطـارُ ولا أحِـسُّ بـه كـما ... أحسستُ بالـصمتِ البعيـدِ جهـارا
وكأنَّـه مَـرْأى الفنـاءِ محُبَّبًـا ... بـسكونِهِ ، وكأنـه مـا ثـارا
تتنـاوبُ الخطـراتُ مـلءَ تنـاقضٍ ... لَبِّـى كـما تتنـاوبُ الأدهـارا
تَجـري وتَنـتظمُ الوجـودَ بـأسره ... وتـرى البحـيرةَ كنيـةً وشـعارا

---

(١) إشارة إلى مرأى القوارب عن بعد .

هــي مَــسرحٌ تخـذَ الخفــاءَ جمالَــه فطنًــا وأرســلَ رغــوُه الأشــعارا
فجمعتُهــا بيــدِ الأثــيرِ ضراعــةً للحــسنِ حــين المــوجُ أنَّ مِــرارا !

٩- بنات الشفق

(نظمت عند شاطئ استانلي)

لبسنَ الجمالَ جمالَ الشَّفَقْ ووزَّعْنَ أحلامَه في الغسَقْ
وسِرْنَ على خطراتِ النسيمِ فأفعمْنَهُ بالهوى والعبَقْ
عرايا تَصَوَّفْنَ بين الفنونِ وأشعلْنَها في النَّهى والحَدَقْ
تُخطِّرنَ في صُوَرٍ من حنانٍ تشرَّبَها الموجُ بعدَ الأفُقْ
وأرسلنَ في كلِّ قلبٍ حياةٍ وهذى حياةٌ تحاكى الغَرَقْ
تَشبعتُ مِن سحرِها العبقريّ وأكذبُه في فتونٍ صدَقْ
فأنشقُ أنفاسَ هذه الحياةِ ويملأ روحَي هذا الألَقْ
وأعبدُ أعضاءَهنَّ الغوالي كأنّيَ أعبدُ ربَّ الفَلَقْ
تموَّجْنَ في روعةٍ للجمالِ وفي لهفةٍ للأماني أدقّ
وفي سُمْرةٍ من معاني الخمورِ وفي حُمْرةٍ من معاني الشَّفقْ
وفي جرأةٍ للجمالِ العزيزِ كأنا نقدِّسُهُ منْ فَرَقْ
تواءمَ في كلِّ أجزائهِ وإنْ ثار بين الورى وافترق
نتابعُه بعميقِ الخشوع ونغنم منه الهوى والأرَقْ
ونعبدُه في حنينٍ يثورُ وفي شعرِ قلبٍ شجيٍّ خَفَقْ
وفي لثماتٍ لنا في احتجابٍ تَراءى النسيمُ بها أو نطقْ
فيا مَعبدَ البحرِ عِشْ للجمالِ وعِشْ للغرام وصُنْ مَنْ عشِقْ !

١٠- حرب الشاطئ

(استيحاء شاطئ استانلي)

أوَ مَا لهذى الحربِ مِنْ آخرْ ؟ ... يا عبثًا بالشطِّ ! يا ساخرْ !
أوَ مَا سمعتَ الصخرَ في فَرَقٍ ... مستسلمًا كالفارسِ العاثرْ ؟
أوَ مَا رأيتَ الرملَ منصرمًا ... مثل الأساري في يدِ القاهرْ ؟
هذى جنودُكَ في تَدفُّقِها ... جيشان مكسورٌ على كاسرْ
جَرْحَى العنا دِماءها زَبَدٌ ... لا يستقرّ وجُرحُها غائرْ
تَترَى صفوفًا في حماستها ... تكبو ومنها الصاخبُ الثائرْ
وتخالطتْ فكأنها فِرَقٌ ... مَهزُومُها في حَلبةِ الظافرْ
وتخالطتْ فكأنها فِرَقٌ ... مَهزُومُها في حَلبةِ الظافرْ
والشمسُ تُرسل مِنْ أشعَّتِها ... حربًا على إقدامِها الجائزْ
فنرى اللهيبَ على المياهْ جَرَى ... جرىَ الأسى في ثورةِ الخاطرْ
والسُّحْبُ في جزعٍ تُراقبها ... فأكنها مَرأى لها طائرْ
والناسُ بين الموج في مَرحٍ ... لا يشعرون بروحِهِ الحائرْ
والحسنُ عن نجواه في شُغُلٍ ... فحروبُهُ كوفائهِ الغادرْ
طافتْ نماذجُه فما تركتْ ... إلاّ فؤادًا في الهوى صاغرْ
وَتجرَّدَتْ مِن كلِّ مَلبسها ... إلاّ ملابس روحِها الساحرْ
يا بحرُ ! يا مَرأى الحياةِ ويا ... حَرْبَ الحياةِ حييتَ للشاعرْ !

١١- المهلهلة

هَلْهَلْتِ مَلبسَكِ الجميلَ كأنما ... هو مَلْبَسُ المأسورةِ المتوجِّعَةْ
كتفاكِ قد عَرِيَان كأنَّ موكَّلًا ... بالأسرِ مزَّقَ ما لبستِ ومزَّعَهْ
فإذا نظرتُ إليكِ ثارتْ رحمتي ... ومحبتي وغدتْ بحسنكِ مودَعهْ
وفُتِنْتُ بالحسنِ الذي أبدعتهِ ... في زيٍّ عربيدٍ يقدِّسُ مُبْدِعَهْ !

١٢- الراية السوداء

رِفْقٍ الشاطئ في تحذيرِ مَنْ أمُّوا المياهْ
رِفْقٍ وإنْ كان احتشادُ الموجِ يكفى روعةً
أمَّا على الشاطئِ والحبُّ عتِّي كالعُتَاهْ
مَنْ ذا يصون الناسَ مِنْ بلوى مَدَاهُ ساعةً ؟

***

طاحتْ بنا أمواجُه تطغى كما يطغى الخضمّ
وتتابعت منَّا ضحاياهُ فهانتْ كالرمالْ
بحرٌ ولكن عُمْره عُمْرُ العواطف والأممْ
قد بزَّ في إيغاله الجبَّارِ آياتِ الخيالْ !

١٣- على رمل الشاطئ

المــوجُ عــلى الــشطِّ تَــوالَى ... كاللهفــةِ للنَّــزِقِ العــاثرْ
والمــاءُ هــديرٌ يَتعــالى ... كاللوعــةِ في رُوحِ الــشاعرَ
والعــشبُ عــلى الــصخرِ تَجَــلّى ... كالتوبــةِ مــن قلــبِ الكــافرْ
صُــوَرٌ للحــسِّ ممثّلــةٌ ... فإذاهــا كــالمعنى الــساحرْ
بــاللّمسِ تُحَــسُّ فــإنْ لُمِــسَتْ ... غابــت في المهجــةِ والخــاطرْ
غابــت أو عــادت في صُــوَرٍ ... أخــرى في ذاكــرةِ الــذاكرْ
والحــسنُ عــلى الرمــلِ ترامَــى ... كخيــالِ الإصــباحِ البــاكرْ
أنغــامَ آه وكــأنّ بــه ... ألحانًــا مِــن صُــبحٍ آسرْ
حُبِــسَتْ فيــه فــإذا صــدحَتْ ... صــدحَتْ في إيحــاءٍ قــاهرْ
وكــأنَّ النظــرةَ تَــسْقيني ... خمــرًا مِــنْ مَعْنَــاهُ الطــاهرْ
فــإذا الأجــسامُ مقدَّسَــةٌ ... كمعــاني الــسوقِ الحــائرْ
تُــشتاقُ ولكــنْ عِزَّتُهَــا ... خُلِقَــتْ للنظــرةِ لا النــاظرْ
تَهْــوِي الأهــواءُ مبعثــرةً ... وتُــثلّمُ كالــضَّوْءِ الخــائرْ
ويطــوفُ النــاسُ بكعبتــهِ ... وهــو المــستأنسُ والنــافرْ
بــالَى العُبَّــادَ ومــا بــالَى ... فــصلاتُهمو قلَــقٌ زاخــرْ
وصــلاةُ البحــرِ صــلاتُهمو ... كــم يَــشقى البحــرُ بــلا عــاذرْ
جذبتْــهُ إلى الحــسنِ مَعــانٍ ... والــشطّ بــه لاهٍ غــادرْ
ويَبِــثُّ الزفــرةَ في زبَــدٍ ... يَفْنَــى كالــشوقِ المتنــاجِرْ
وإذا الــساعاتُ تمــرّ سُــدَى ... إلاّ للفنّــانِ المــاهرْ !

١٤- لفتة الوداع

(عند شاطئ استانلي في ٩ سبتمبر سنة ١٩٣٤)

حـــانَ الـــوداعُ فنــاجِ مـــا سَـــمحَ الجـــمالُ بـــه وَصَـــلْ
يـــا قلــبُ مـــا بَعْـــدَ الـــودا عِ ســوى أســى العـيشِ الممــلّ
خَــذْ مـا اسـتطعتَ مِـن الأشـعّةِ في التأمُّــــلِ والـــــتَّمَلي
ومـــن انـــسجام الحــسن في نـــور عـــلى ظـــلٍّ وظـــلِّ
ومـــن الغـــروب ، وشمـــسُهِ وهَـــجٌ عـــلى وهـــجٍ أجـــلّ
والـــسُّحبُ تـــسبحُ فوقهـــا في قُرصـــها النـــاريِّ مـــثلي
حتـــى تغيـــبَ وعنـــدها أهـــويِ إلى شـــجني المُـــضِلّ
إهـــويِ كـــما تهـــوى إلى الـــــبحرِ العظيمِ المـــستقلّ
مـــتلاطمًا بــــالموج في ظُلَـــمٍ عـــلى ظُلَـــمٍ وذُلّ
خُــذْ يـــا فــؤادي وادّخـــرْ كالنّمـــل مـــن حُـــسنٍ ودلّ
فالحــــسنُ زادي والبعـــا دُ رفيـــقُ حرمـــاني ولـــيلي
هـــذي كنـــوزٌ لا تُحَـــدُّ وكلّهـــا بُعثـــرنَ حـــولي
خُـــذْ وادَّخـــرْ منهـــا ! لعـــلي اســتجمّ بهـــا ! لعـــلي !

خليل شيبوب:[1]

١- أبو قير

أبو قير[2] والأمسُ لا يرجعُ   عفت فيك من بعدنا الأربعُ
وهُدَّت خيامُ المصيف فلا   ظلالَ باكنافها يطمع
وقد طرد الناسَ عنك الخريفُ   فأوحشك المؤنسُ المقلع
وأغضبِ بحرَكَ هجرانُنا   فجاش به الموجُ يستدفع
ورُوِّع حصنُك وهو الأشم   يحاذره البطلُ الأروع
ولم يخفق العلمُ المستطيلُ   عليك وحراسةُ هجع
وقد صرتَ يأوي إلى شجراتك   وحشُ فلاةٍ بها يظلع[3]
فجرَّت على وجهك الرامساتُ[4]   ذبولًا هي الكفنُ المفجع

* * *

ليالي أبو قير أين الليالي   وأين النجومُ التي تلمع
وأين الهلالُ وكان مساءً   على البحر من خيمةٍ يطلع
أغار أخاه بكبد السماءِ   مُكَوَّنٌ بهجت المبدع
وتسرح فوق الرمالِ الظباءُ   على شاطئ البحر تستتبع
عيونٌ تغازلها أعين   قدودٌ تطوقها أذرُع
نواعمُ كالأغصن الناعمات   فوائحُ كالعطر يَضَّوَّع
طوالعُ بعد العشي شموسًا   ترافقُها الأنجُم التبع

---

(١) خليل شيبوب (١٨٩٢- ١٩٥١) ولد بمدينة اللاذقية بسوريا وهاجر إلى الإسكندرية سنة ١٩٠٨ حيث عمل في بنك الأراضي بها حتى وفاته، أصدر ديوان الفجر لأول (١٩٢١) وصدرت أعماله الكاملة بالقاهرة ٢٠١٢.

(٢) هذه اللفظة أعجمية لذلك آثرنا استعمالها كأنها لفظة واحدة مغفلين التركيب في إضافة أب إلى قير حفظًا لصدق رنتها في الأذن.

(٣) ظلع غمز في مشيه.

(٤) الرياح الدوافن للآثار.

نـــواشرُ فـــوق المتـــون ليـــالي — الـــشعور وهـــنَّ الـــدجى الـــرُوَّع
جـــوالسُ فـــوق الـــصخر غـــصونًا — عـــلى الـــصخر نـــضرتُها تمـــرع
ســـوافرُ عـــن فاضـــحات البـــدور — ضـــواحكُ عـــن درر تـــسطع
ســـواحرُ لـــبٍ ســـواءٌ أخـــو — الهدايـــة والعاشـــقُ المولـــع
ســـواءٍ لـــواءٍ بملـــك الجـــمال — لهـــن الخلـــودُ ومـــا يتبـــع

❊ ❊ ❊

وليـــل بـــه بـــتُّ مـــستلقيًا — عـــلى الرمـــلِ والجفـــنُ لا يهجـــع
تحَّـــيرُ فيـــه النجـــومُ كـــما — تَتَحَّـــيرُ في المقـــل الأدمـــع
يـــداعبُ وجهـــي نـــسيمُ المـــساءِ — وترمقنـــي الخـــيمُ الخُـــشع
بـــما علّقـــوا مـــن سراجٍ منـــير — عـــلى بابهـــا نـــورُه اســـفع
وقـــد وقَـــفَ الحـــصن طـــودًا منيعًـــا — يـــؤَمِّنُ مـــن قلبُـــه يهلـــع
وســـاد الـــسكوتُ كـــأن البرايـــا — مظنَّـــاتُ أنفاســـها تنـــزع
فحـــدَّثنيِ الـــصخرُ عـــما رأى — واســـمعني المـــاء مـــا يـــسمع
حـــوادث مـــلءَ الزمـــان اســـتقلّت — عـــلى البحـــر أحرفُهـــا تطبـــع
مـــسطرةٌ بالـــدماءِ خطوطًـــا — عـــصيٌّ بهـــا النـــاظر الطيّـــع
فتقرأهـــا في الظـــلام عيـــونُ — الفـــؤادِ وتـــضمَنُها الأضـــلع

❊ ❊ ❊

أســـاطيل تحـــسدها الراســـخاتُ — تـــسير الريـــاحُ بهـــا الأربـــع
تَـــروع البحـــارَ إذا مـــا جـــرت — ففـــي قلبهـــا الحـــوتُ مـــستفزع
تقـــلّ جيـــوش المنايـــا اســـتثارت — ومـــصرُ لنَـــسرهِم موقـــع

❊ ❊ ❊

رمـــى بالمماليـــك حتـــى تـــشتت — شـــملهم فهـــو ل يجمـــع
وجاءتـــه كـــلّ وفـــودِ الـــبلاد — تباعًـــا لإمرتـــه تخـــضع

ولكــن كبــارُ الرجــالَ يــرون — بأتبــاعهم صــممًا إن دعــوا
كــذلك خــالف أمــرَ الكبــير — أمــيرُ الميــاه [1] فــما يــسمع
وألقــى مراســيَه فيــكَ لَا — يبــالي العــدوَّ ولا يفــزع
فيــا يــومَ فاجــأة الإنكليــزُ — عــلى رأســه حُــوَّمٌ شرَّع
فدمــدمَ في أفقيــكَ الرصــاصُ — وأرعــد في بحــرك المــدفعُ
وطبَّــقَ في جانبيــك الــدخانُ — كــأنَّ الجبهــاتِ لهُــى جُــوَّع
فــروَّى بحــارَك قــاني النجيــعِ — وإن العطــاشَ [2] لهــا انجــع
واطعمهــا مــن تجاليــدهم — لحــومَ الألــوف ومــا تــشبع
وأخَّــرَ نجــدتَهم جاهــلٌ — مــن الخــوف مهجتُــه تخلــع
فحــاق الــدمارُ بهــم وكــذلك — تهــوي الجبــالُ وتــصَّدَّع

❊ ❊ ❊

شــفى نفــسهم أنهــم أدركــوا — بــك الثــأرَ والمــوتُ لا يقنــع
أتــى الــتركُ مــن بعــد حــولٍ لكــي — يــردُّوا الــبلادَ ويــستنزعوا
عديــد الرمــالِ أتــاهم بونابَــارتُ — والنــارُ في قلبــه تلــذع
رمــاهم بمــوج الحديــدِ قــضاءً — علــيهم وعــنهم لا يــدفع
فــسل عــن بــسالتهم مــصطفى — وقــد جــاءَ مــورا بــه يــشفع
رمــى بطبنجتــه مــصطفى — فتــى قلبــه الــصخر لا يهلــع
فقــطّ أناملــه بالحــسام — مــورا وجــاء بــه يظلــع
وأرســل فرســانه كالــصقور — والخيــل في شــوطها تمــزع [3]
ومــزَّق شــملَ الجنــودِ فــما — تَبَقّــى لهــم أثــرٌ يتبــع
فكــانوا طعامَــك في الحــالتين — لهــم وعلــيهم بــكَ المــصرع

---

١) قالوا أن لفظة أميرال الفرنسية لا بد أن تكون مقتبسة من العربية من قولهم «أمير المياه» لتناسب اللفظ ولعلها كذلك .

٢) مزع الفرس أسرع .
٣) مزع الفرس أسرع .

مــضوا وبقيــتَ تحــدث عــما	أتــــوه فلــم ينــضبِ المنبــع
فقــل لي هــل يرجــعُ الغــائبون	وقــل لي هــل يفطــم المرضــع
يقولــون عنــك غــدا بلقعًــا	عــلى أن عمــرهم البلقــع
أرى الجامــداتِ أطــول عمــرًا	مــن العــاقلاتِ فــما نــصنع
وأنهــم في المقــال افــتروا	بــما لفقــوه ومَــا شــنَّعوا
وأعجــبهم طــالعٌ مــشرقٌ	وأعجــبهم مــورِقٌ مفــرع
فراحــوا وشــاعرهم مفلــقٌ	لهــم وخطيــبهم مِــصقع
فــماذا أفــاداهم في الحيــاة	والــدهر في ســيرة يــسرع
وكلهــم في الــبلى صــائر	وذكــرهم سُــحُبٌ قــشع

* * *

أبــو قــير أنــت سمير الجلــيس	ووعظــك أبلــغ مــا يــسمع
ورغــم العفــاءِ أراك رياضًــا	تــسير بهــا النــسم الــضَّوَّع
ســماؤك صــافيةٌ وهــواكَ	يعيــد الــشباب ويــسترجع
وبحــرك أجمــلُ مــا يجتلي	ومــاؤك أعــذبُ مــا ينبــع
وحــصنكَ عــال يــرِفُّ عليــه	لــواءٌ هــو الــشرفُ الأمنــع
فــدم ســارحاتٍ بــكَ الظبيــاتُ	وغُلّــةٌ رائــدها تنقــع
تُــرى راجعــاتٍ ليــاليّ فيــك	أبــو قــير والأمــسُ لا يرجــع

نوفمبر سنة ١٩١٤

٢- البحر

جلستُ وجفني جارياتٌ سواكبُهْ إليه أشاكيه الأسى وأعاتبُهْ
واسأله عن سائلات مدامعي وما الدمعُ الأخيرُة ومواهبه
نسيتُ وقد رقّ الشعورُ وعُطّلتْ ثغورُ المني وانفضَّ ما أنا حاسبه
ومرَّت عوادي الدهر بي فكأنني على الدهر ذيلٌ والمنايا سواحبه
مواثيقَ أيامِ الشبابِ الذي مضى به الدهرُ وهَّابُ الشبابِ وسالبه
نفضتُ يدي إلاّ من الشعر إنه عزائي إذا ما الدهرُ جلّتَ نوائبه
أحلِي به الآمالَ ثم أعيدُها عرائسَ يجلوها الهوى وغرائبه
وكنت أخا ودّي ودال زماننا وودك مخطوبٌ واني خاطبه
فإن عدتُ بعد الهجر فالعودُ أحمدٌ إليك وأحلى الوصل ما الهجر جالبه
ففيك لقلب المستهام استراحةٌ إذا عثرت آماله ورغائبه
إذا رُقْتَ كُنْتَ الروضَ وحْفًا نباتُه تراوحه ريحُ الصبا وتداعبه [1]
تقبله نهبًا فتسعده وما نواسمُ روض الأنس إلا حبائبه
تلاحظكَ الدنيا لأنكَ ربها وحولك ملكٌ مائجاتٌ مواكبه
فيأوي إليكَ البدرُ والشمسُ كلها أرابها الكون الطوال معايبه
ترى نفسَها فيكَ السماءُ فتنجلي مباسُمها والنور غزلٌ ملاعبه
وأنت ترى فيها جمالك زاهرًا فمن منكما ربُّ الجمال وصاحبه
ولكن إذا ما ثار قلبك حافدًا عليها وهذا الماءُ جاشت غواربه
زخرتَ كأنَّ الضاريات زئيرُها علا وصداه من بعيدٍ يجاوبه
وهجتَ وهاج الكونُ حولك ناقمًا يغاضبك الدنيا وأنت تغاضبه

(١) الوحف من النبات الكثيف الريان .

وأبرق هذا الجوُّ يرسل سخطَه غيومًا كما اربدت بليلٍ غياهبه
أثار عليكَ الراعدات فأطبقت وأَطْبقْتَ كلّ ثائرات كتائبه
نهضتَ بموج كلما كَرَّ كرّةً علا وترامي سيلُه وضرائبه
تشنُّ عليه غارةً إثر غارةٍ فطورًا تراخيه وطورًا تجاذبه
ونازلته مستهزئًا بسيوله تطاولُه مستبسلًا وتواثبه
فأتعبتَه حتى استردَّ جيوشه وعاد وباديه من الذل غائبه
وأرسلَ هذي الشمسَ تطلبُ هدنة إليكَ ورب الحسن تقضى مطالبه
فعدت إلى ما أنت وجهُكَ ضاحكٌ ونورُك رقراقٌ وماؤُك شاربه
يرفرفُ طيرُ الماءِ فوقك طالبًا غذاءَ فتعطيه الذي هو طالبه
وتجري على سطحِ المياه بواخرٌ مواخر مثل السهل تمشي اهاضبه
وتسبح تحت الماءِ فيكَ عوالمٌ كأن خميس الجن ثارت سلاهبه
هنالك كونٌ آخر مثل كوننا يعيشُ قريبُ العمر فيه وعازبه
بذا ما بذا أبعادُه مطمئنة وغاباته ممتدة وسباسبه
وانجاده نهَاضة الهامِ تحتها غوائر فيها العشبُ خضرٌ شعائبه
كان به الغمرَ السحيقَ فضاؤه مشارقه مشهودة ومغاربه
وإنَّ بنيه حبهم مثل حبنا وليست بناتُ الماءِ إلاّ كواعبه
ينازع أقواهم ضعيفَهمُ كما ينازعُه ما بيننا ويغالبه
سوى أنهم لا نوم عندهم فلا يرون منامًا مزعجات غرائبه
سرت ببنهم أحكامُ خالقهم كما سرت بيننا واللهُ عدلٌ مذاهبه

***

ويومٍ قصيرُ الحزن فيه طويلةٌ ينازع قلبي يأسه ويحاربه
مشيتُ وأشجاني كَثيرٌ قليلها بقربكَ استجلي السني وأراقبه
ومن فوق رأسي اللانهاية تنحني لى مثلها والكونُ غُرٌّ عجائبه
تمُدَّان أنوارَ الجمالِ ضحوكةً إلى أفُقِ قاصٍ ترامت جوانبه

تـصافحنا فيـه فهلـل وجهُـهُ — يـسبّح مـن تَهمـي عليـه مواهبـه
كـأن بقايـا عـالم الأرضِ صـافحت — بـه عالمًـا بـالروح تعلـو مراتبـه
وأدركنـي اللّيـلُ البهـيمُ فأظلمـت — مياهـك حتـى أعجـمَ المـاءَ عاريـه
فأبـصرتُ في الجـو النجـومَ روانيًـا — وهـن طـويلاتُ الـشعاع ثواقبـه
موليـةً شـطرَ الـسماءِ وجوهها — تكـادُ تـداني ربَّهـا وتقاربـه
والحاظُهـا فـوق الميـاه وكلهـا — رواجـف قلـبِ صـامتاتٌ رواهبـه
تمليـتُ مـن هـذي المنـاظر ليلتـي — إلى أن دعـا نـاعي الظـلامِ وناعبـه
فعـدتُ وقـد لاح الفنَـاءُ لنَـاظري — وأصـدقُه في العـين مـا هَـو كاذبـه
رأيتُ بعين النفس عمري وحالَه — وإني ضـيفٌ مقلـماتٌ مراكبـه
وأني في الكـون العظـيم إضـافةٌ — إليـه وأن مُـدَّت أمـامي مآدبـه
وأني بعـد الحَـيْن لا شـك مفـردٌ — عن الكون والنسيانُ تزجي ركائبا
وتسلمني الأرضُ الخؤونُ إلى الفنا — لأفقـدَ فيـهَ كـلّ مـا أنـا كاسـب
وأحـرمُ حتـى نظـرةً وابتـسامةً — لوجـه الفـضاءِ الباسـمات كواكبـه
فناديـتُ ربي ضـارعًا مترحمًـا — وأصـبح جفنـي هامياتٍ سحائبه

* * *

إليـكَ هـوى الـنفسِ الحزينـة راجـعٌ — إذا غصب الآمـالَ في القلـب غاصبه
أناجيكَ مـسلوبَ الحشاشةَ والنهي — وعمـري يماليـه الأسـى ويناصـبه
فلـولا عيـونٌ حبهـا يبعـثُ المنـى — وأنوارُهـا تـوحي الـذي أنـا كاتبـه
لهـا زرقـةُ المـاءِ الـذي فيـك سرُّه — وفيهـا مـن الـسحر العجيـب غرائبـه
لأضجعتُ جنبـيَّ الـتراب مطوحًـا — بعمـري إن العمـر كثـرٌ متاعبـه

٨ و ٩ إبريل سنة ١٩١٥

٣-البحر مرآة الحياة

أرى البحرَ مرآة هذي الحياة بهو يُحاكي مداها اتساعا
وأبعادُه مثل أبعادِها يضيق على الفهم أن تُستطاعا
ويصفو وتصفو فحمض سرورٍ يروق الورى منظرًا وسماعا
وأن كَدُرا فشاءُ العناصر مثلُ شقاءِ النفوس نزاعا
وتغتال سَفْرَ الوجود خداعًا ويغتال سفرَ السفين خداعا
فلا هي هابت عليها حصونًا ولا هو هاب عليه شراعا
وقد وضعِ اللهُ حدًّا له وَحَدًّا لأعمارنا وانقطاعا
وسلّط هوجَ الرياحَ عليه وهوجَ الخطوبِ علينا تباعا
فنحن كأسماكه في الوجود يغولُ الكبيرُ الصغيرَ ابتلاعا
وأعمارنا كقراراته انخفاضًا إذا اختلفت وارتفاعا
وأيامُنا مثل أمواجه تجيءُ سِراعا وتمضي سِراعا

١٨ أغسطس سنة ١٩١٥

٤-نظرة وخطرة
على شاطئ البحر

يــا حُــبُّ قــد أفنيتنــي فِكَــرَا وتركتنــي بــين الــورى خَــبَرَا
وســلبتَ قلبــي كــلّ راحتــه ووهبــتَ قلبــي الهــمَّ والــضجرا
أشــقيتَ عمــرًا كنــتُ راضــيَةً مــا كــان لا صــفوًا ولا كــدرا
حــسبي شــفيعًا أنّنــي رجــلٌ أكفــى الأنــام النفــعَ والــضررا
في كــل يــوم ســيرةٌ عجــبٌ عنــدي تفــوق بفــضلك الــسيرا
بــالأمس إذ خطــرت مهفهفــة هنــدٌ أباحــت روحــي الخطــرا
في محفــل للأنــس قــد جمعــت منــه الــشواطئُ بــالورى زمــرا
والأفــق ضــاحكة ملاحظــة والبحــر هــادٍ والنــسيم سرى
نَفَــرَ الجميــعُ إليــه رائــدهم طيــبُ الهــوا وصــحبتُ مــن نفــرا
فمــشوا فــرادي في مــسارحه ومــشوا ثنــي ومــشوا بــه نفــرا
شــيبٌ وشــبان يخــالطهم سربُ المــلاج يجــرر الحــبرا
يتــسايرون بــه عــلى مهــلٍ ربــه استطابوا الأنــس والــسمرا
فكــان هنــدَ الــشمسُ إذ طلعــت تمحــو النجــوم وتفــضح القمــرا
يــا نظــرةً للقلــب إذ عرضــت مــاذا فعلــت بقلــب مــن نظــرا
يــا فتنــةً للــنفس ســاحرةً يــوحي إليَّ بيانهــا ســورا
يــا سرَّ هــذا العمــر أحــسبه لمــا رأيتــك مــنهلًا خــصرا
هــلا وقفــتِ تــراك مقلــةُ مــن ألــف الــضنى والحــزن والــسهرا
هــلا تبطنــتِ الخفــيَّ لــدى تلــك المــشاهد وهــو قــد ظهــرا
الحــب ذاكَ ملكتــهُ وأنــا مــا دار حولــك سَرَّ أو جهــرا

صـــدري وهـــذا البحـــر غورهمـــا ... أبـــدًا يـــضلل كـــل مـــن ســـبرا
ودي وهـــذا الـــصخر قـــد رســـخا ... أنـــا شـــاعر والـــصخر مـــا شـــعرا
ويـــضم قلبـــي كـــلّ مزبـــدةٍ ... جاشـــت بمـــوج عواطـــفٍ زخـــرا
كانـــت ســـماءُ الـــنفس صـــافيةً ... في أفقهـــا نجـــم المنـــى ســـفرا
لكنهـــا بهـــواكِ قـــد أفلـــت ... وثويـــتُ في ليـــل قـــد اعتكـــرا
أني نبـــذتُ العـــيشَ لـــيس لـــه ... معنـــى ولـــست ســـوى ســـناك أرى
خفيت مجـالي الكـون عـن بـصري ... فكأنـــــه بجمالـــــك اســـــتترا
لم أعتـــب الأيـــام أن غـــدرت ... إذ كـــان مـــن أهـــواه قـــد غـــدرا
لم تبتكـــر لي في الحيـــاة ســـوى ... حـــبٍ أراني اليـــأس مبتكـــرا
فـــصحبتُ أقـــوامي مجاملـــةً ... سيان مـن قـد غـاب أو حـضرا
ونـــسيتُ أن ســـواك بـــارؤه ... ربي وان ســـوى هـــواك بـــرا
وذكـــرتُ أن ســـواي لـــيس لـــه ... هـــمٌّ ســـوى غـــرضٍ بـــه اشـــتهرا
وفهمـــتُ أن العـــيش مـــضحكةٌ ... نخفـــي بهـــا الأدرانَ والـــرضرا
وحفظـــتُ إلا كيـــف ينفعنـــي ... علمـــي وإلا العقـــلَ والفكـــرا
وعلمـــتُ أن الحـــب جـــاءَ بـــه ... قَـــدَرٌ وكيـــف أعانـــد القـــدرا
فكنـــزتُ حبَّـــك في الفـــؤاد فلـــم ... أطلـــع عليـــه الـــسمع والبـــصرا
وذهبـــتُ في الـــدنَيا عـــلى قـــدمٍ ... يـــسعى بهـــا جـــدي الـــذي عثـــرا
لـــو تعلمـــين خوافقًـــا علقـــت ... قلبـــي فـــضجَّ ولـــجَّ مبتـــدرا
ومنازعًـــا للـــنفس ضـــاربةً ... أوتارهـــا مـــا أغفلـــت وتـــرا
واوبـــدًا للعقـــل شـــاردةً ... تـــرد الجنـــون وتـــأنف الـــصدرا
لرثيـــتِ للعـــاني المـــريض هـــوىً ... وجـــبرت قلبًـــا بالأســـى انكـــسرا
الله يَعلـــم أننـــي رجـــل ... لم يقـــض يومًـــا في الهـــوى وطـــرا

٣١ يوليو سنة ١٩١٦

٥-على شواطئ الإسكندرية

أشــواطئَ الإسـكندرية طيـبٌ فيـك المـصيف لعاشـق ولهـان
هجـر البيوتَ إليك محرقة اللظى إذ شُـبَّ فيهـا القـيظُ كـالنيران
وأتــاكِ يحمــل حبــه وغرامــه متقــيِّلًا في ظلــك الفينــان
يــأمر بعــي دون المرابــع أننــي دونَ المرابــع والــهٌ بــك عــاني
أنْــسَيْتَني وطنــي البعيــدَ وإنــما هــو أولٌ عنــدي وأنــت الثــاني
لكــنما فيــك الحبيــبُ وأننــي وطـنُ الحبيب أحـب مـن أوطـاني
كـم جلسةٍ لي فيك وحدي شاكيًا كــشكاية الأخــوان للأخــوان
أبكـي بكـاءَ الطفـل حتـى ينتهـي دمــع بــه يتقــرَّحُ الجفنــان
جهـد الحـزين عيونـه الـشكرى فـإن نــضبت فتلــك نهايــة الأحــزان
والـصبر أجمل ما استفاد القلبُ أن نــشط القــضاء إليــه بالحــدثان
لكنــه مــاذا يفيــد ودونــه حقــد القــضاءِ وغــضبة الأزمــان

❊❊❊

البحــر مبــسوط الأديــم كأنــه صــدرٌ أليــفُ مــسرة وأمــان
والــريح ليّنــه المهّــبِ لطيفــة كتنهــدات الموجــع الرنــان
والـشمس تـضرم في الـسماءِ مجامرًا هــذي الغيــوم لهــن مثــل دخــان
بعثــت إلى لجــج البحــار أشــعةً صــيَّرنها لجـجًــا مــن العقيــان
اللانهايـــة في بعيـــد ســـمائها واللانهايــة في القريــب الــداني
بحــران مــن جلَــدٍ ومــن مــاءٍ وفي الأفــق القــصيّ تمــارج البحــران

❊❊❊

العــين يأخــذها الجــلالُ كأنهــا شهدت هبـوطَ هـدىً ووحـيَ جنـان

يا بحر والأمواج فيك تدفّعت ... قلبي كهمّكِ دائم الخفقان
وأساك مثل أساي لجٌّ وإنما ... صدري وصدرك بالأسى رحبان

* * *

هذي شواطئك الطويلةُ أنها ... مسرى الغرام ومسرح الغزلان
نصبوا بها خيمَ المصيف صفوفُها ... متسلسلات مثل عقد جمان
نزعت بإحداها سعادُ ثيابها ... فرأت تجلّيَ حسنها العينان
وأتتكَ عاريةَ الاهاب وإنما ... لبست بياض جمالها الفتان
ورمت إليك بنفسها وتلاعبت ... في الماءِ بين الصحب والخلان
ما آن ثَمَّ ملاحةٌ وملوحةٌ ... جُمِعَا ولم يتمازج المتآن
أنتَ السماء قريبة قد أطلعت ... نجم الوجوه على مياهك راني
أنتَ الرياض جنيةٌ قد أبدعت ... زهرًا مغيرًا زهر كل جنان
هذي طيورك أنها ثرثارة ... ضحكًا ولعبًا فيك باطمئنان
الواقفات جسومهنَّ هياكل ... صحت بهنَّ عبادة الأوثان
والماشيات بطيئة مياسة ... أعطافهنَّ نواعم الأبدان
والجالسات على الصخور زواهرًا ... مثل الرياض قطوفهنَّ دواني
شجر الحياة على الرمال ثمارهنَّ ... أطايب التفاح والرمان
والسابحات رشيقة حركاتهنَّ ... بديعة التصريف والإتقان
أنت الغنيُّ وقد حويت جواهرًا ... فاقت كنوز الدر والمرجان
هذي عرائسك الجميلة أنها ... مشمولة بالحسن والإحسان
متلاعبات في مياهك مثلما ... لعبت حميًا الكأس بالسكران
يخرجن منك مكللاتٍ لؤلؤًا ... كالزهر غِبَّ العارض الهتان
لكنهنَّ عواطل من كل ما ... زان الجمال لأنهنَّ غواني
وتضيء فيك سعاد شمسًا برجها ... قلبي وقلبك أننا أخوان
الشعر فيضُ أشعة ذهبيةٍ ... والجسم فيض النور واللمعان

نزلت ذكاء إلى المغيب فواجهت ... سعدي وقد يتواجه القمران
فإذا هما يتناظران وهذه ... شمس المساءِ تميل في الميزان
ذابت حياءً فاختفت من بعدها ... أرخت ستار الأفق أحمر قاني
ومضت سعاد كأنها مَلَكٌ مشى ... في الخلد بين الحور والولدان

***

يا مُنْيَتي ومَنِيَّتي ما ضرَّ لو ... سرنا كما يتساير الإلفان
متشابكيْن أناملًا بأنامل ... متهاديَيْنِ كأننا ملكان
متساقيين غرامنا بلحاظنا ... متخاصرين كأننا غصنان
متناسيين العالمين وما بها ... والعالمون أحق بالنسيان

***

يا بحر قد جاءَ المساءُ مجررًا ... أذياله ينبثّ في الأكوان
والناس يمشون الهوينا مثلما ... يتريَّثُ المتفرج المتواني
شيب وشبان وولد كلهم ... متباين الأزياء والألوان
والبشر ترسمه الحياة سعادةً ... في أوجُه الفتيات والفتيان
ويهزهم مرحُ الشبيبة مثلما ... هز النسيم نواعم الأغصان
يتنافر الصبيان بينهمُ كما ... تتنافر الأطيار في الأفنان
وُلْدٌ كنثر الدر ملء قلوبهم ... أمْنُ السعيد وخفَّةُ الجذلان
لا رغبة لهم ولا أمنيةٌ ... أن الشقاءَ رغائب وأماني
لاهون عما في الحياة وإنما ... في اللهو كل سعادة الصبيان

....

حتى إذا ما النجم أشرق باسمًا ... في الأفق ينظر نظرة الحيران
قفل الجميع إلى منازلهم ومن ... بعد اللقاءِ رموك بالهجران

***

يــا بحــر أن العمــر هــمٌّ دائــم بتعـــارف وتباعـــد وتـــداني
أنــت الزمــان وكــل عمــر قطــرةٌ هيهــات تنفــع غَلَّــةَ الظمــآن
والــنفس مثــل شــواطئٍ ممتــدة روَّادُهـــن عواطـــف الإنـــسان
والقلــب لجنــك الــسحيقة أنهــا مرســى القــرار ومنبــع الطغيــان
أمــا الحيــاة وأنــت رمــز وجودهــا فلهــا إليــك جــواذب ومعــاني
يــا بحــر زد وانقــص فإنــك مثلهــا فــإنِ ومثلــك كــل شيءٍ فــإني

٣ و ٥ أغسطس سنة ١٩١٩

٦- الإسكندرية

هـواك بـصدري حـادث وقـديم وعهـدك عهـدي راحـل ومقـيم
وأنـت كـما شـاء الجـمال حبيبـة وأم كـما شـاء الحنـان رؤوم
وللفـن في مغنـاك مـسرى ومـسرح ومغنـاك بالحـسن التـام شـميم
أمُطلقـة الأقـمار في أفـق العُـلا بنـوك شـموس في العـلا ونجـوم
وأنت عروس الشرق حسنا وبهجة عليـك قلـوب الخـاطبين تحـوم
طلعـت عـلى التـاريخ شمـسا تنـيره وليـل الحجـى بـالمبهمات بهـيم
فلـو نطقـت فيـك الحجـارة حـدثت عـن المجـد مرفـوع اللـواء عظـيم
بناك الذي داخت به الأرض وانتهى إليـه مطـاف الأرض فهـي تخـوم
إذا إرم ذات العـماد ووصـفها عليـك علامـات لهـا ورسـوم
وأنـت عـمادٌ فوقـه شـيدت الحجى وفلـسفة موصـولة وعلـوم
نـأى عنـك بانيـك العظـيم فـرده لـك الـشوق ميتـا هـو فيـك رمـيم
ولكـن غـدا سرا بأرضـك رمـسه كـذلك سر الغانيـات صـميم

محمود العتريس

١-زورق الشاعر

شــــعاع أطـــل مـــن المـــشرق عـــلى لجـــة الخـــافق الأزرق

يـــداعب ـــ في خـــشية المـــشفق ـــ

بقايـــا شراع عـــلى زورقـــي

بقايـــا شراع عـــراه الـــضنى وأوغـــل فيـــه الأســـى موهنـــا

تكـــاد تمـــوت غـــضون المنـــي

عـــلى خـــده الـــشاحب المرهـــق

عـــلى خـــده مـــن دبيـــب القـــدر أخاديـــد عمـــر جفـــاه المطـــر

فأجـــدب ـــ إلا بقايـــا صـــور

تحـــدث عـــن رحلـــة المخفـــق

تحـــدث عـــن رحلـــة الـــشاعر عـــن البحـــر والغيـــد والـــسامر

عـــن الكـــأس في ليلـــة الـــساهر

ومـــا خلـــف العمـــر في المفـــرق

ومـــا خلـــف العمـــر بعـــد النـــوى ســـوى وأهـــن في ضـــلوعي ثـــوى

تؤرقـــه لفحـــات الجـــوي

وســـحر شـــعاع الـــصبا المحـــدق

وســـحر شـــعاع الـــصبا المحتفـــي تخطـــي ســـياج الأســـى المرجـــف

---

* محمود العتريس (١٩١٩-٢٠١٠) ولد بالإسكندرية لأب من مرسى مطروح، درس بالمرحلة الابتدائية بمطروح، وانتقل للإسكندرية ١٩٣٢ حيث حصل على دبلوم التجارة ليعمل محاسبا، من دواوينه: باب المدينة، بقايا شراع، أصداف.

وأقبـــــل يبعـــــث في أحـــــرفي
وينفـــــث مـــــن حـــــسنه الريـــــق
وينفـــــث مـــــن حـــــسنه والـــــصبا فتهتـــــز بالأغنيـــــات الـــــربي
وتزجـــــي المنـــــى موكبـــــا موكبـــــا
مـــــع المـــــوج في لجـــــة الزنبـــــق
مـــــع المـــــوج في عرســـــه الزاهـــــر يـــــداعب خلـــــف الأســـــى نـــــاظري
فتخفـــــق للـــــسحر والـــــساحر
بقايـــــا شراع عـــــلى زورقـــــي

٢-أغنية إلى الإسكندرية

جميلـــــــةَ العطـــــــر الظـــــــلال
وشـــــاطئ الـــــسحر والخيـــــال
يـــــا قلعـــــة المجـــــد والنـــــضال
خلـــــدتِ في مِـــــسمع الليـــــالى
أنـــــشودة الحـــــب والجـــــمال
يـــــا درَّةَ البحـــــر والثغـــــور
يـــــا بنـــــت (اســـــكندر الكبـــــير)
مغنـــــاك مـــــن ســـــالف العـــــصور
يـــــزدان بالـــــشمس والبـــــدور
ويـــــنفح الـــــدهر بـــــاللآلى
مـــــا زلـــــت للعـــــالمين ذكـــــرى
مواكـــــب للفنـــــون تـــــترى
والـــــنفس عـــــبر الزمـــــان حـــــيرى
في سر أحـــــلام (كيلوبـــــاترا)
وســـــحر أيامهـــــا الخـــــوالى
أحـــــال فى روعـــــة الغـــــروب
والتـــــبر ينـــــداح في الـــــدروب
(تـــــاييس) في حـــــسنها القـــــشيبِ
نـــــضِج بالـــــسحر والطيـــــوب
وتلهـــــب الوجـــــد فى الرحـــــال
وكـــــم حكـــــى المـــــوج للرمـــــال
أحـــــاجى الأعَـــــصر الأوالى

وانـــت فى الـــدهر لم تـــزالى
ريَّانـــة العطـــر والظـــلال
يـــا فتنـــةَ الغـــابر التليـــد
وروعـــة احـــاضر المجيـــد
تـــأملِى بـــسمة الوجـــود
فى بحـــرك العـــاطر الخلـــود
ورملـــك الـــساحر المحـــالى
لا تـــسألى كيـــف ذكريـــاتى
فانـــت حبـــى وأمنيـــاتى
وربَّ يـــومٍ لنـــا يـــواتى
يعبـــد مـــا راح مـــن شـــتاتى
يوشَـــيِ أفراحـــه الغـــوالى
مدينـــة العلـــم والفنـــون
وقبلـــةَ القلـــب والعيـــون
تقـــدَّمى موكـــبَ الفتـــون
وكيـــف شـــاء الخلـــود كـــونى
للمجـــد ، للحـــب، للجـــمال

٢-شاطئ الفيروز*

جئـــت أحيـــيَّ البلـــدَ الطَّيبـــا
وأحمـــل الـــشوق لـــه موكبـــا
وأمـــدح الأرض التـــى طالمـــا
أهـــدت إلى أفـــق الـــسنى كوكبـــا
وكيـــف لا أمـــدح مـــلء المـــدى
مهـــد الطفـــولات وروض الـــصبا
وكيـــف لا يحفـــل شـــعرى بمـــن
كانـــت لى الأم وكـــان الأبـــا
يـــا بلـــدا يـــذهب فى عـــشقه
عمـــرا ولا أخـــشى لـــه مـــذهبا
والله ، لـــولا قـــسمة قُـــدِّرَت
لكنـــتَ لى المـــشرق والمغربـــا
لا تـــسألونى عـــن حكاياتـــه
هـــذا الأديـــم الـــسُندُسى الربـــى
وشـــاطئ الفـــيروز لمـــا حنـــت
أمواجـــه ، والرمـــل لمـــا صـــبا
وتلكـــم الإنـــسان قـــد عطَّلـــتَ
كـــل حـــديث عـــن نـــسيم الـــصَّبَا
وذلـــك الفـــارس في قومـــه
لا يرتـــضى دون الـــذرى مأَربـــا
وســـيدى (العـــوام) قطـــب الهـــدى

* شاطئ الفيروز : مرسى مطروح.

مـــن عـــزة رب الهـــدى واجتَبـــى
«مطــروح» كــم أنجبــت مــن روعــة
بوركـــت يـــا أروع مـــن أنجبـــا
جئـــتُ، وكـــم جئـــت ويـــا ليتنـــى
أحـــضرتُ مـــن عمـــرى مـــا غبيَـــا
لكنهـــا الأيـــام تطـــوى المنـــى
وتأكـــل اليـــابس والمرطبـــا
ولى شـــباب العمـــر يـــا بلـــدتى
وأوشـــك الجـــدول أن ينـــضبا
لم تبـــق إلا ذكريـــات الفتـــى
يجترهـــا الـــشيخ شـــذًى طيبـــا
يعـــانق الـــدار بأنفاســـه
والـــدرب والـــشاطئ والملعبـــا
«مطـــروح» عفـــوا إننـــي عاشـــق
ولـــيس للعاشـــق أن يطنبـــا
حـــسبى مـــن الأيـــام يـــوم بـــه
أهـــبط واديـــك وأعلـــو الربـــى
وأســـبح الأمـــواج مـــسترجعا
مـــا ســـودَ الـــدهر ومـــا خـــضّب
وأحمـــد الأرض التـــى طالمـــا
أهـــدت إلى أفـــق الـــسنى كوكبـــا

مصطفى عبد الرحمن*

١ - إلى الشّاطئ

أتيتُــكَ تَـسْبِقُني فَرْحَتـي | وبي مثـلُ مـا بـكَ مـن لهفـةِ
ظَمِئْـتُ وطـالَ بِقَلبـي الحنـينَ | وطالـتْ عـلى حَرِّهـا غُلتِـي
فَخُـذْني إليـكَ عـلى زورقٍ | بعيـدًا .. بعيـدًا عـن الـضّفةِ
يُبَارِكُـهُ الحـبُّ أنّي يـسيرُ | ويحميـهِ مـن عاصِـفِ اللّجـةِ

***

أتيتـكَ يـا بحـرُ يـا قِبْلتـي | أعـيشُ لـديك سـنَي ضَـحْوَ لي
أطـالعُ فيـكَ سـطورَ الحيـاةِ | وأقـرأ في طَيِّهـا قِـصَّتي
أروحُ إلى أولِّ الـصفحةِ | وأمـضي إلى آخـرِ الـصِّفحةِ
وأرْجـعُ أقرؤهَـا مـن جَديـدٍ | وأسْـبحُ هَـيْمانَ في نَـشوتي

***

دَعَـاني إليـكَ دعـاني الـصَّباحُ | إلى يومِنـا المُـشْرقِ الطّلعـة
نُغَنّـي الوجـودَ نَـشيدَ الخلـودِ | عبـيرَ الـوُرُودِ لُغـي الفتنـةِ
وَنَحْيَـا هُنَالـكِ في عـالمٍ | مـن النـورِ والحـبِّ والفَرحـةِ
بـه الحَـورُ تُنْـشدُ لحَـن الـسَّماءِ | ومـا فيـهِ مـن رِقّـةِ الرِّقَـةِ

***

فيـا عـودةً للزَّمـانِ الحَبيـبِ | لَكَـمْ حَـنَّ قلبـي إلى العَـوْدةِ
إلى العمـرِ تُـشْرِقُ أيَّامـه | إلى المـوجِ يقفـزُ للـصخرةِ
يُقَبِّـلُ أقـدَامنا العاريـات | ويرتـدُّ للبحـرِ في خَجْلـةِ
ونحـنْ مـعَ العمـرِ في فرحـةٍ | ونحـنُ مِـن الحـبِّ في سَـكْرةِ

---

* مصطفى عبد الرحمن (١٩١٥ : ١٩٩٢) : ولد بالقاهرة، أصدر عدة دواوين منها: ربيع – أغنيات قلب – لحن الخلود – ليالي الشاطئ، تغنى بشعره كبار مطربي عصره.

سَــهِرْنَا ونَامَــتْ عُيــونُ الزَّمــانِ فيـــا ربَّ زدْهـــا مـــن الغَفْلَـــةِ
نقـــولُ فـــإنَّ لـــدينا الكثـــيرَ فقوليــــهِ قوليــــهِ يــــا وردتي
أعِيــدي عــلى مَــسْمَعيَّ الحــديثَ وَصَـــوتَ الملائـــكِ في الجَنَّـــةِ
ملكـــتُ بِحُبـــك هـــذَا الزمـــانَ وعـــشتُ بحُبـــك في القِمَّـــةِ

يا بحر

أتيـــتُ بِحُبِّـــي وأشْـــواقيهْ أرَوِّى عـــلى ظَمـــأ ناريـــهْ
أعيـــدُ بِـــشَطِّكَ صُـــبحَ الزَّمـــانِ وأبْـــرأ مـــن ليـــل أسْـــقَامِيَهْ
وأذكـــرُ يـــا بحـــرُ أمْـــسِي لـــديكَ وعنـــدُكَ أجْمَـــلُ أيامِيـــهْ
أغنِّيـــكَ مـــن هَتَفـــاتِ الخلـــودِ نـــشيد هـــواي وأنغامِيـــهْ

***

أطـــوفُ عـــلى جنـــةِ الـــذكرياتِ فَتَـــسْبِقُني دمعـــةٌ غَالِيـــةْ
وأذكـــرُ مـــا كـــانَ لي مـــن عهـــودٍ عـــلى شَـــطِّ أنْـــسَامِكَ الـــسَّاريهْ
نَقُـــولُ فَتُـــصغِي إلينـــا النجـــومُ وتحْمِلنـــا موجـــةٌ لا هِيـــهْ
عـــلى زَوْرَقٍ ســـابحٍ في الـــضِّياءِ هُنَالـــك في القِمَـــمِ العَالِيـــهْ

***

هنـا عِـشتُ عمـر الهَـوى والـشبابِ مـــع النـــورِ والحـــبِّ والعَافِيـــهْ
يطـــوفُ عَلَيْنـــا الـــصباحُ الجميـــلُ كَزَنْبقـــةٍ بالنـــدَى حَاليـــهْ
ويَخْطُـــر كالـــصُّبحِ فيـــكَ الجـــمالُ فلـــم تخـــلُ مـــن ســـحرِه ناحِيـــهْ
ونَمْـــضِي إلى مَوْجـــةٍ عَاريـــهْ ونحنـــو عـــلى رملـــةٍ غافِيَـــهْ
ويحلـــو لَـــدَيْك رفيـــفُ المَـــسَاءِ بِرَوْعـــةِ أنـــوارهِ الـــسَّابيَهْ
وعـــودةِ سِرْبِ المَهَـــا والظِّبـــاءِ إلى الخـــدرِ في لَهْفَـــةٍ حَانِيـــهْ

***

ولَيْلُـــكَ يـــا بحـــرُ للعاشـــقين كـــؤوسٌ تـــدورُ بهـــا سَـــاقِيَهْ
ورَقـــصٌ هـــلي هَمْهَـــاتِ الـــدُّفوفِ وشـــاكٍ هَـــوَاهُ إلى شَـــاكِيهْ

نَعِيشُ على حُلُمٍ هانِئٍ ... كأيَّامِنا الحُلوةِ الهَانِيَهْ
تَنَامُ العيونُ على غُنْوةٍ ... وتصحُو على أُخْتِها شَادِيَةْ
وكَمْ عندَ رَمْلِكَ من قِصَّةٍ ... سَيَبْقى الزَّمانُ لها رَاوِيَهْ

* * *

أَتَيْتُكَ يا بحرُ أطْوِي الهُمومَ ... وأَغْرِقُ في الموجِ نِيرانِيَهْ
فما رَقَّ قَلْبُك عند اللِّقاءِ ... لِقَلبي ، ولا ضمَّ أَشْواقِيَهْ
ولا هزَّهُ الوجد وجدِي إليك ... ولهفة رُوحي لِأحبابِيَهْ
ولا عانَقَ الموجُ آمَالِيَهْ ... ولا هَدْهَدَ الرملُ آلامِيَهْ
تَمُرُّ بِيَ الذِّكْرُ الماضِياتُ ... فَتُلْهِبُني حُرقَةٌ وَارِيَهْ
فأُرْسِلُها دمعةً جارِيَهْ ... وأَوَّاهِ من دَمْعَتِي الجارِيَهْ

* * *

وقفتُ وطالَ لديك الوقوفُ ... وبي من لهيبِ الهَوَى مابِيَهْ
وما زلتُ وحدِي مع الذكرياتِ ... تُعانِقُني الوحدة القاسِيَهْ

٢-عَوْدة إلى الشاطئ

عُـدْتُ واللّهفـةُ تـدْعُوني إليـك ... عَوْدة المخْذول من سَاحِ الحروب
أذْكُـرُ الأمـسَ وأيـامي لـدَيْك ... عَـلّ في الـذكرى شِـفَاء لِذُنُوبي
زاحفُ الأحْداثِ قد أخني عَليْك ... وخطـوبٌ جـئنْ في إثْـرِ خُطـوب

كـل سِـحْرٍ قـد تـولّى
وتـوارى عـن عُيـوني
لمْ يَعْـدُ للقلـب إلّا
ذكريـاتي وحنينـي

❊ ❊ ❊

هَـذِهِ الصَّخرةُ بالأمس جَلَسْنا ... فوقَها نرعى العهودَ البَاسِمات
وعلى أقْدَامِنا الموجُ تغنّي ... باعثًا في الشَّطِّ عَذْبَ النَّغَمَات
ها هنا نَامَتْ عُيونُ الدهرِ عَنّا ... بعْضَ حينٍ والأماني راقِصات

هَا هُنَا في كـلِّ ظـلٍّ مَعْهـدُ
تـرْقُصُ الذكرى بـه أو تقعُـد
وأنـا الـذكرى التـي لا تنفـدُ

❊ ❊ ❊

يا حبيبي كيفَ تَصْفُو لي اللّيالِي ... والذي كان تَـولّى واندَثَرْ
أتـرى تهفـو لأيامي الخوالي ... وعُهـود هُـنَّ في عُمْـرِ الزَّهـرْ
نَتَغَنّى بالمُني فوْقَ الرمال ... ونسيمُ الودِّ يَجْلُـوٌ عَطِـرْ

هـا هُنَـا المـوجُ عبـوُس مُزْبِـدُ
هـا هُـو الشاطئُ جِسْمٌ هَامِـدُ

وأنـــا وحـــدي شـــقي واجــــدُ
كــــلّ سِـــــحْرٍ قــــد تــــوَلّى
وتــــــوارَى عـــــن عُيـــــوني
لم يَعُـــــــــدْ للقلــــــــبِ إلاَ
ذكريــــــــاتي وحنينــــــــي

***

عُــذْت واللهفــة تــدعوني إليــكْ
وبِقلبــي مــا بقلبــي مــن وجيــبِ

ذاكــرًا عهــدًا قــضيناهُ لــديك
آهِ مــا أَحــلَاهُ مــن عهــد حبيــب

زاحفُ الأحداثِ قَدْ أخْنَى عَلَيْكَ
وخطــوب جِــئْن في إِثــرِ خُطــوب

٣- غريب

يـا حبيبـي أنــا في الثّغــر غريــبُ   قَــسَتِ الأيــامُ لــو تَــدرِي عَلَيْــه
قلْبُـه مــن حُرقــةِ الوَجْـد يــذوبُ   وتــــوارتْ بَــسْمةٌ في شــفتَيْه
ذاهلُ
تلْقَــــاهُ كــــالطيرِ الجَــــريحْ
ماتَــــتْ الأنغــــامُ في أوكــــارِه
ذابلٌ
كــــالعودِ يغــــدو ويــــرُوحْ
عَطّلتــــهُ الــــرِّيحُ مــــن أزهــــارِهِ
أيْـنَ مـا لاقيـت مـن صـفوِ اللّيـالِي   في ربيــعِ العُمْــرِ والــدنيا ابتــسَام
والأمــــانِي الزُّهــــرِ في دلّ حِيَــــالي   راقــصاتِ ضَــاحِكاتِ لِلْغــرامْ
وأنــــا في دَوْحــــةِ الحــــبِّ أغنــــى
أقْــبِسُ الألحــان مــن ســحرِ العيــون
بــــين صــــفوٍ ونعــــيمٍ وتَمَنِّــــى
آهِ قــــد طــــالَ إلى المــــاضي حنينــــي

***

يـا حبيبـي هـا هُنـا فَـوْقَ الرّمَـالِ   مــسرحٌ للغيــدِ يَــسْبي النَّــاظِرينْ
فوقــهُ ترتــعُ رَبَّــاتُ الجَــمالِ   في ظــلالِ الــصفوِ في رفــقٍ ولِــينْ
بَيْــدَ أنّي لمْ أجــدْ فيــهِ لِعينــي ..
في مَعَــاني الحُــسْنِ مــن معنــى حبيــبِ

طالمـــا أنـــتَ غريـــبُ الـــدارِ عَنـــي
فأنــــا الظّــــامئُ في قفـــر جـــدِيبِ

***

أتغنَّـــي بِـــكَ إذ أنـــتَ نـــشيدٌ   تَتَمَـــشّى في دَمِـــي أَنْغَامُـــه
وأمنِّـــي الـــنفسَ بالمـــاضِي يَعُـــودُ   أَتُـــرَى تَهْفُـــو لنَـــا أَيَّامُـــهُ ؟

٤- رمالُ الشّط

يا رمال الشَّطِ باللهِ أجيبي
أينَ غابَ اليوم عن عيني حبيبي
يا رمال الشط ...

* * *

جئْت والبسمةُ تعلو شَفتيَّا   لأرى بسمَةَ آمالي عَلَيْك
لم أجدْ يا رملُ من يهفُو إليا   مِثلما أقبلت لهفان إليك
غيرُ موج يلتَّوي لِبُكائي
كُلّما رَدَّدْتَ في الّشطِ نِدائِي
يا رمال الشَّطِ بالله أجيبي   أينَ غابَ اليوم عن عيني حبيبي

* * *

ها هُنا يا رملُ كانَ الموعدُ   ما الذي أنساهُ صفْوَ المَوْعدِ
إنَّني وحْدِي غريبٌ مبعدٌ   هائمٌ بالغائبِ المبتعِدِ
جئتُ ألقاهُ فلم ألقَ سِوى
خافقٍ يَهْتِفُ من مرِّ الجوى
يا رمالَ الشَّطِ باللهِ أجيبي   أينَ غاب اليوم عن عيني حبيبي

* * *

أتُرانا نلتقِي قَبْل الرَحيلْ   نستقِي الفرحةَ فيما نَسْتَقِي
ونرَى الدُّنيا سَنَي صبحٍ جميلْ   ليتَ أنَّا يا ليالي نَلْتَقِي
طال شوقِي وحنيني فأتيتُ

لَمْ أجـــدْ أَحْبـــاب قلبـــي فبكيـــتُ

يـــا رمـــالَ الـــشَّط بـــاللهِ أجيبـــي　　أيـنَ غـاب اليـومَ عـن عيني حبيبي

* * *

أيُّهـــا الرمـــلُ إذا مـــرَّ حبيبـــي　　كالنـدى في ومْـضةِ الفَجْـرِ الرَّطِيـبِ

سَلْهُ عن أمسِي وحدِّثْ عن نـصِيبي　　وارْوِ عــن أَشْــوَاقِ خَفَّــاقٍ غَرِيــب

كـــلُّ مَـــنْ حَـــوْلِيَ يَلْهُـــو ويُغَنِّـــي

وأنـــا مَـــنْ ذَا الـــذي يـــسألُ عنـــي

يـــا رمـــالَ الـــشَّطر بـــاللهِ أجيبـــي　　أَيـن غـابَ اليـوم عـن عيني حبيبي

٥- يا شاطئ الإلهام

أعَلِمتَ أنّا في رحَابكَ نَستقي — خمْرَ الهوَى في نشوة وأمان
فملأت كونك فرحةً وَجَلوتهُ — وَمَدْدت ظلّ مُنى ، ونورَ حنانِ
يا شَاطئَ الإلهَام قد جِئْنا عَلَى — لهفٍ نَبُثّ لواعجَ الأشْجانِ
رَوحانِ تَنطلقان من قيدِ الأسَى — وَتُودّعانِ مَرارة الحِرْمَانِ
يا لحظةً جمعت على لهَفي لهَا — حُلمَ الهوَى وسعادةَ الأكوانِ
النورُ هذا النورُ ملءُ جناني — والصفوُ والأفراحُ ملءُ زَمَاني
أنا عَالمٌ من غبطة وأماني — والفرحةُ الكبرى تهُزّ كيَاني

***

يا ليْتَ أني لا أعيشُ إلى غدٍ — كي لا يُروعني بِعَادُ ثانِ

٦- أيّهَا البحر

أيُّهـــا البحـــــرُ وَقَفْنَـــا فـــوقَ هـــذا الـــشَّطِ حِينـــا
وعـــلى الرَّمـــلِ جَلَـــسْنا نَتغنـــــىَّ مُعْجبينـــــا

وعـــلى موجِـــكَ فـــوق الـــزورق
كَـــمْ نَعِمْنـــا بتَحِيـــاتِ المُنَـــي
نَـــستَقِي الفرحـــةَ فـــيما نَـــسْتَقِي
وَحُـــلَى الـــدُّنيا ونعماهَـــا لَنَـــا
وجـــرتْ فـــوقَ البِـــساط الأزرق
هتَفَـــات الحـــبِّ تـــسرى مَوهِنـــا

* * *

أيـــنَ يـــا بحْـــرُ صَـــحَابي أيـــن لي أفـــراحُ أمـــسى
وأناشـــــيد شـــــبابي ومـــــسراتِي وأنـــــسى

* * *

هـــا هُنـــا في الـــشط كنـــا نلتقـــي
مـــا نـــسينا مـــرة موعـــدنا
نجـــتلي فجـــر الـــشبابِ الريـــق
فـــاتن الطلعـــة لَمّـــاح الـــسَّني
غـــاب يـــا شـــاطئُ عنـــي زورقـــي
ومـــضى الباســـمُ مـــن أيامنـــا

وبقيـــت اليـــوم وحـــدي لـــصبابات التَّمنـــي
شـــاكيا لِليـــلِ وجـــدي وإلى الأنجُـــمِ حُـــزني

٧-هَاهُنا كنا نغني

أنكــــر الـــــشَّط مـــسيري حيـــــنما سرت عليـــــهِ
وتناســــــى كــــــل عهـــــدٍ صـــــانه قلبـــــي لديــــه
لـــــيس يهفـــــو لنــــشيدي لَا ولَا يُـــــصغى إليــــه
ما الَّذي أنساك يا شاطئُ أمسى ونشيدا فيه قد ذوَّبت حسِّي
لحبيـــبٍ أرتجيـــه قبـــل نفـــسي غاب عني فانطوى صفوي وأنسى

* * *

لا أرَى الــــــشَّط بِعينـــــــي مــــــثلما كنــــــت أرَاهُ
والمنَــــــى حَــــولي تغنِّــــي وألمــــي بَعــــض نَــــدَاه
أيْـــــن لي حُـــــسنُكَ يـــــ وادي الهَـــــوى أيـــــن صِبَـــيَاه ؟
غابَ عَنْكَ الحسْن لَمَا غَابَ عني مَــنْ لَــه أشْدُو ولا يسمعُ لَحِني

* * *

هَــــا هُنــــا كنَّــــا نغنّــــي وهنَــــا كنَّــــا نــــسِيرُ
وهُنَــــا تَعْـــــرِف نَجواتــــا رِمــــالٌ وصُـــــخورُ
وهنــــا كانــــتْ كـــؤوسُ الـــصفو بــــالأمسِ تَــــدُورُ
حُلــمٌ كــانَ ووَلّى مــن يَــديَّا آهِ لــو تَرْجِــعُ أحلامــي إليــا

* * *

أيهـــــا المــــوج تحـــــدثْ وأجيبـــــي يـــــا رِمَــــالُ
إنْ يكــــن يَــــشفى جــــو ب منــــك أو يُجِــــدي سُــــؤَالُ
رحــــلَ الحــــسن عــــن الــــشَّط فـــما فيـــهِ جَمَــــالُ

كـل حـسنٍ كَـانَ مـن نـورِ حبيبـي   حيـنما كـانَ مـن الـدُّنيا نَـصِيبي

* * *

أنـا ظمـآن فعـودي وأعيـدي   لي حبيبـي يـا ليـالي مِـنْ جَدِيـدِ
يَبْـسمُ الـشط ويهفـو لنـشيدي   وأراهُ ذاكـرًا أَحْـلى العُهـودِ

٨- الشّاطئ

أيْـــنَ يـــا شَـــطّ لَيَاليـــكَ النَّـــدِيَاتُ الحِـــسَانُ ؟
أيـــنَ غابَـــتْ ؟ أيـــنَ وَارَاهَـــا عـــن العـــينِ الزَّمـــانُ
فَرغَـــتْ كـــأسِي ، وَجَفَّـــتْ مِـــنْ مُّنَـــى الـــنَّفْسِ الـــدِّنَانُ

راحَ أمـــسِي وَتـــولّى مـــن يَـــدِي غـيرُ ذِكـرى تَبْعَـثُ الماضي الـدَّفِينْ
آهِ مِنْهـــا لِلْغَريـــب المُبْعَـــدِ بـــينَ نـــارٍ وَعَـــذابٍ وَحنِـــينْ

لا رِمَـــــالُ الـــــشَّط إنْ رَاحَ يُنادِيهـــــا تُجِيـــــبُ
لا ولا يَحْنـــــو عـــــلى مَدمَعِـــــه الهَـــــامي حبيـــــبُ
شَـــفَّهُ الوَجـــدُ فأمـــسَى مـــن جـــوى الوجـــدِ يَـــذُوبُ

يـسألُ الليـلَ عـن الـصُّبح البعيـدِ ويُمَنِّـي الـنَّفسَ باللّقيَـا غَـدَا
فـإذا لاحَ سَـني الـصُّبحِ الجديـد ذهبَـتْ كـلُّ أمانيـه سُـدَى

❊❊❊

هَـــــا هُنـــــا أشرقَ للأيَّـــــام فَجـــــرى وهُنـــــا
غنَّـــــتْ الأمـــــواج والـــــشُّطان والـــــدنيا لَنَـــــا
أيـــــن مـــــا كـــــانَ عـــــلى الـــــشَّاطئِ مـــــن أفْراحِنـــــا

أيْـــن أيَّـــامَ قِـــصَارَ ذَهَبَـــتْ قـد قَـضَيْناها عـلى الرّمـلِ مَعَـا
وأمـــانٍ باســـماتٍ طُوِيَـــتْ سَـخِرتْ مـن خَـافقِي لمّـا دَعَـا

❊❊❊

كـــــل هَـــــذا راحَ مِنِّـــــي وَتَـــــوَلّى يـــــوم غَـــــابُوا
وبقيـــــت اليـــــوم أدعـــــو وصَـــــدَى الـــــصوتِ جَـــــوَابٌ

مَـــن مُعيـــدِي للــــذي قـــد كـــان والعُمـــر شَـــبَابُ

مَـــن معيـــدي لِليـــالّي الخـــوالي وعهـــودٍ خَلَّـــدتْ في خـــاطِري

نَـــسبقُ الـــصُبح إلى شَـــطِّ الجَـــمالِ ونَـــرَى المـــاضِي بعـــينِ الحَـــاضِرِ

فَرَغَـــتْ كـــأسِي وَجَفَّـــتْ مِـــن مُنـــي الـــنفسِ الـــدنَانُ

أَيـــن يـــا شَـــطَّ لياليـــك النَّـــدِيَاتُ الحِـــسانُ

* * *

٩-على الشاطئ

أي سِــحرٍ يفــيضُ مــن ناظِرِيْــك　　حَــبَسَ الفكــرَ والفــؤاد عَليْــكِ
روعــةٌ تــسْلبُ العقــولَ هُــدَاهَا　　فتـذيبُ القلـوبُ القلـوبَ في عَيْنيْـكِ
مــلأ الــشطّ فتنــةٌ وحَيــاةٌ　　رائـعٌ اللّمـحِ مــن سَــنا وَجْنَتيْــكِ
وأشَــاعَ الــضياءَ والبــشر نُــورٌ　　مــن شــعاعِ الخلــودِ في شــفَتيْكِ
عــالمٌ أنــت مــن فتــونٍ وسِــحر　　لهفــاتُ القُلــوبِ جُنَّــتْ لــدَيْكِ

***

قــدْ حَسَدْتُ الرمـالَ تحْنـو عَلَيْـكِ　　وَحَــسدْتُ النــسيمَ يهفُــو إليــكِ
وَحَسَدْتُ الميـاهَ والمـوجُ قَـدْ سَـار　　إلى الـــشَّطِ لأئـــمًا قَـــدَمَيْكِ

***

آهِ لَــوْ تَــصْدُقُ الأمــانِّي يومًــا　　والأمــاني عَــصِيُّها في يَــدَيْكِ

***

١٠-قصيدة البحيرة للشاعر الفرنسي لامارتين

بين ثلاثة شعراء وناثر

نظم «لامرتين» هذه القصيدة الخالدة في بحيرة «بورجيه» عام ١٨١٧ وكان ينتظر قدوم «جوليا» إليها، وجوليا يومئذ تكابد غصص الموت على سرير المرض فلم تلب نداءه ولم تستطع لقاءه ..

١-ترجمة : إبراهيم ناجي

من شاطئ لشواطئ جدد يرمي بنا ليل من الأبد
مامر منه مضى فلم يعد هيهات مرسي يومه لغد !

* * *

سنة مضت ! وختامها حانا والدهر فرق شملنا أبدا
ناج البحيرة وحدك الآنا واجلس بهذا الصخر منفردا !
قل للبحيرة تذكرين وقد سكن المساء ونحن باللجج
لا صوت يسمع في الدني لأحد ألا صدى المجداف والموج

* * *

فإذا بصوت غير معتاد هز السكون هتافه العذب
أصغى العباب ورجع الوادي أصداءه وتناجت السحب

* * *

يا دهر في رفق ولا تدر ساعاته، في هينة وقفي
حتى تتاح هناءة العمر وتطول لذتها لمقتطف

* * *

هلا ألتفت لذلك الكون وعلمت كم في الناس من باكي
يدعوك خذني والأسى المغني خل الممتع وامض بالشاكي

هـــذا النعـــيم وهاتـــه المحـــن يتنافـــسان الـــدهر إقلاعـــا
فبـــأي عـــدل أيهـــا الـــزمن تتـــشابه الحـــالان إسراعـــا

***

يـــا أيهـــا الأبـــد الـــسحيق أحـــب وتكلمـــي يـــا هـــوة المـــاضي
مـــا تـــصنعان بأشـــهر وحقـــب ونعـــيم عمـــر غـــير معتـــاض

***

نـــاج البحـــيرة والـــصخور وعـــذ فاســـتخلف الأغـــوار والغابـــا
قـــل ! صـــن ذكـــر غرامنـــا فلقـــد صـــين الـــشباب عليـــك أحقابـــا

***

وليبـــق يـــا هـــذي البحـــيرة في حاليـــك ثـــائرة وهادئـــة
في باســـق المـــاء منعطـــف في رائعـــات الـــصخر ناتئـــة

***

في عـــابر النـــسمات مرتجفـــا في الـــنجم فـــضض صـــفحة المـــاء
في الـــريح أن أتينـــه وهفـــا في الغـــصن نفـــس حـــر أحـــشاء

***

في الجـــو مغتبقـــا بريـــاك خطـــرت ملاعبـــة رقيـــق صـــبا
في كـــل هـــذا هـــاتف بـــاكي ســـيقول يـــا أســـفا لقـــد ذهبـــا !

البحيرة

٢- ترجمة : نقولا فياض

أهكــذا أبــدا تمــضي أمانينـــا ... نطـوي الحيـاة وليـل المـوت يطوينـا
تجـري بنـا سـفن الأعـمار مـاخرة ... بحـر الوجـود ، ولا نلقـي مراسـينا ؟
بحيرة الحب ! حياك الحيا ، فلكم ... كانـت مياهـك بـالنجوى تحيينـا
قد كنت أرجو ختام العام يجمعنا ... واليـوم للـدهر لا يرجـى تلاقينـا
فجئت أجلس وحدي حيثما أخذت ... عنـي الحبيبـة أي الحـب تلقينـا
هـذا أنينـك مـا بـدلت نغمتـه ... وطـال مـا حملـت فيـه أغانينـا
وفوق شـاطئك الأمواج ما برحـت ... تلاطـم الـصخر حينـا والهـوا حينـا
وتحت أقدامها يا طـال ما طرحـت ... من رغوة الماء كف الريح تامينا ..

***

هـل تـذكرين مـساء فـوق مائـك إذ ... يجـري ، ونحـن سكوت في تـصابينا
والـبر والبحـر والأفـلاك مـصغية ... معنـا فـلا شيء يلهيهـا ويلهينـا
إلا المجـاذيف بـالأمواج ضـاربة ... يخـال إيقاعهـا العـشاق تلحينـا ..
إذا برنـة أنغـام سـحرت بهـا ... فخلـت أن المـلأ الأعـلى يناجينـا !
والموج أصغى لمن أهوى وقد تركت ... بهـذه الكلـمات المـوج مفتونـا :
يـا دهـر قـف ، فحـرام أن تطير بنـا ... مـن قبـل أن نـتملى مـن أمانينـا
ويـا زمـان الـصبا دعنـا عـلى مهـل ... نلتـذ بالحـب في أحـلى ليالينـا
أجب دعاء بني البؤس بأرضك ذي ... وطـريهم فهمـو في العـيش يـشقونا
خـذ الـشقى ، وخـذ معـه تعاسـته ... وخلنـا ، فهنـاء الحـب يكفينـا

هيهات هيهات أن الدهر يسمع لي فالوقت يفلت، والساعات تفنينا
أقول لليل: قف! والفجر يطرده ممزقا منه سترا بات يخفينا ..
فلنغنم الحب ما دام الزمان بنا يجري، ولا وقفة فيه تغرينا
ما دام في البؤس والنعمى تصرفه إلى الزوال، فيبلى وهو يبلينا
تالله يا ظلمة الماضي ويا عدما فما الذي أنت بالأيام تجرينا
ناشدتك الله قولي وارحمي وهي أترجعين لنا أحلام ماضينا؟

* * *

فيا بحيرة أيام الصبا أبدا تفنين بالدهر والأيام تزرينا
تذكار عهد التصابي فاحفظيه لنا ففيك عهد التصابي بات مدفونا
على مياهك في صفو وفي كدر فليبق ذا الذكر تحييه فتحيينا
وفي صخورك جرداء مطلقة عليك والسود مسود الأفانينا
وفي ضفافك والأصوات راجعة منها إليها كترجيع الشجيينا
وليبق في القمر الساري، مبيضة أنواره سطحك الزاهي بها حينا
وكلما صافحتك الريح في سحر أو حركت قصبات عطفها لينا
أو فاح في الروض عطر فليكن لك ذا صوتا يردد عنا ما جرى فينا
أحبها، وأحبته .. وما سلما من الردى، رحم الله المحبينا!

البحيرة

٣-ترجمة : علي محمود طه

ليت شعري أهكذا نحن نمضي في عباب إلى شواطئ غمض
ونخوض الزمان في جنح ليل أبدي يضني النفوس وينضي
وضفاف الحياة ترمقها العين فبعض يمر في أثر بعض
دون أن نملك الرجوع إلى ما فات منها ولا الرسو بأرض

* * *

حدثني القلب يا بحيرة مالي لا أرى (أولفير) فوق ضفافك
أوشك العام أن يمر وهذا موعد للقاء في مصطافك
صخرة العهد ويك ها نذا عدت فماذا لديك عن أضيافك ؟
عدت وحدي أرعى الضفاف بعين سفكت دمعها الليالي السوافك
كنت بالأمس تهدرين كما أنت هديرا يهز قلب السكون
وجفاف أمواجها يتداعين على هذه الصخور الجون
والنسيم العليل يحمل وهنا زبد الموج للربي والحزون
ملقيا رغوها على قدميها لين المس ، مستحب الأنين

* * *

أترى تذكرين ليلة كنا منك فوق الأمواج بين الضفاف
وسرى زورق بنا يتهادى تحت جنح الدجى وستر العفاف
في سكون فليس نسمع فوق الموج إلا أغاني المجداف
تتلاقى على الربي والحواني بأناشيد موجك العزاف

* * *

وعــلى حــين غــزة رن صــوت لم يعـــود ســـماعه أنـــسى
هــبط الــشاطئ الطــروب فــما يــسمع فيــه للهاتفـــات دوي
وإذا الليــل ســاهم ســكن النــو ء إليـــه وأنـــصت اللجـــي
يتلقــى عــن نباة الــصوت نجوى كلـــمات ألقـــى بهـــن نجـــى

***

يــا زمانــا يمــر كــالطير مهــلا طــائر أنت ؟ ويك ! قف طيرانك
أهنــاء الــساعات تجــري وتعــدو نــا عطاشــا فقــف بنــا جريانــك
ويك دعنا نمرح بأجمل أيام ونلقي مـــن بعـــد خـــوف أمانـــك
وإذا نحـــن لـــذة العـــيش ذقناهـــا ومـــرت بنـــا فـــدر دورانـــك
بيـــد أن الـــشقاء قـــد غمـــر الأر ض وفــاض الوجــود بالتاعــسينا
كلهم ضارع أليك يرجيك فــأسرع ! أسرع إلى الــــــــــــضارعينا
وافــترس مــشقيات أيــامهم وأمــض رحـــى تطحـــن الـــشقاء طحونـــا
رحمــة : فــأذكر النفــوس الحزانــى وأنــس يــا دهــر أنفس الناعمينا !

***

عبثـــا أنـــشد البقـــاء لعهـــد يفلـــت اليـــوم مـــن يـــدي ويفـــر
وســـويعات غبطـــة مـــا أراهـــا ووشـــيكا مـــا تنقـــضي وتمـــر
وأنـــادي يـــا ليلـــة الوصـــل قـــرى أن بعـــد الـــسري يطيـــب المقـــر
أســـفا للـــصبا وغـــر ليـــال لـــيس يبقـــى عـــلى صـــباهن فجـــر

***

فلنحـــب الغـــداة ولنحـــي حبـــا ولـــنكن في الحيـــاة بعـــضا لـــبعض
ولنـــسارع فنقتفـــي أثـــر ســـاعا ت فقـــد تـــؤذن النـــوى بالتقـــضى
أننـــا في الحيـــاة في عـــرض بحـــر لـــيس نلقـــي المرســـاة فيـــه بـــأرض
مــا بــه مرفــأ يبــين ... ولكــن نحـن نمضي في لجة وهـو يمضي ..
اكـــذا أنـــت أيهـــا الـــزمن الحـــا قـــد تغتـــال نـــشوة اللحظـــات ؟

حيث يزجي لنا السعادة أمواجا ... من الحب زاخر اللجات ؟
أكذا أنت ذاهب بليالي الصفو عنا ... سريعة الخطوات
أكذا تنقضي ملاوة نعما ... ها كما ينقضي شقاء الحياة ؟

***

كيف حدث : أغالها منك صرف ... في أبيد الزمان حيث طواها ؟
ويك قل لي : أليس نملك يوما ... أن نراها ؟ أما تبين خطاها ؟
أتراها ولن جميعا ، ولما ... تبق حتى آثارها ، أثراها
أو ذاك الدهر الذي أفتن في صو ... غ صباها هو الذي قد محاها ؟

***

أي أبيد الزمان والعدم العا ... تي غريقين في سكون وصمت
أي عميق اللجات ماذا بابا ... م صبانا ماذا بهن صنعت ؟
حدثيني أما تعيدين ما من ... سكرات الغرام منا اختطفت ؟
أو ما تطلقينها من دياجيك أما ... تبعثينها بعد موت ؟

***

أنت يا هذه البحيرة ماذا ... يكتم الموج فيك والشطان
أيها الغابة الظليلة ردي ... أنت يا من أبقى عليه الزمان
وهو يستطيع أن يجدك حسنا ... احفظي ، لا أصابك النسيان
قل حفظا أن تذكري ليلة مرت ... وأنت الطبيعة الحسان

***

ليكن منك يا بحيرة مالج بك ... الصمت أو جنون اصطخابك
في مغانيك ماليات تراءى ... ضاحكات على سفوح هضابك
في مروج السوبر الحو تهفو ... سابغات الألياف حول شعابك
في نتوء الصخور مشرفة الأعنا ... ق بيضا تطل فوق عبابك

***

ولـــيكن في العبـــاب يهـــدر أمـــوا   جـــا عـــلى شـــاطئيك مثـــل الرعـــود
في انتحـــاب الريـــاح تعـــول في   الوديـــان أعـــوال قلبـــي المفئـــود
في صـــدى الجـــدول الموقـــع أنـــا   ت حـــشاه بالجنـــدل الجلمـــود
في شذاك الـسري ينشق منه القلب   ريـــا فردوســـه المفقـــود

* * *

ولـيكن في النـسيم مـا هـب ساريه   يجـــوب الـــشطان نحـــوك جويـــا
في جبـــين الـــنجم اللجينـــي يلقـــى   فـــضة الـــضوء في مياهـــك ذوبـــا
ولـيكن في شـتيت مـا تـسمع الأذن   وفـــيها نـــراه عينـــا وقلبـــا
لـــيكن هـــاتفي الـــصوت يتلـــو   قـــد أحبـــا ، وأخلـــصا مـــا أحبـــا

البحيرة

٤-ترجمة : أحمد حسن الزيات

أهكذا قضى الله أن نمخر في عباب الحياة مدفوعين في ظلام الأبد من شاطئ إلى شاطئ ، دون أن نملك الرجوع إلى ملجأ ، أو الرسو ذات يوم على مرفأ ؟

* * *

انظري أيتها البحيرة ! .. ها هو ذا العام قد كاد يشرف تمامه ، وأنا وحدي بجانب أمواجك الحبيبة أرتقب عبثا عودة «جوليا» إليها ، جالسا فوق الصخرة التي كنت ترينها جالسة عليها !

كذلك بالأمس كنت تهدرين فوق هذه الصخور المعلقة وتتكسر أمواجك على جوانبك المزقة ، ويقذف هواؤك الزبد على قدميها المعبودتين .

* * *

أتذكرين ليلة كنا فوق صفحتك بين الماء والسماء نجدف في سكون وصمت، وقد ضرب الله على أذان الطبيعة وختم على أفواه الخليفة ، فلا نحس حركة ولا نسمع ركزا [1] غير إيقاع المجاديف على أنغام الموج ؟

وإذا بصوت لا عهد للأذان بمثله ينبعث من ضفتك الجميلة ، فشق حجاب السكون وأطلق لسان الصدى . وهناك أنصت الموج ، وأصغى الهواء ، وأخذ هذا الصوت الحبيب إلى تساقط هذه الكلمات .

* * *

«أيتها الأرض قفي دورانك ! .. وأنت أيتها الساعات قفي جريانك ! .. ودعينا نتمتع بعاجل لذاتنا ، وننعم بأجمل أيام .

---

١) الركز : الصوت القوي .

«إن كثيرا من صرعى الحياة وفرائس البؤس يتضرعون إليك أن تسترعى بهم ، لتخففي من كربهم ، فاستحثيي إليهم ، وكرى مسرعة عليهم ، وخذي من عمرهم الذاهب ألم عذابهم الواصب ، واتركي السعداء والناعمين غارين في غفلات العيش وظلال الأمن ! ..

❊ ❊ ❊

«على أنني وأويلتاه كلما لججت في الطلب ، لج الزمان في الهرب ، فإذا أتمنى عليه المنى فلا تحقق ، فسألت هذه الليلة أن تكون أطول وأمهل ، ولكن السؤال خاب وبازي الصبح قد افترس غراب الليل ! ..

«فلنتساق أذن كئوس الهوى دهاقاء ولنقض مأربنا عجالا ، فليس لسفينة الإنسان مرفأ ، ولا لخضم الزمان سأحل : إن الزمان ليتدفق ، وأنا مع تياره نمر ونمضي !

«أيها الزمن الحاقد الحاسد ! . أكذلك قضيت أن تمضي لحظات الأنس وسكرات الحب سراعا كما تمضي أيام الشقاء والبؤس ؟

«ويلك .. أما نستطيع على الأقل أن نتبين أثارها ونلمح أنوارها ؟ .. وكيف؟ .. أتراها قد ذهبت إلى غير رجعة ، ومات إلى غير بعث ؟ .. وأويلتاه ! .. هل أنقضي كل شيء ؟ .. وهل الزمن الذي منحها وأعطاها ، والذي طمسها وعفاها لا يردها ثانية علينا ؟

❊ ❊ ❊

«حدثني أيها الأبد ! .. أيها العدم ! .. أيها الماضي ! .. أيها الغور العميق ! .. ماذا تصنع بهذه الأيام التي تغيبها في أحشائك ، وتطويها في أثنائك ؟ .. أما ترجع إلينا ما سلبتنا من سكرات نبيلة ، ومسرات جميلة ؟ ..

❊ ❊ ❊

«أيتها البحيرة الصاخبة ! .. أيتها الصخور الصامتة ! أيتها الغيراء الموحشة! أيتها الغابات المظلمة ! .. أنتن اللاتي يبقى عليهن الدهر ، فيجددهن بعد البلى،

ويخصبهن بعد المحل ! .. فاحتفظن من هذه الليلة السعيدة على الأقل بذاكرها ، وأنطوين على شذى أرجها وطيب رياها !

***

لتبق ذاكراها أيتها البحيرة في هدوئك الشامل ، وعواصفك الهوج ، وهضابك الضحوك ! لتبق في هذا الصنوبر الذاهب في السماء ، وفي وعر الصخور المعلقة فوق الماء ! .. لتبق في النسيم العابث بوجهك ، وفي الهدير المردد بين ضفافك ، وفي الكوكب الفضي يضيء سطحك بأنواره الرخية الزهية ! ..

وليقل العواء الذي يصفر ، والقصب الذي يزفر ، والنسيم المعطر الذي يضوع ! .. ليقل كما نرى وما نسمع وما نتنسم : «لقد كانا عاشقين» ! ..

وبعد، سيظل للبحر أسراره وسحره، وستبقى أناشيد شعراء البحر تراثًا شعريًا خالدًا يروى لنا قصة الحياة والبحر والحب والمجهول.

وقد آثرت أن أقدم هذا الكتاب حبًا للبحر وعشقًا له بعد أن طفت في بقاع أراضي مصر المحروسة وأحببت بحرها ونهرها، لكن أكثر ثلاث بقاع استأثرت بحبي وعشقي كانت: الإسكندرية – مطروح – بورسعيد تلك المدن ببحرها وسحرها وجمالها الآخاذ أصبحت مهوى القلب والفؤاد والوجدان، فإليها أهدي هذا الكتاب تحية حب وعشق ووفاء!

محمد رضوان

* ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية ـ محافظة الدقهلية بمصر في ١٥ سبتمبر ١٩٤٨ .

* حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ وعمل كاتبًا صحفيًا بمجلة الهلال (١٩٧٣) .

* عضو نقابة الصحفيين ـ عضو اتحاد كتاب مصر (جوال : ٠١٠٠٦٧٥٩٢٢٤ (مصر ٠٢٠٢) .

* من الأدباء والنقاد الذين يتناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت ـ أنيس منصور ـ أحمد عبد المجيد ـ د. يوسف نوفل ـ عبد العليم القباني ـ د. مقداد يالجن ـ د. ماهر شفيق فريد ـ كمال النجمي ـ كمال نشأت ـ فاروق شوشة ـ محمد إبراهيم أبو سنة ـ حسن فتح الباب) .

* له خبرة في الصحافة الأدبية والسياسة ، حيث عمل في سلطنة عمان رئيسًا لتحرير مجلة السراج الأدبية (١٩٧٦ ـ ١٩٧٧) ، (١٩٩٢ ـ ١٩٩٤) ، ومديرا لتحرير مجلة (النهضة) السياسة (١٩٨٢ ـ ١٩٩٣) .

* ابتدع لنفسه منهجًا أدبيًا في كتابة السير سماه (المنهج الوجداني) يجمع بين الموضوعية والعاطفية ، بين التحليل الأدبي النفسي وذاتية الكاتب وذوقه الأدبي ، ولعل بداياته القصصية هي التي ساعدته في تأصيل هذا المنهج ، فوصفه السفير الشاعر أحمد عبد المجيد (حين يتولى محمد رضوان كتابة سيرة لشاعر من الشعراء نراه يدلف إلى روحه ويتسرب إلى حياته وما اضطرب فيها من حال إلى حال ، ويتشح برداء عصره الذي عاشه ، ويتنسم ما كان يستنشقه ، فتجيء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدى) .

* له أكثر من عشرين كتابًا في أدب السير منها : صفحات مجهولة من حياة

زكي مبارك ـ مأساة شاعر البؤس : عبد الحميد الديب ـ اعترافات شاعر الكرنك أحمد فتحي ـ شاعر الأطلال ناجي ـ شاعر الجندول علي محمود طه ـ شاعر النيل والنخيل : صالح جودت ـ رحلتي مع القلم ـ عندما يحب الشعراء ـ شعراء الحب ـ شاعر الروابي الخضر : أحمد خميس ـ شاعر الهمسات: أحمد عبد المجيد.

قام بجمع وتحقيق ودراسة :

ـ ديوان شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب (المجلس الأعلى للثقافة) ـ القاهرة ٢٠٠٠ .

ـ ديوان شاعر الجندول ، علي محمود طه (هيئة قصور الثقافية) ـ القاهرة ٢٠١٠ .

ـ ديوان شاعر الكرنك ، أحمد فتحي (مكتبة جزيزة الورد) ـ القاهرة ٢٠١٢.

- ديوان شاعر الحب، صالح جودت (مكتبة جزيرة الورد) – القاهرة ٢٠١٢.

- مؤلفات الأديب محمد رضوان في مكتبة جزيرة الورد:

- عندما يحب الشعراء.
- فرسان الشعر الحلمنتيشي.
- شعراء رباعيات الخيام.
- اعترافات السندباد المصري.
- لكل عاشق حكاية.
- شاعر ليالي الشرق، أحمد خميس.

الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع الصفحة